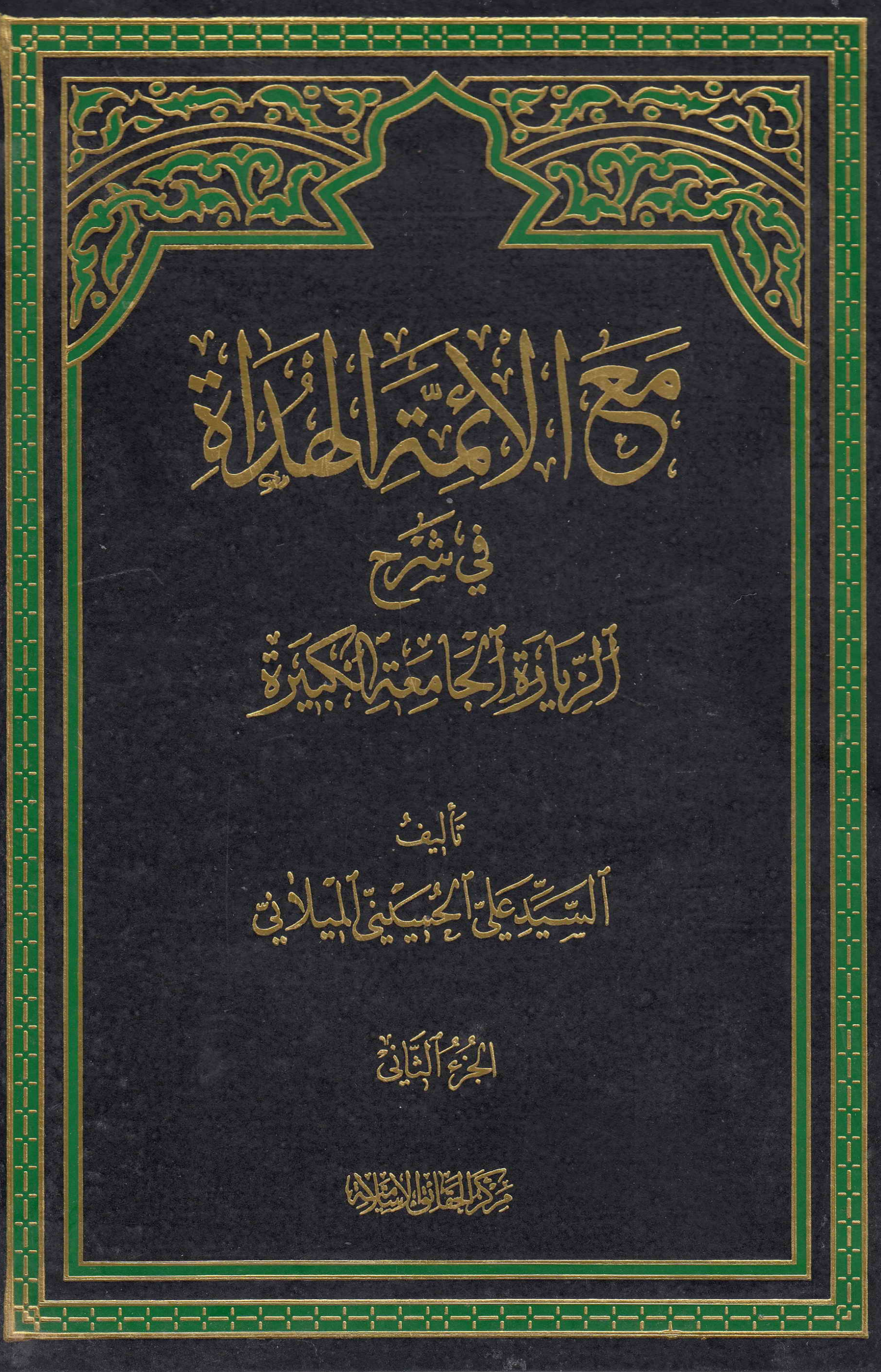
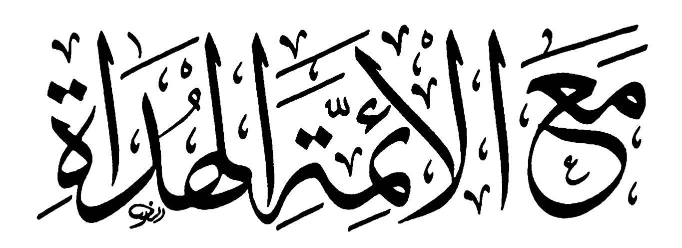

مع الأئمة الهداة
في شرح
الزيارة الجامعة الكبيرة
تأليف
السيد علي الحسيني الميلاني
الجزء الثاني
مركز الحقائق الإسلامية



في شرح

الزيارة الجامعة الكبيرة

تأليف

السيد علي الحسيني الميلاني

الجزء الثاني

مركز الحقائق الإسلامية

سرشناسه: حسینی میلانی، سید علی، ١٣٢۶ –
عنوان قراردادی: زیارتنامه جامعه کبیره. شرح
عنوان و نام پدیدآور: مع الائمة الهداة في شـرح الزيـارة الجامعة الكبيرة / تاليف السيد على الحسيني الميلاني.
مشخصات نشر: قم: نشر الحقايق، ١۴٣۵ق. = ١٣٩٢ –
مشخصات ظاهری: ۴٠٠ ص.
شابک: دوره: 978-600-5348-46-0
ج.١: 978-600-5348-47-7؛
ج.٢: 978-600-5348-79-8؛
ج.٣: 978-600-5348-80-4؛
یادداشت: عربی.
یادداشت: ج.٢و٣ (چاپ اول: ١۴٣۵ق.=١٣٩٢) (فیپا).
یادداشت: کتابنامه.
موضوع: زیارتنامه جامعه کبیره -- نقد و تفسیر
شناسه افزوده: نشر الحقایق
رده بندی کنگره: ١٣٩٠ ۵۶ ح/ ٢٠٢/ ٢٧١ BP
رده بندی دیویی: ٢٩٧/٧٧٧
شماره کتابشناسی ملی: ٢۵٩٣٧٢٩



اسم الكتاب: مع الأئمّة الهداة عليهم السّلام (في شرح الزيارة الجامعة الكبيرة)، ج ٢

المؤلف: السيد علي الحسيني الميلاني

نشر: الحقايق

الطبعة: الأُولى، ١٤٣٥

المطبعة: ستاره ـ قم

الكميّة: ١٠٠٠

السعر: ١٢٠٠٠٠ ريال

ردمك الدورة: ٩٧٨ـ٦٠٠ـ٥٣٤٨ـ٤٦ـ٠   978 - 600 - 5348 - 46 - 0

ردمك: ٩٧٨ـ٦٠٠ـ٥٣٤٨ـ٧٩ـ٨   978 - 600 - 5348 - 79 - 8

▣ **عنوان مركز النشر:** قم، شارع صفائيه، مقابل «صندوق قرض الحسنه دفتر تبليغات»، هاتف: ٠٢٥-٣٧٨٣٧٣٢٠

▣ **عنوان مركز التوزيع في طهران:** شارع مجاهدين، تقاطع «آبسردار»، بناية الأطباء «ساختمان پزشكان»، شُقّة رقم ٩، منشورات مركز منير الثقافي، هاتف: ٠٢١-٧٧٥٢١٨٣٦ (٤ خطوط)

▣ **عنوان مركز التوزيع في طهران:** شارع «پاسداران»، شارع «شهيد گلنبی»، زاوية شارع ناطق نوری، بناية زمرد «ساختمان زمرد»، الطابق الثاني، رقم ٤٣، منشورات آفاق، هاتف: ٠٢١-٢٢٨٤٧٠٣٥

▣ **عنوان مركز التوزيع في مشهد:** شارع الشهداء، خلف حديقة نادري «باغ نادرى»، زقاق الشهيد خوراكيان، بناية «گنجينه كتاب»، دار نشر نور الكتاب، هاتف: ٠٥١١-٢٢٤٢٢٦٢   ٠٩١٥١١٩٩٤٨٦

▣ **عنوان مركز التوزيع في اصفهان:** شارع «چهارباغ پائين»، مقابل ملعب «تختي» الرياضي، مركز الحوزة العلمية التخصصي للحوزة العلمية في اصفهان، هاتف: ٠٣١١-٢٢٢٣٤٢٣

▣ **عنوان مركز التوزيع في تبريز:** شارع الامام الخميني، قُرب دوّار «ساعت»، سوق «بزرگ تربيت»، الطابق الأسفل، رقم ٢٦، منشورات «نداى شمس»، هاتف: ٠٤١١-٥٥٤٠٢٥٢

▣ **عنوان مركز التوزيع في زنجان:** محطة «هفت تير»، محطة الباصات، معرض الكتاب «گلستان»، هاتف: ٠٢٤١-٣٢٢٠٩٩٠

▣ **عنوان مركز التوزيع في كرمانشاه:** شارع «اباغ ابريشم»، بجانب مدخل جامعة الرازي الأصلي، مكتبة الحافظ، هاتف: ٠٨٣١-٤٢٨٤٠٨٢

▣ **عنوان مركز التوزيع في كاشان:** قاطع ٢ منطقة ناجي آباد، نهاية شارع پاسگاه، شارع مهستان، مكتبة فيروز (السيد هاشمي)، هاتف: ٠٣٦١-٥٤٣٢٨٨٣   ٠٩١٣٦٨١١٩٣٢

الموقع: www.al-haqaeq.org ـ **البريد الالكتروني:** Info@al-haqaeq.org ـ **الرسائل النصية:** ١٠٠٠١٤١٤+٩٨


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم

يسرّ مركز (الحقائق الإسلاميّة) أنْ يقدّم إلى المكتبة الإسلامية كتاب (مع الأئمّة الهداة في شرح الزّيارة الجامعة)، الذي أتحف به سيّدنا الفقيه المحقّق آية الله الحاج السيّد علي الحسيني الميلاني ـ دامت بركاته ـ أهل الولاء للنبيّ وأهل بيته الأطهار عليهم الصّلاة والسّلام، في محاضراتٍ متواصلة ألقاها في الحوزة العلمية بقم باللّغة الفارسيّة، فقام المركز بترجمتها إلى اللغة العربيّة، كما سيبادر إلى ترجمتها إلى اللّغات الأخرى أيضاً، ليعمّ نفعها المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها إن شاء الله.

لقد شرح سيّدنا الزيارة الجامعة على ضوء آيات الكتاب الكريم والروايات المعتبرة، وعلى أساس الأُصول الثابتة في مباحث الإمامة في علم الكلام، بما لم يسبقه أحدٌ في هذا الباب فيما نعلم.

ولقد بذل الإخوة المحقّقون في المركز جهداً كبيراً في تصحيح الكتاب وإرجاع المطالب إلى المصادر الأصليّة وإخراجه منقّحاً بقدر الإمكان، وسيقع في أربعة أجزاءٍ مع الفهارس التفصيليّة في الجزء الأخير.

فإليكم الجزء الثاني من هذا الكتاب، ومن الله التوفيق.

مركز الحقائق الإسلامية

كلمة المؤلّف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمدٍ وآله الطّـاهرين المعصومين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الأوّلين والآخرين.

وبعد:

فهذا هو الجزء الثاني من كتابنا (مع الأئمة الهداة في شرح الزيارة الجامعة) نقدّمه لأهل الولاء لأهل البيت المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، راجياً منهم الدعاء، ومن الله القبول. بمحمد وآله الطاهرين.

علي الحسينيّ الميلانيّ

١٤٣٥

القسم الأول
الإمامة ومعرفة الإمام

وَأَشْــهَدُ أَنَّكُمُ الْأَئِــمَّةُ الرَّاشِــدُونَ

الْــــمَهْدِيُّونَ الْــــمَعْصُومُونَ

الْــمُكَرَّمُونَ الْــمُقَرَّبُونَ الْــمُتَّقُونَ

الصَّــادِقُونَ الْــمُصْطَفَوْنَ الْــمُطِيعُونَ

لِــلَّهِ الْــقَوَّامُــونَ بِأَمْــرِهِ الْــعَامِلُونَ

بِــإِرَادَتِــهِ الْــفَائِزُونَ بِكَــرَامَــتِه

وَ أَشْهَدُ أَنَّكُمُ الْأَئِمَّةُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ الْمَعْصُومُونَ الْمُكَرَّمُونَ الْمُقَرَّبُون

في الشّهادَةِ الثالثة

بدايةً نقول:

إنَّ الشهادة الثالثة، أي الشهادة والإقرار بإمامة وولاية وخلافة الأئمّة الأطهار عليهم السّلام، تعدُّ من أهم الاصول عند الشيعة بعد الشهادة بوحدانيّة الله ورسالة النبي الأكرم صلّى الله عليه و آله، بل هي وعلى حدِّ تعبير أعاظمنا، مكمّلة للشهادتين في ديننا، وكما قال عزّوجلّ في يوم الغدير:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ﴾.[1]

وبعبارة ثانية؛ ليس للشهادتين الأثر المطلوب، بدون الإقرار بالشهادة الثالثة، فإنَّ الله عزّوجلّ يقول:

﴿وَ رَضيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ ديناً﴾

وبطبيعة الحال، فإنَّ مخاطبَنا في هذه البحوث هم غير الذين ـ كما

---

(١) سورة المائدة (٥): الآية ٣.

وصفتهم الآية الكريمة ـ: ﴿في قُلُوبِهِمْ مَرَض﴾،[١] وأمّا أُولئك فلا كلام لنا معهم.

وهنا لابدّ من بيان عدّة مطالب:

المطلب الأول: لا شك في أنّ آية الولاية قد نزلت في حقّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام، ألا وهي قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَهُ ورَسُولُهُ والَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ وهُمْ راكِعُون﴾[٢]

وقد وردت في هذا الشأن أحاديث كثيرة بطرق الشيعة والسنّة، فدلالة الآية على ولاية أمير المؤمنين عليه السّلام بعد ولاية الله والرسول، قطعيّة ومسلّمة، فكما أنّه يجب الإقرار والشهادة بولاية الله ورسوله، كذلك يجب الإقرار والشهادة بولاية أمير المؤمنين عليه السّلام.

المطلب الثاني: وردت روايات كثيرة جاء فيها إنّ إسم أمير المؤمنين عليه السّلام قد ذكر مقروناً لاسم الله تعالىٰ وإسم رسوله في عالم ما قبل عالمنا، وكذا في غيب عالمنا هذا.

وبعبارة اخرى، في كلّ مرتبة من مراتب الوجود وأينَما كتب «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله» كُتب «علي ولي الله، علي حجّة الله» وأوصاف مختلفة أُخرى، وهذه الأحاديث منقولة في كتب الشيعة والسنّة بنحوٍ مستفيض.[٣]

(١) سورة الحجر (١٥): الآية ٩٩.

(٢) سورة المائدة (٥): الآية ٥٥.

(٣) ترجمة الامام الحسين عليه السّلام، ابن عساكر: ١٨٦، وقد جاء في هذا المصدر: قال رسول الله: ليلة عرج بي إلىٰ السماء رأيت على باب الجنّة مكتوباً: لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، على حبّ الله، والحسن والحسين صفوة الله، فاطمة أمة الله، على باغضهم لعنة الله ؛ وراجع كتاب نفحات الازهار في خلاصة عبقات الانوار ٥ / ٢٣٦.

المطلب الثالث: وردت روايات في خصوص الشهادة بالولاية بعد الشهادتين، وفي هذه الروايات إطلاق وعموم يشمل الأذان أيضاً.

المطلب الرابع: حتّى لو قبلنا عدم إمكان الإستدلال بهذه الروايات المطلقة، لعدم تماميتها من جهة السند مثلاً، يمكننا الإستدلال بروايات «مَن بَلَغ»،[١] وهذا الإستدلال كافٍ للإفتاء بالشهادة الثالثة في الأذان.

المطلب الخامس: إذا صارت الشهادة الثالثة في الأذان من شعائر المذهب ـ كما قال بذلك بعض الفقهاء الأجلاّء وأفتوا به ومنهم آية الله العظمى السيّد محسن الحكيم الّذي نصَّ على ذلك في كتاب المستمسك ـ كانت الشهادة الثالثة في الأذان واجبة.[٢]

وعلى هذا، فإنّ الشهادة الثالثة ليست أمراً مبتدعاً من قبلنا أو ناشئاً عن هوى النفس أو بداعي حبّ أهل البيت عليهم السّلام، بل هو واقع قام الدليل عليه، وإن كنّا نتحرّى المواطن للتعبير عن وِدّنا وإخلاصنا لأهل البيت عليهم السّلام بشتى الأنحاء المتاحة.

وفي شرح هذه الفقرة من الزيارة، نكاتٌ وتأمّلات مفيدة، فقد أفادت أنّ كلّ ما وصل إليه الأئمّة الأطهار عليهم السّلام، فإنّما هو منحة من الله سبحانه و تعالى لهم، فلذا نقول: «اصْطَفَاكُمْ بِعِلْمِهِ وارْتَضَاكُمْ لِغَيْبِهِ واخْتَارَكُمْ لِسِرِّهِ واجْتَبَاكُمْ بِقُدْرَتِهِ وأَعَزَّكُمْ بِهُدَاه...» حيث أنّ جميع هذه الأفعال مسندة إلى الله تعالىٰ ومنسوبة اليه، وإنّه هو الذي أقرّ هذه الذوات الطاهرة في هذه المقامات ورفعهم إلىٰ هذه الدرجات.

---

(١) وسائل الشيعة ١ /الباب ١٨ من أبواب مقدّمات العبادات.

(٢) مستمسك العروة الوثقى ٥ / ٥٤٥.

إنَّ هؤلاء السّادة الأطهار قد حازوا لياقة وأهليّة وشأنيّة الفوز بهذا العطاء الإلهي، فجاد الباري جلَّ وعلا عليهم بهذه المقامات. والسؤال هو: ماذا فعل الأئمّة الأبرار حتّىٰ وصلوا إلىٰ هذا المقام؟

وبعد هذه الفقرة تأتي العبارة اللّاحقة مصدَّرة بـ «فاء» التفريع: «فَعَظَّمتُم جَلالَهُ وأكبَرتُم شَأنَهُ» أي كلّما رفعكم الله و قرَّبكم إليه، تواضعتم وخشعتم له أكثر فأكثر.

ومن الضروري هنا بيان مطلبين:

الأول: إنَّ من يقولون: «قد يصل الإنسان إلىٰ مقام تسقط عنده عنه الصَّلاة والعبادة والخضوع والخشوع»،[1] هم متوهمون الوصول إلىٰ مقام مّا، ويحاولون التهرب من التكاليف الشرعيّة بهذه الذريعة الواهية، فإنَّ الله تعالىٰ يقول في كتابه:

﴿وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِين﴾[2]

أي حتّىٰ يأتيك الموت.

المطلب الثاني: وطائفة أُخرى من المنحرفين يقولون: إنَّ الزيارة الجامعة فيها غلوّ!

فإنْ كان هؤلاء من مصاديق الآية: ﴿في قُلُوبِهِمْ مَرَض﴾[3] فلا كلام لنا معهم، وإنْ لم يكونوا من هذا الصنف، فعليهم أن يلتفتوا إلىٰ إنّ الله تبارك وتعالى هو

---

(١) نهج الحق وكشف الصدق: ٥٨. وينبغي التنبيه إلىٰ أن أكثر هؤلاء الأفراد هم من الصوفية الذين يقولون بأن الله تعالىٰ يحلّ في أبدان العرفاء. وبعضهم يقول بالاتحاد، وأن العارف إذا اتّحد بالله سقطت عنه العبادة.

(٢) سورة الحجر (١٥): الآية ٩٩.

(٣) سورة البقرة(٢): الآية ١٠.

الذي منح هذه المقامات والمنازل للأئمّة الأطهار عليهم السّلام حيث تقول الزيارة:

«اصْطَفَاكُمْ بِعِلْمِهِ وارْتَضَاكُمْ لِغَيْبِهِ واخْتَارَكُمْ لِسِرِّهِ واجْتَبَاكُمْ بِقُدْرَتِهِ وأَعَزَّكُمْ بِهُدَاه»

ثم نقول:

«فَعَظَّمْتُمْ جَلَالَهُ وأَكْبَرْتُمْ شَأْنَهُ... وأَحْكَمْتُمْ عَقْدَ طَاعَتِه»

فأين الغلو في هذا؟

إنّنا ـ ومن خلال آيات القرآن الكريم ـ عرفنا إنَّ في تاريخ الإسلام بل ومن إبتداء الخلقة يوجد قسمان من الأئمّة:

١ ـ أئمة ضلال.

٢ ـ أئمة هدى.

وهذا موضوع يحتاج إلىٰ بحث مستقل، ولكن إجمالاً نقول:

إنَّ حكمة الله تعالىٰ وسنّته في خلقه قد إقتضت ذلك، وقد بدأت هذه الحقيقة منذ أن تمرّد إبليس علىٰ الأمر الإلهي بالسجود لآدم عليه السّلام.

أَشْهَدُ أَنَّكُمُ الْأَئِمَّةُ الرَّاشِدُون

أوّل وصف من أوصاف الأئمّة عليهم السّلام نشهد عليه ونقرُّ به، هو إنّهم «راشدون»، وإتصافهم بهذا الوصف واقعٌ وحقيقةٌ، شهد بها حتّىٰ أعداؤهـم ولم ينكره أحدٌ.

ما معنى «رشد»، «رشيد»، «راشد» والذي يجمع علىٰ «راشدون»؟

جاء في كتاب المفردات في غريب القرآن:

الرَّشَد والرُّشد: خلاف الغي، يستعمل إستعمال الهداية.

... قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً﴾(١) و ﴿وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾(٢) وبين الرشدين، أعني الرشد المؤنس من اليتيم والرشد الذي أُوتي إبراهيم عليه السّلام بؤنٌ بعيد...

وقال بعضهم: الرَّشَدُ أخصّ من الرُّشْدِ، فإنّ الرُّشْدَ يقال في الأمور الدّنيويّة والأخرويّة، والرَّشَدُ يقال في الأمور الأخرويّة لا غير. والرَّاشِدُ والرَّشِيدُ يقال فيهما

---

(١) سورة النساء(٤): آية ٦.

(٢) سورة الأنبياء(٢١): آية ٥١.

جميعاً، قال تعالى: ﴿أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُون﴾[١].[٢]

بناءاً على قول الراغب، فإنَّ الرشد مقابل الغي، وهكذا جاء في القرآن المجيد: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَي﴾.[٣]

ويأتي الرشد بمعنى الهداية أيضاً.

وأما في القاموس المحيط، فقد ذكرت خصوصيّة أُخرى لهذا المصطلح، قال: «الرشد: الإستقامة على طريق الحقّ مع تصلّب فيه...»[٤]

ويبدو أنَّ هذا المعنى هو المناسب لحال نبي الله إبراهيم عليه السّلام في قوله تعالى: ﴿ولَقَدْ آتَيْنا إِبْراهيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْل...﴾[٥] وهو المناسب لحال الأئمّة الأطهار عليهم السّلام.

الأئمة هم الخلفاء الراشدون

وقد وردت كلمة «الراشدون» مرّة واحدة فقط في القرآن المجيد حيث قال تعالى: ﴿وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وزَيَّنَهُ في قُلُوبِكُمْ وكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ والْفُسُوقَ والْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ* فَضْلاً مِنَ اللَّهِ ونِعْمَةً واللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ﴾[٦]

---

(١) سورة الحجرات (٤٩): الآية ٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الإصفهاني: ١٩٦.

(٣) سورة البقرة (٢): الآية ٥٦.

(٤) القاموس المحيط ١ / ٢٩٤.

(٥) سورة الأنبياء (٢١): الآية ٥١.

(٦) سورة الحجرات (٤٩): الآية ٧.

يقول الفضيل بن يسار: سألت الإمام الصّادق عليه السّلام: هل الحبُّ والبغض من الإيمان؟

فقال عليه السّلام:

وهل الإيمان إلاّ الحبّ والبغض؟ ثمَّ تلا هذه الآية...[١]

ولقد كان الأئمّة عليهم السّلام المصداق الأعلىٰ لمفهوم كلمة «الرشد»، أي إنّهم كانوا علىٰ هدى وأنّهم إستقاموا عليه، ولكن ومع ذلك كانوا بذواتهم الطّاهرة أنوار هداية وهداة إلىٰ طريق خالٍ عن شائبة الغي، ولذا فهم أحقّ بالاتّباع والقيادة، قال تعالىٰ:

﴿أَ فَمَنْ يَهْدي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى﴾[٢]

وعجبي من اُولئك الذين نصبوا أعلاماً لهم في مقابل أهل البيت عليهم السّلام ووصفوهم بالخلفاء الراشدين، بل إنّهم تمادوا في الغي ورَوَوْا في بعض كتبهم الحديثية عن النبي الأكرم صلّى الله عليه و آله إنه قال:

«عَلَيكم بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِن بَعْدِي»[٣]

ولكن ـ وطبقاً للتحقيق في متن وسند هذا الحديث ـ إتّضح إنَّ هذا الحديث وحتّىٰ علىٰ مباني أهل السنة وإستناداً إلىٰ أقوال علمائهم في الجرح والتعديل ـ غير صحيح، وإنّ بعض علماء أهل السنّة صرّح بعدم إعتباره، ولكن، وعلى فرض التغاضي عن البحث السندي وقبول صحة الحديث، فإنّه لا مناص من القول بأنَّ

(١) الكافي ٢ / ١٢٥، الحديث ٥.

(٢) سورة يونس (١٠): الآية ٣٥.

(٣) المعجم الكبير ١٨ / ٢٤٧، المستصفى، الغزالي: ١٦٩، الإحكام في أُصول الأحكام، الآمدي ١ / ٢٤١.

الأئمّة المعصومين عليهم السّلام هم الخلفاء الرّاشدون لا زيد وبكر وخالد، إذبقطع النظر عن الروايات والأدلّة الاخرى، فإنّ حياة هؤلاء الأطهار حاكية عن رشدهم، وإنَّ مطالعة سيرتهم وأحوالهم ـ حتى في كتب المخالفين لهم ـ خيرُ شاهد ودليل علىٰ هذا المعنى.

فإذا ما كان أكثر الناس قد تركوا طريق الرشد وإختاروا طريق الغي والتمسوا اُناساً سمّوهم ـ خطأ ـ الخلفاء الراشدين، فهذا تقصير منهم... يقول تعالىٰ:

﴿وَ إِنْ يَرَوْا سَبيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبيلا﴾[١]

فمن البديهي عندنا إنّ هذا اللقب من ألقاب الأئمّة عليهم السّلام، كما أن «الصدّيق» و «الفاروق» من ألقاب أمير المؤمنين علي عليه السّلام.[٢]

وطبقاً للتحقيق، فإنَّ كبار علماء أهل السنة يقولون: ليس عندنا حديث يُثبتُ لقبَ «الفاروق» لعمر بن الخطاب «وإنّما لقّبه بذلك أهل الكتاب، أي اليهود».

فاليهود هم الذين أطلقوا هذا اللقب علىٰ عمر.[٣]

نعم، أئمّتنا هم الأئمّة الراشدون، ولذا، فإنَّ الله تعالىٰ نصبهم لهداية الناس وجعلهم قادة لهم.

---

(١) سورة الاعراف (٧)، الآية ١٤٦.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السّلام ١ / ٩، أمالي الشيخ الصدوق: ٢٨٥.

(٣) راجع: البداية والنهاية ٧ / ١٥٠.

أَلمَهدِيُّونَ

في أصول الكافي بابٌ تحت عنوان «الأئمّة هم الهداة»[١] وإنه ـ وكما في هذا العنوان ـ فإنّ الهداية والهادويّة كليهما منحصران في الذوات المقدسة للأئمّة عليهم السّلام، يقول تعالىٰ:

﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وِلِكُلِّ قَوْمٍ هاد﴾[٢]

وكما جاء في أحاديث الفريقين، فإنّ رسول الله صلّى الله عليه و آله أفاد: إنّ عليّاً هو الهادي لهذه الامّة من بعده.[٣]

وعلى هذا، أيمكن أن يكون الهادي غيرمهتدٍ؟ وأن يكون غير المهدي هادياً؟

فكلُّ واحد من أئمّتنا عليهم السّلام مهدي، فمن هو الهادي لهم؟

إنّ هاديهم هو الله تعالىٰ، فما ظنّكم بمن كان الله تعالىٰ هاديه؟

وأما تلقيب ولي العصر والزمان أرواحنا فداه بـ«المهدي»، فإنما ذلك لوجود خصوصيّات فيه وفي كيفية هدايته، ولعلّ من أهم هذه الخصوصيّات هو تحقق الوعد الإلهي علىٰ يديه، وهو قوله: ﴿هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون﴾[٤]

كما إنَّ تحقق وعد رسول الله صلّى الله عليه و آله «يَمْلؤُهَا قِسْطاً وعَدْلًا بَعدَمَا

---

(١) راجع: الكافي ١ / ١٩١.

(٢) سورة الرعد(١٣): آية ٧.

(٣) راجع: ج ١. الصفحة ٢٣٦ من هذا الكتاب.

(٤) سورة التوبة(٩): الآية ٣٣.

مُلِئَتْ ظُلماً وجَوْراً»[١] يكون على يدي الإمام المهدي أرواحنا فداه وعجّل الله تعالىٰ فرجه الشريف وجعلنا من أنصاره وأعوانه.

أَلمَعْصُومُونَ

ذُكرتْ عصمة الأئمّة عليهم السّلام في عدّة مواضع من الزيارة الجامعة، وسوف نبيّن الأدلّة على هذا المقام العظيم في قسم الإعتقادات،[٢] حيث نتناول فيه بحث العصمة، الشفاعة، الرجعة، و بعض المسائل الاعتقاديّة الاخرى التي يطرحها الزائر في مقام زيارة الأئمّة عليهم السلام.

أَلْمُكرَّمُونَ

بينَ «المُكْرَمون» و «المُكَرَّمون» فرقٌ، مع إشتراكهما في أصل المعنىٰ وهو الكرامة، فهذا التشديد وطبقاً لقانون «كثرةُ المباني تدلّ علىٰ كثرة المعاني» لابدّ أن يكون له هنا دلالة زائدة ومعنىً إضافي.

فللأئمّة عليهم السّلام كرامة خاصّة عند الله تعالىٰ وهمْ مقدّمون علىٰ غيرهم.

ومصطلح «مكرّمون» مأخوذ من قوله تعالىٰ:

﴿وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَم﴾[٣]

والإنسان أساساً، أفضل من كثير من المخلوقات، ولكنّ لبَّ تكريم بني آدم

---

(١) راجع: بحار الأنوار ٩/ ٥١.

(٢) للمؤلف رسالة في العصمة، و هي مطبوعة.

(٣) سورة الاسراء(١٧): الآية ٧٠.

منصبٌّ علىٰ وجود محمد وآل محمد عليهم الصَّلاة والسلام، والذين هم مقدّمون علىٰ الآخرين في جميع الجهات.

فالأنبياء السّابقون مكرَّمون أيضاً، وكذا الملائكة، ولكن ثبت في محلّه وقد أشرنا إلىٰ ذلك أيضاً فيما سبق، أن الأئمّة عليهم السّلام أفضل من جميع الأنبياء ماعدا رسول الله محمد صلّى الله عليه وآله، وهم مقدمون حتّىٰ علىٰ أُولي العزم من الأنبياء عليهم السلام، وإنْ كان قبول هذا المعنى يصعب علىٰ بعض الأفهام، ولعلّنا نوفّق إن شاء الله إلىٰ زيادة توضيح لهذا المطلب لاحقاً.

وقد أشرنا في شرح فقرة «وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون» المأخوذة من الآية المباركة،[1] إلىٰ جهات من التكريم المعنوي الإلهي للأئمّة عليهم السّلام من قبيل العصمة، العلم، والشفاعة،[2] ولكنّ التكريمات المعنوية لاتنحصر في هذه الأمور، فإنّ حضرات الأئمّة عليهم السّلام، هم مظاهر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

فإذا ما قلنا: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السّلام مقدَّمون علىٰ جميع المخلوقات ومن كلّ الجهات، فإنّ مقصودنا هو بيان إمتيازهم في أصل الخلقة وفي الصفات والكمالات الظاهريّة والباطنيّة معاً.

وهذا ما سنقرؤه لاحقاً أيضاً في قوله عليه السّلام:

«فبلغ الله بكم أشرف محلّ المكرّمين».

---

(١) سورة الأنبياء (٢١): الآية ٢٦ و٢٧.

(٢) راجع: ج ١، الصفحة ٣٧٢ من هذا الكتاب.

أَلْمُقَرَّبُونَ

الأئمّة عليهم السّلام مقرّبون من ساحة القدس الإلهيّة، وكلّ الأنبياء، الأولياء، وعباد الله الصالحين، لهم قرب معنوي، وقد ذُكرت في القرآن الكريم امتيازات خاصّة لهؤلاء.

يقول عزّوجلّ:

﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُون﴾(١)

ولكنّ المستفاد من الآيات والروايات هو أن مراتبهم متفاوتة. لذا جاء في الذكر المجيد:

﴿وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ﴾(٢)

فمثلاً جاء في حق عيسى عليه السّلام:

﴿وَجيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبين﴾(٣)

وأيضاً، فإنّ الملائكة وإنْ كانوا بأجمعهم في عالم الملكوت، ولكنّهم ليسوا في مرتبة ودرجة واحدة، لذا قال تعالىٰ:

﴿وَ لاَ الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُون﴾(٤)

ولاحظوا هذا التعبير القرآني:

﴿وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولئِكَ الْمُقَرَّبُون﴾(٥)

---

(١) سورة المطففين(٨٣): الآية ٢٨.

(٢) سورة الاسراء(١٧): الآية ٥٥.

(٣) سورة آل عمران(٣): الآية ٤٥.

(٤) سورة النساء(٤): الآية ١٧٢.

(٥) سورة الواقعة(٥٦): الآية ١٠ و ١١.

وانظروا كيف إنّه في هذه الآية الشريفة، وضمن الإشارة إلىٰ اختلاف مراتب المقربين، خصَّ السابقين منهم بمقام كمال القرب الإلهي. و«المقربون» في الزيارة الجامعة إشارة إلىٰ هذه الآية المباركة.

الأئمّة هم «السابقون»

لأنهم هم السّابقون في أصل الخلقة، كما جاء في أحاديث خلقهم من النور، وسيأتينا في شرح فقرة «خلقكم الله أنواراً» أيضاً.

و هم السّابقون في المعرفة حيث قالوا: «بِنا عُرف الله»[١].

والسّابقون في الميثاق، كما سيأتي في قوله: «ووكّدتم ميثاقه».

والسّابقون في العبادة، حيث قال عليه السّلام: «بنا عُبد الله»[٢].

وفي حديث آخر، قال عليه السّلام: «سبّحنا فسبّحت الملائكة بتسبيحنا»[٣].

أمّا في هذا العالم، فالسّابق إلىٰ الإسلام هو أمير المؤمنين عليه السّلام، وهو ما روي متواتراً عند الفريقين.[٤]

أَلمُتَّقُونَ

إنَّ مصطلح «التّقوى» مأخوذ من الوقاية، يقول الراغب الإصفهاني:

---

(١) راجع بحارالانوار ٢٦ / ٢٦٠.

(٢) راجع بحار الأنوار ٢٦ / ٢٦٠.

(٣) راجع نفحات الازهار في خلاصة عبقات الانوار ٥ / ١٥١.

(٤) نفس المصدر السابق ٢٠ / ٤٠٩.

«وقى: الوقاية حفظ الشئ مما يؤذيه ويضرُّه، يقال: وقيت الشئ، أقيه وقاية... والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف...»[١]

إنَّ الوقاية من أي ضرر إنّما تكون بحسبه، فمثلاً الوقاية من الطقس البارد إنّما تكون بإرتداء الإنسان ملابس الشتاء كي لا يمرض، فيقال في حقه: وقى نفسه من البرد؛ أو يقال: توقّى البرد.

ما معنى الضرر؟

والضرر من «الضُرّ» وهو سوء الحال، أو النقصان عمّا هو المطلوب في الحال أو الشيء.

فمثلاً، المسير الصحيح والوضع المطلوب للتاجر، هو أن يربح ويترقّى في تجارته، فإن إنحرف عن هذا المسير قيل في حقّه: لقد تضرّر.

مثال آخر، إنّ صحّة الإنسان مرهونة بعمل أعضاء بدنه بشكل صحيح، فإذا ما قام كلّ عضو من أعضائه بعمله على ما هو المطلوب منه والمخلوق من أجله، فسيبقى بدنه سليماً، ومزاجه مستقيماً، ولكن لو إعترض بعض الأعضاء عارض صحّي وإنحرف عن خطّ عمله ووظيفته، قيل في حقّ هذا الشخص: إنّ صحّته غير معتدلة، وحاله سيّئ.

والكلام هو الكلام في الامور المعنوية، فالضرر يعني الإنحراف عن المسير الصحيح والحال المستقيم والوضع المقبول شرعاً وعقلاً.

فالمسير الصحيح في البعد الإعتقادي، هو أن يصحّح الإنسان معتقداته

(١) المفردات في غريب القرآن: ٥٣٠.

بأخذها من القرآن والسنة والمصادر المعتبرة، وأن يحافظ ويستقيم على هذه المعتقدات، وأن تكون عقائده صلبة لا تتزلزل أمام الشبهات، ولا تنحرف عند المزلّات. فإذا ما خرج الشخص عن خط سير معتقداته الصحيحة، قيل في حقّه: إنّ فلاناً ساء حاله وانحرف في عقيدته.

إنَّ الإنسان موظف بأداء التكاليف، بالإجتناب عن المحرّمات والعمل بالواجبات، وعليه أن يأخذ ذلك من المنابع الصحيحة التي عيَّنتها الشريعة، وهو في ذلك إما مجتهدٌ وإما مقلِّد أو محتاط، فلو إنّ الإنسان التزم بذلك على وجهه الصحيح، كان عمله صحيحاً وسليماً من العيب والنقص. وأمّا إذا وجد خلل أو نقص في عمله، أو أنه أخذ تكاليفه من مصدر غير معتمد، يقال في حقّه: إنّه سيئ العمل ومنحرف عن الشريعة.

وكذا الكلام في البعد الأخلاقي، فمراقبة النفس الإنسانيّة أمر لازم، وطبقاً لما ورد في الكتاب والسنّة، فإنّ النفس الإنسانيّة تحتاج إلى التزكية والتهذيب، وأن تُزان بالصفات الحسنة، وتطهّر من الصفات السيئة.

فعلى الإنسان أن يخطو خطوات في هذا الطريق، وأن يواظب على طهارة نفسه، وأن يسعى إلى تركيز هذه الطهارة في نفسه أكثر فأكثر.

وفي هذا المجال، عليه أن يجتنب عن قراءة الكتب المضلِّلة، والحضور في المحيط الملوّث، ومراودة أصدقاء السّوء، وأن لا يُصغي لكلّ ما يقال هنا وهناك، وأن لا يجالس إلاّ الصّالحين، فإنَّ كلَّ ذلك له غاية الأثر والتأثير عليه، وفي عكس هذه الحالة سيفسد وسيقال: إنّ فلاناً سيّئ الأخلاق ومنحرف أخلاقاً.

وبناءاً على ما مرّ، فإنّ التقوى هي السّلامة من كلّ أنواع وأقسام الإنحرافات،

وعلى الإنسان المكلف الذي يريد طي طريق الكمال أن يكون حذراً في الأبعاد الثلاثة، العقائدية، العملية، والأخلاقية، فأي خللٍ وغفلةٍ ستؤدّي إلىٰ الإنحراف عن المسير الصحيح، وإلى الإبتعاد عن الوضع السليم.

ما هي التقوىٰ؟

بالبيان الآنف، المستفاد من الروايات، وكلمات الأعاظم، ومراجعة كتب الأخلاق، لابدّ أن نقول: إنّ «التقوى»، تعني المواظبة علىٰ تجنّب الوقوع في المضرّات، والحذر من الإنحرافات، فإذا ما قيل: فلان متَّقٍ؛ يعني إنَّ فيه ملكة المواظبة على نفسه بالنحو المذكور.

هذا، وقد وردت تأكيدات كثيرة في الكتب الأخلاقية علىٰ «المراقبة»، فالمراقبة وكذا المحاسبة بالمعنى المذكور في الكتب المعنّية لهذين المصطلحين، هي نوع وقاية، ومن أوضح مصاديقها، فهي علىٰ أقل التّقادير وسيلة للثبات والمحافظة علىٰ ما حصل عليه الإنسان من الفضائل، ومن ثمَّ ترشيدها للترقي والوصول إلىٰ الحدّ المطلوب من الكمال.

مراتب التقوى

وللتقوى مراتب، ولقد كان أئمّتنا عليهم السّلام المصداق التام للكلمة وفي أعلى مراتب «المتقين».

يقول تعالىٰ في القرآن المجيد:

﴿وَالَّذي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون﴾[١]

فالذي لاريب فيه: أنّ «والّذي جاء بالصّدق» هو النبي الأكرم محمد صلّى الله عليه وآله، وهو ما ورد في التفسير والحديث أيضاً.

وأمّا الذي «صدّق به» فمن هو؟

في رواياتنا، عن أئمّتنا عليهم السّلام إنّ المراد من «صدق به» هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام.[٢]

والملفت هنا هو، أنَّ أمير المؤمنين عليه السّلام قد احتجّ بهذه الآية الكريمة كما ورد في بعض الروايات.[٣]

هذا، وقد ورد هذا المعنى في كتب أهل السنّة، أيضاً، فقد رووا بأسانيدهم أنّ المراد من «صدّق به» هو أمير المؤمنين عليه السّلام، وإنْ كان بعضهم يذهب إلىٰ أنّ المراد هو أبوبكر، ولكن التفسير الذي ورد في غيرواحدٍ من تفاسيرهم مثل «الدر المنثور» و «البحر المحيط» وفي كتب اخرى، هو أنّ المراد من «صدّق به» هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.[٤]

وبناءاً علىٰ هذا، فإنّ المنظور من قوله تعالى ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون﴾ هو أميرالمؤمنين عليه السلام.

---

(١) سورة الزمر(٣٩): الآية ٣٣.

(٢) تفسير القمي ٢ / ٢٤٩؛ تفسير مجمع البيان ٨ / ٤٠٠؛ تفسير نور الثقلين ٤ / ٤٨٦، الحديث ٥٠ و ٥١، تفسير الصافي ٤ / ٣٢٢، الحديث ٣٣؛ بحار الأنوار ٣٥ / ٤١٦، الحديث ١٥ و ١٦.

(٣) شواهد التنزيل ٢ / ١٨١، الحديث ٨١٥؛ مختصر البصائر: ١٦٣، الحديث ١٢؛ بحار الأنوار ٥٣ / ٦٩، الحديث ٦٦.

(٤) تفسير الدر المنثور ٥ / ٣٢٨؛ البحر المحيط ٧ / ٤١٢؛ تفسير القرطبي ١٥ / ٢٦٥؛ تفسير معاني القرآن، النحاس ٦ / ١٧٥ و ١٧٦؛ شواهد التنزيل ٢ / ١٧٨؛ الحديث ٨١٠.

تُرىٰ، ما المراد من وصف أمير المؤمنين عليه السّلام بالتقوى في هذه الآية؟ وأيَّة مرتبةٍ من التقوى هذه؟

كون الآية بصيغة الجمع يضرّ بالاستدلال؟

فإن قيل: إنَّ أمير المؤمنين عليه السّلام مفرد و ﴿**أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون**﴾ جمع، والمطابقة بين الضمير ومرجعه، وبين الصفة والموصوف، شرطٌ، فكيف يكون المراد من «والذي صدق به» أمير المؤمنين عليه السّلام؟

لقد حضر هذا المعنى في أذهان بعض المفسرين فقالوا: إنّ «الذي» في هذه الآية بمعنى «الذين»، كما إنَّ هذا الإشكال يرد أيضاً علىٰ أصحاب الرأي القائل بأن المراد من «وصدّق به» هو أبوبكر، لأنّه مفرد.

ولكن أعلام المفسرين من الفريقين يقولون إنّ المراد في الآية الكريمة هو شخص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام.

ولا يخفى، أنّ لهذه القضية نظائر في خصوص أمير المؤمنين عليه السّلام، و من ذلك آية الولاية، حيث يقول جلّ وعلا:

﴿**إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَالَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُون**﴾.(١)

ففي هذه الآية المباركة جاءت عبارات ﴿**وَالَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُون**﴾ بصيغة الجمع، ومع ذلك إتّفقت الشيعة والسنّة علىٰ أنّ المراد هنا، أمير المؤمنين علي عليه السّلام.

---

(١) سورة المائدة (٥): الآية ٥٥.

عبادة الامام تعادل عبادات الثقلين

نعم، إنّ عبادات أمير المؤمنين عليه السّلام تعادل عبادات كلّ «الذين يقيمون الصَّلاة ويؤتون الزكاة».

فما قام به أمير المؤمنين عليه السّلام من تصديق لرسول الله صلّى الله عليه وآله، والذي كان تصديقاً قوليّاً وفعليّاً في جميع المواقف إلىٰ درجة مبيته علىٰ فراش رسول الله صلّى الله عليه وآله «ليلة الهجرة»، وتعريض نفسه للخطر، كلّ ذلك تصديق عملي ليس فوقه تصديق، فمن الذي صدّق رسول الله صلّى الله عليه وآله بهذا النحو؟

وأكثر من ذلك، فليس عمل أمير المؤمنين عليه السّلام معادلاً لأعمال الصّحابة الآخرين فحسب، وإنما عمله أفضل من أعمال الإنس والجنّ جميعاً.

ألم يقل رسول الله صلّى الله عليه وآله في قضية قتل عمرو بن ود علىٰ يد أمير المؤمنين عليه السّلام:

«لضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»[١]

وفي التفاسير التي تهتم بالجانب الأدبي واللغوي للآيات القرآنية الشريفة،كالكشّاف للزمخشري بحثٌ حول السّبب في مجئ الأفعال في آية الولاية بصيغة الجمع مع إنَّ المراد هو شخص أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام؟

---

(١) ورد هذا الحديث الشريف في مصادر أهل السنة بعدّة صياغات. راجع: ينابيع المودة ١ / ٤١٢، الحديث ٥؛ السيرة الحلبية ٢ / ٦٤٣؛ المواقف: للقاضي الايجي ٣ / ٣٢؛ تاريخ بغداد ١٣ / ١٩؛ شواهد التنزيل ٢ / ١٤، الحديث ٦٣٦؛ كنز العمال ١١ / ٦٢٣، الحديث ٣٣٠٣٥.

ثم ذكر المفسرون هناك عدة وجوه، نقلناها عنهم في كتاب «تشييد المراجعات» في ذيل آية الولاية الشريفة.[١]

وبناءاً علىٰ ما مرَّ، فإن كلمة «المتقون» الواردة في الزيارة الجامعة، يمكن أن تكون إشارة إلىٰ هذه الآية المباركة.

وقد نقل الطبري في تفسيره قضية واعتمدها ابن تيمية في منهاجه لابأس بذكرها هنا، وهي:

نُقِلَ أنّ أحدهم طرح سؤالاً في مجلس أحد علماء السنّة عن المراد في قوله تعالىٰ:

﴿وَ الَّذي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِه﴾[٢]

فقال ذلك العالم: المراد هو أبوبكر.

وكان في المجلس رجلٌ شيعي، فقال: بل المراد هو أمير المؤمنين علي عليه السّلام. فقال العالم السنّي في ردّه: أنت تعتقد بعصمة علي بن أبي طالب، وهذه الآية لا تنسجم مع العصمة، فإنّه وإن ورد في ذيلها ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون﴾، ولكن قد جاء بعدها:

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذي عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذي كانُوا يَعْمَلُون﴾[٣]

فعلىٰ مبنى الشيعة القائلين بعصمة علي عليه السّلام، لا يمكن أن يكون المراد من الآية هو علي عليه السّلام، لأنّها تنافي العصمة.

---

(١) تشييد المراجعات ٣ / ٢٥٥.

(٢) الزمر (٣٩): الآية ٣٣.

(٣) سورة الزمر (٣٩): الآية ٣٥.

أقول: إنّ هذا العالم السنّي كان جاهلاً أو متجاهلاً أو متعصّباً، لأن الله تعالىٰ خاطب رسوله الأكرم محمداً صلّى الله عليه وآله في سورة الفتح فقال:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ﴾[1]

فما هو هذا الذنب الذي صدر قُدماً عن رسول الله الأكرم صلّى الله عليه وآله؟

وما هو ذلك الذنب الذي صدر مؤخراً عن رسول الله صلّى الله عليه وآله؟

فما أجابوا به عمّا في هذه الآية هنا، فهو نفس الجواب الذي يجاب به حول ما في الآية هناك.

إنّ هذه الآيات الكريمة لا تنافي العصمة أبداً، فلا هذه منافية لعصمة النبي الأكرم محمد صلّى الله عليه وآله، ولا تلك منافية لعصمة أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام.

وللوقوف علىٰ وجه عدم التنافي بين الآية والعصمة، لابد من الرجوع إلىٰ التفاسير المعتبرة.

أَلصَّادِقُونَ

إنّ أئمتنا عليهم السّلام هم «الصّادقون»، وهذه الكلمة إشارة إلىٰ آية اخرى في القرآن المجيد، وهي قوله تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقين﴾[2]

فأئمّتنا، هم الذين أمرنا الله تعالىٰ أن نكون بمعيّتهم، ونلازمهم، ونقتدي بهم،

---

(١) سورة الفتح(٤٨): الآية ٢.

(٢) سورة التوبة(٩): الآية ١١٩.

حصراً، وهذا ما نُقرّ به في الشهادة الثالثة في الزّيارة الجامعة، فنخاطبهم بأننا نشهد بأنكم أنتم «الصّادقون» الذين أمرنا الله تعالىٰ بأن نكون معهم.

على المؤمنين أنْ يكونوا مع الصّادقين

ومن جهة اخرى، فإنَّ الروايات المعتبرة الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، تؤكد بأن المراد من «الصّادقين» في الآية هو: الأئمّة عليهم السّلام.

يقول الإمام الباقر عليه السّلام:

«إيانا عنى»[1]

وعن أحمد بن محمد: سألت الإمام الرّضا عليه السّلام عن قوله تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقين﴾

فقال عليه السّلام:

«الصادقون: الأئمّة، الصدّيقون بطاعتهم»[2]

فهم الصّادقون الذين أمرنا بالكون معهم وهم الصدّيقون بطاعة الله.

قد يدّعي أحد بأنّه صدّيق أيضاً، أو قد يدّعي الصديقيّة لشخص آخر، ولكنّ هذا الإدّعاء بحاجة إلىٰ إقامة الدليل.

فأئمّتنا عليهم السّلام كانوا صدّيقين في طاعتهم، إيمانهم، تقواهم، محبّتهم لله سبحانه وتعالى، وفي دفاعهم عن نفس رسول الله صلّى الله عليه وآله و سلّم، ومبادئ الدين الحنيف.

---

(١) الكافي ١ / ٢٠٨.

(٢) بصائر الدرجات: ٥١، الحديث ١٤؛ بحار الأنوار ٢٤ / ٣١، الحديث ٥.

فالله سبحانه وتعالى يقول: كونوا مع الصّادقين، والكون مع الصّادقين وملازمتهم يحتاج إلىٰ مقدمات، فما كلُّ أحد يوفق لمثل هذه الملازمة والمعيّة والكون مع الصّادقين، بل لابد من تحقق تقوىٰ الله في مرتبة سابقة.

فغير المتّقين ليسوا مؤهلين لمثل هذه المعيّة، ولا هم لائقون لهذه الكينونة.

هذا، وقد نُقِلَتْ روايات كثيرة في مصادر أهل السنّة صريحة في أنّ المراد من «الصّادقين» في الآية الشريفة، هم الأئمّة عليهم السّلام.

فلقد روى مالك بن أنس، وأبو بكر ابن الجعابي، وابن مردويه الإصفهاني، وأبو إسحاق الثعلبي، وأبو نعيم الإصفهاني، والحاكم الحسكاني، والخطيب الخوارزمي، وابن عساكر الدمشقي، وسبط ابن الجوزي، وأبو الحجّاج المزّي، وجلال الدين السيوطي، وجمال الدين الزرندي، وابن حجر المكي، وقاضي القضاة الشوكاني، وشهاب الدين الآلوسي، وهم من كبار علماء أزمنتهم، رووا عن كبار الصحابة والتابعين، أنّ المراد من «الصدّيقين» في هذه الآية الشريفة هو: أئمة أهل البيت عليهم السّلام.

والعجيب، أنَّ هؤلاء، مع إقرارهم بهذه الحقائق ونقلها في كتبهم، يعرضون عن الأئمّة المعصومين عليهم السّلام و يوالون غيرهم، قال تعالى:

﴿وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُم﴾[1]

أمور قيِّمة مستفادة من آية الكون مع الصادقين

وبالتأمل في هذه الآية، نستخلص عدّة أمور مهمّة:

---

(١) سورة النمل(٢٧): الآية ١٤.

الأمر الأول: العصمة

إنّ هذه الآية الشريفة تدلّ علىٰ عصمة أهل البيت عليهم السّلام، وذلك، لأنّ هذه الآية متىٰ ما قُرئت علىٰ أهل اللغة العربية، أو قرئت ترجمتُها علىٰ أهل أي لغة بلغتهم، فُهِم منها أن المراد من «الكون» مع الصّادقين ليس المعيّة الجسمانية، وإنما المتابعة في العقيدة والفكر والعمل.

وكذلك المراد في المحاورات العرفيّة، فعندما يقول قائل: أنا مع فلان، فإنه من الواضح أنّ مراده، كونه معه في فكره وعقيدته ورأيه، وأنّه متابع له.

إذن، ﴿**كُونُوا مَعَ الصَّادِقِين**﴾ تعني المتابعة والاقتداء، وعليه، لابدّ أن يكون هؤلاء الصادقون معصومين، وإلاّ لزم التناقض.

وتوضيحه: لو لم يكن هؤلاء معصومين عن الخطأ والذنب، أمكن إرتكابهم للمخالفة، ومعه يكون الأمر بمتابعتهم والاقتداء بهم تغريراً وإيقاعاً في المخالفة،وهو غير جائز، بل غير متصور من الحكيم جلَّ وعلا، ضرورة أنّ الأمر بالمعية والكون معهم وتبعيتهم، مطلق، يدلّ علىٰ إنّ كلّ ما يقولونه أو يفعلونه، حقٌّ.

والنتيجة، هي أن نكون معهم ونتابعهم في أفعالهم، وأن لا نكون معهم ولا نتابعهم في أفعالهم، وهذا هو التناقض المحال.

إذن، لابدّ من أن يكون الصّادقون في الآية، معصومين.

الأمر الثاني: وجود الصّادقين دائماً

ثمّ إنّ هذه الآية الشريفة تدلّ علىٰ ضرورة وجود الصّادقين، بالمعنى المذكور، في كلّ زمان.

وذلك لأنّ هذه الآية الشريفة، جاءت لكلّ المسلمين، من كان ومن يكون، إلىٰ يوم القيامة، فهي تقول: أيُّها المسلمون كونوا مع الصّادقين من الآن إلىٰ يوم القيامة.

وهذا يعني ضرورة وجود الصّادقين في كلّ زمان لتتحقق المعيّة والمتابعة من قبل الناس، وإلاّ لم يكن للأمر بالكون معهم والاقتداء بهم ومتابعتهم أي معنى وفائدة.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: من هو الصّادق في كلّ زمن من الأزمنة؟

هو الإمام من الأئمّة الاثني عشر من عترة النبي صلّى الله عليه و آله، كما دلّ عليه حديث الثقلين المتواتر، و الّذي نصّ كبار علماء أهل السنّة على أنه وصيّة رسول الله، و أنه يدلّ على أنّ الأرض لا تخلو منهم إلى يوم القيامة.(١)

وبملاحظة الآية الشريفة، يمكننا أن نفهم ضرورة وجود المعصوم من أهل بيت النبي صلّى الله عليه و آله كلّ زمن من الأزمان.

الأمر الثالث: الغرض من وجود المعصوم

وقد تقرّر منّا، أن المعصوم في كلّ زمان قدوة، أسوة وهادٍ للبشر، وعلى الأُمّة أن تطيعه وتقتدي به، ولهذا وذاك، فإنّ الإمام عليه السّلام مكلّف بوظائف معينة في هذا العالم، كما إنّ الناس مكلّفون بوظائف معينّة في قبال إمامهم.

ومن جهة اخرى، فإن تحقق الهداية في هذا العالم ـ بالمعنى التام للهداية ـ إنّما يكون فيما لو كان للإمام قدرة ونفوذ كلمةٍ، وأن يسمع المجتمع كلامه ويطيعوه حقيقةً، ويتبعوه اتباعاً عمليّاً.

---

(١) انظر: حديث الثقلين، تواتره ـ فقهه. للمؤلّف.

ولذا، فإنّ سؤالاً يطرح نفسه وهو: كيف يمكن أن يتحقق هذا المعنى في هذا العصر مع غيبة إمام الزمان عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف؟

وبعبارة اخرى، كيف يطيع الناس إماماً غائباً ويتّبعونه؟

وفي مقام الإجابة عن هذا السؤال نقول: إنَّ الله سبحانه وتعالى قد نصب الإمام و عرّفه، وإنّ وظيفة الإمام قبول هذه المسئوليّة، وقد قبلها عليه السلام، فهل عمل الناس بوظيفتهم؟

إذن، إنَّ الناس هم المقصّرون في أداء وظيفتهم التي هي الإطاعة، مما أدّى إلىٰ حرمانهم من حضور إمامهم، فمتى ما غيّروا ما بأنفسهم إنتهى عصر الغيبة.

الأمر الرابع: كلامٌ مع الفخر الرازى

ثم إنّ الفخر الرازي، وفي تفسيره لهذه الآية الشريفة، يقرّ بدلالتها علىٰ العصمة، فهو لم يجد بدّاً من الاعتراف بهذه الحقيقة، لأن هذا الأمر مبرهنٌ عليه عقلاً كما أسلفنا، وإلاّ لزم التناقض، إذ لا يمكن أن يأمر الباري عزّوجلّ بالكون مع الصّادقين بنحو الإطلاق، إلاّ إذا كانوا معصومين.

ومن هنا، فإنّ غير المعصوم، ليس له حقّ الطاعة والولاية المطلقة، وهذه واقعية مسلّمة لا يمكن إنكارها بحال من الأحوال.

يقول الفخر الرازي في هذا المجال:

إنه تعالىٰ أمر المؤمنين بالكون مع الصّادقين، ومتى وجب الكون مع الصّادقين فلابدّ من وجود الصّادقين في كلّ وقت، وذلك يمنع من إطباق الكلّ علىٰ الباطل، ومتى إمتنع إطباق الكلّ علىٰ الباطل، وجب إذا أطبقوا علىٰ شئ أن

يكونوا محقّين. فهذا يدلّ علىٰ إنّ إجماع الأمّة حجّة.(١)

ونحن نقول، إنه متى ما فرض الطاعة المطلقة لأحد من الناس، وجب توفر العصمة فيه، وإلا لم تكن الإطاعة مطلقة.

فمثلاً يقول عزّوجلّ في كتابه:

﴿وَإِذْ أَخَذْنا ميثاقَ بَني إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾(٢)

ويقول في موضع آخر:

﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾(٣)

ويقول في آية اخرى:

﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أو كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَريماً * وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّياني صَغيرا﴾(٤)

فطاعة وإحترام الوالدين مهمة إلىٰ هذه الدرجة، ولكن مع ذلك يقول عزّوجلّ:

﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾(٥)

وهذا يعني إنَّ طاعة الوالدين ليست مطلقة، لأن حق الطاعة المطلقة مقرون دائماً بالعصمة، فما لم تكن العصمة موجودة لم يكن الإطلاق موجوداً.

---

(١) تفسير الرازي ١٦ / ٢٢٠.

(٢) سورة البقرة(٢): الآية ٨٣

(٣) سورة الانعام(٦):الآية ١٥١.

(٤) سورة الاسراء(١٧): الآية ٢٣ و٢٤.

(٥) سورة العنكبوت(٢٩): الآية ٨

ومن هنا، فإنّ الفخر الرازي يضطرّ إلىٰ قبول البرهان، إذ لا مفرَّ له من الإذعان له، وهو عاجز عن إنكاره.

ثمّ إنّ الفخر الرازي، وفي موضع آخر من تفسيره، يَقرُّ بالأمر الثاني أيضاً ويقول: نعم، لابدّ من وجود الصّادقين في كلّ زمن من الأزمنة، وإنَّ خطاب ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا﴾ عامٌ لكلّ المسلمين إلىٰ يوم القيامة، فلو لم يكن المصداق للعنوان موجوداً في زمن من الأزمنة، استحالت معيّة الصّادقين.

وبعد الإذعان بهذين الأمرين من قبل الفخر الرازي، يقول:

لكن هذا الصادق، ليس هو الذي تقول به الشيعة، وإن ذلك المعصوم، ليس هو الذي تقول به الشيعة، لماذا؟ لأنّ هذا الصادق المعصوم عندهم لا يستطيع الناس الوصول إليه ليكونوا معه، فلا يتحقق «كونوا مع الصّادقين»[١].

نقول:

من السبّب في عدم استطاعة عموم الناس من الوصول إلى الإمام الصّادق من أهل البيت الذي تقول به الشيعة في هذا الزمان؟

من الواضح إنّ كلّ الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام كانوا بين الناس، وكان بإمكان عموم الناس مراجعتهم والأخذ عنهم ومتابعتهم. فماذا فعل الناس؟ وكيف تعاملوا معهم؟

فإذا ما كان الإمام المهدي عليه السّلام غائباً اليوم، وليس بإمكان الناس الوصول إليه، والإلتقاء معه، فما هو عذر أُولئك المعاصرين للأئمّة الأحد عشر السّابقين علىٰ الإمام المهدي عليهم السّلام أجمعين؟

---

(١) تفسير الرازي ١٦/ ٢٢٠ و ٢٢١.

وهل أنّ مثل هذه الأعذار، كافية لإنكار الواقع وتغيير الحقائق؟

إنَّ الله سبحانه وتعالى قضى بأن يكون تحقق العدل وإقامته علىٰ يد الإمام الحجّة المنتظر المهدي عليه السّلام، والإمام مستعد لأداء هذه المهمّة، فلماذا لم يتحقق العدل ولم ينتشر القسط علىٰ وجه الأرض؟

أليس ذلك ناشئاً عن تقصير الناس؟

إنَّ هذه الأعذار لا تكفي لصرف مصداقيّة الأئمّة عليهم السّلام للآية المباركة، فإن مصداقها الوحيد هم الأئمّة الإثنا عشر من أهل البيت، لا غيرهم.

يقول الفخر الرازي: إنَّ المقصود من «الصّادقين» هو مجموع الأمّة، وإنّ الامّة من حيث المجموع، معصومة، فيكون معنى الآية «يا أيها الذين آمنوا كونوا مع الذين آمنوا»!!

أقول:

إنْ كان المراد من الامّة، ما سوى أهل البيت عليهم السّلام، فإنّ الناس بدون أهل البيت ليست بأمّة رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وإنْ كان مقصوده، كلّ أفراد الأُمّة بما فيهم أهل البيت عليهم السّلام، كان الحديث الذي يروونه عن النبي من أنّه لا تجتمع أُمّتي علىٰ خطأ باعتبار وجود المعصوم فيها، وهذا ما نقوله نحن أيضاً، فيعود الأمر مرة اخرى إلىٰ الأئمّة عليهم السّلام.

فالحق، هو أنّ هذا المورد من الموارد التي لم يجد الفخر الرازي منفذاً للتشكيك فيها، لكنه أراد التهرّب من الإقرار بالحقيقة.

هذا ما يرتبط بالامور التي نستخلصها من خلال التأمّل في الآية المباركة، والحقائق العظيمة التي تنطوي عليها كلمة «الصادقون» التي نخاطب بها الإمام عليه السّلام في عداد سائر أوصافهم العالية.

وعندما يأمرنا الإمام عليه السّلام بأن نقرأ الزيارة الجامعة في المشاهد الشريفة للأئمّة عليهم السّلام ونخاطبهم بهذه الحقائق، فما ذلك إلا لانطوائها علىٰ معانٍ جليلة. فعلينا أن نلتفت إلىٰ هذه المعاني حين قراءة الزيارة الشريفة، وأن نستشعرها ونُقِرَّ بها لهم.

أَلمُصْطَفَونَ

الأئمّة عليهم السّلام، اصطفوا، انتخبوا، اجتبوا، واختيروا من قبل الله تعالىٰ. وهذه الألفاظ، مترادفة إلىٰ درجة مّا، لعدم وجود الترادف التام في ألفاظ اللغة العربية، ولذا كان علينا بيان وجه الفرق والتمايز بين هذه المفاهيم، ولو قلنا بالترادف، فيعود المعنى إلى الإختيار، فالأئمة عليهم السّلام هم الذين اختارهم الله من بين ساير خلقه.

آيات الإصطفاء وما جاء بتفسيرها

وقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة في الإصطفاء، ونقلت أحاديث كثيرة، وقد ذكرنا فيما سبق بعض الأحاديث الصحيحة منها عن كتب أهل السنّة والصحيحين.[١]

ففي آية من آيات القرآن نقرأ:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُون﴾[٢]

---

(١) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب، الصفحة: ٢٢٤.

(٢) سورة النمل(٢٧): الآية ٥٩.

تُرى، من هم المقصودون بقوله تعالىٰ «عباده الّذين اصطفى»؟

ونظير هذا، ما ورد في قوله تعالىٰ:

﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُون﴾[١]

فمن هم العباد المكرمون؟

ويقول عزّ من قائل في آية اخرى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾[٢]

وعن سدير: قال الإمام الباقر عليه السّلام في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَميعٌ عَليم﴾[٣]

نحن منهم ونحن بقية تلك العترة.[٤]

ولكنْ ظاهر بعض الأخبار وجود «آل‌محمد» بصراحةٍ في لفظ الآية في القرآن الكريم.

فعن هشام بن سالم، قال:

سألت أبا عبد الله عليه السّلام عن قول الله ﴿إِنَ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ‌إِبْراهيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمين﴾.

---

(١) سورة الأنبياء(٢١): الآية ٢٦.

(٢) سورة آل عمران(٣): الآية ٣٣ و ٣٤.

(٣) سورة آل عمران(٣): الآية ٣٣ و ٣٤.

(٤) تفسير العياشي ١ /١٦٨، الحديث ٢٩؛ بحار الأنوار ٢٣ / ٢٢٥، الحديث ٤٤.

فقال عليه السّلام: هو آل إبراهيم وآل محمد علىٰ العالمين، فوضعوا اسماً مكان اسم.[١]

وفي رواية اخرى، يقول أيوب:

«سمعني أبو عبد الله عليه السّلام وأنا أقرأ «إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران علىٰ العالمين».

فقال لي: «وآل محمد» كانت فمحوها وتركوا آل إبراهيم وآل عمران»[٢]

كما روى الحافظ أبو إسحاق الثعلبي ـ وهو من كبار مفسري أهلِ السنّة في القرن الرابع ـ في تفسيره المعروف، بسنده عن الأعمش عن أبي وائل، قال: قرأت في مصحف عبد الله بن مسعود:

﴿إِنَ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهيمَ﴾ وَ آلَ مُحَمَّد ﴿عَلَى الْعالَمين﴾[٣]

وروى الشيخ الطوسي رحمه الله في الأمالي بسند عمّن قال أنّه سمع الإمام الصّادق عليه السّلام يقرأ:

﴿إِنَ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهيمَ وَ آلَ عِمْرانَ﴾ و آل محمد ﴿عَلَى الْعالَمين﴾

قال: هكذا نزلت.[٤]

ويقول الشيخ الطبرسي رحمة الله عليه في «مجمع البيان»:

---

(١) تفسير العياشي ١ / ١٦٨، الحديث ٣٠؛ بحار الأنوار ٢٣ / ٢٢٥، الحديث ٤٥.

(٢) تفسير العيّاشي ١ / ١٦٩، الحديث ٣٤؛ بحار الأنوار ٢٣ / ٢٢٧، الحديث ٤٨.

(٣) غاية المرام ٣ / ٢٧٠؛ بحار الأنوار ٢٣ / ٢٢٨، الحديث ٥١؛ العمدة: ٥٥، الحديث ٥٥؛ شواهد التنزيل ١٥٢/١، الحديث ١٦٥ نقلاً عن تفسير الثعلبي ٣ / ٥٣.

(٤) الامالي، الشيخ الطوسي: ٣٣٠، الحديث ٥٩٢؛ بحار الأنوار ٢٣ / ٢٢٢، الحديث ٢٦.

وفي قراءة أهل البيت عليهم السّلام: «وآل محمد علىٰ العالمين»[١]

و إنَّ أحد توجيهات مثل هذه الروايات، هو الحمل على اختلاف القراءات، كما يمكن حملها على شأن النزول، كغيرها ممّا ورد فيه وجود «آل محمد» أو «أهل البيت» أو اسم أميرالمؤمنين، وهي ـ كما عرفت ـ مرويّة من طرق العامّة أيضاً.

وإنما يجب حملها على بعض المحامل قول علمائنا قديماً وحديثاً بعدم وقوع التحريف في ألفاظ القرآن زيادةً ونقيصةً، كما بحثنا عن ذلك في موضعه.[٢] فلابدّ من حمل تلك الأخبار ونحوها بما لاينافي صيانة القرآن عن الزيادة والنقصان.

والملفت للنظر هنا هو أنّ الأحاديث الشريفة الواردة عن النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله، تؤكد علىٰ ضرورة ذكر «آل محمد» في الصَّلاة علىٰ النبي، وتنهى عن الصَّلاة عليه بدون قرن آله معه، ومن جملة الأحاديث الثابتة عند الفريقين: قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

«لا تصلّوا عليّ الصَّلاة البتراء».[٣]

هذا، وذهب بعض المخالفين لأهل البيت عليهم السّلام إلىٰ أنّ المراد من «آل محمد» هو امّة محمد، ولكنّهم مع ذلك يمتنعون عن ذكر «آل محمد» عند صلواتهم على النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله.

---

(١) مجمع البيان ٢ / ٢٧٨.

(٢) كتاب: التحقيق في نفي التحريف عن القرآن الشريف للمؤلّف.

(٣) وسائل الشيعة ٧ / ٢٠٧، الحديث ٩١٢٧؛ الصواعق المحرقة ٢ / ٤٣٠، الفصل الحادي عشر، الآية الثانية؛ ينابيع المودة ١ / ٣٧، الحديث ١٤.

«قال أبو عمرو الزبيري، سألت أبا عبد الله عليه السّلام: ما الحجّة في كتاب الله إنّ آل محمد هم أهل بيته؟

قال:» قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرٰاهيمَ وَآلَ عِمْرٰانَ «وآل محمد» ـ هكذا نزلت ـ عَلَى الْعٰالَمينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾.

ولا يكون الذريّة من القوم إلا نسلهم من أصلابهم.

وقال: ﴿اعْمَلُوا آلَ دٰاوُودَ شُكْرًا وَقَليلٌ مِنْ عِبٰادِيَ الشَّكُورُ﴾[1] وآل عمران وآل محمد».[2]

ومن الآيات في هذا الباب: قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتٰابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنٰا مِنْ عِبٰادِنٰا فَمِنْهُمْ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سٰابِقٌ بِالْخَيْرٰاتِ﴾[3]

وقد وردت في هذه الآية روايات كثيرة، فقد نقل الصفّار في بصائر الدرجات عن الإمام الباقر إنّه عليه السّلام قال:

السابق بالخيرات: الإمام، والمقتصد: العارف للإمام، والظالم لنفسه: الذي لا يعرف الإمام.[4]

وورد في غير واحدٍ من الأخبار التأكيد على أنّ المراد من المصطفين في الآية هم الأئمة الإثناعشر من أهل البيت، وأنها لا علاقة لها بالزيديّة، فعن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام أنه قال:

---

(١) سورة سبأ (٣٤) الآية: ١٣.

(٢) تفسير العياشي ١ / ١٦٩ ـ ١٧٠، بحارالأنوار ٢٣ / ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٣) سورة فاطر (٣٥): الآية ٣٢.

(٤) الكافي ١ / ٢١٤، الحديث ١؛ بحار الأنوار ٢٣ / ٢٢٣، الحديث ٣٥.

ليس حيث تذهب، ليس يدخل في هذا من أشار بسيفه ودعا الناس إلىٰ خلاف.

فقلت: فأي شئ ظالم لنفسه؟

قال: الجالس في بيته لا يعرف حقّ الإمام، والمقتصد: العارف بحقّ الإمام، والسابق بالخيرات: الإمام.(١)

وفي رواية عن الإمام الكاظم عليه السّلام، قال:

«فنحن الذين اصطفانا الله عزّوجلّ وأورثنا هذا الذي فيه تبيانٌ لكلّ شئ».(٢)

وفي رواية اخرى، سُئل الإمام الرّضا عليه السّلام عن هذه الآية، فقال:

وُلدُ فاطمة (عليها السلام)، والسابق بالخيرات: الإمام، والمقتصد: العارف بالإمام، والظالم لنفسه: الذي لم يعرف الإمام.(٣)

وفي الإحتجاج للطبرسي، عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السّلام عن هذه الآية:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾

قال عليه السّلام: أي شئ تقول؟

قلت: إنّي أقول أنها خاصّة لولد فاطمة عليها السلام.

فقال عليه السّلام: أمّا من سلّ سيفَه ودَعَا الناس إلىٰ نفسه من ولد فاطمة عليها السلام، وغيرهم، فليس بداخل في الآية.

قلت: من يدخل فيها؟

---

(١) الكافي ١ / ٢١٤، الحديث ٢.

(٢) الكافي ١ / ٢٢٦، الحديث ٧؛ بحار الأنوار ١٧ / ١٣٤، الحديث ١٠.

(٣) الكافي ١ / ٢١٥، الحديث ٣؛ تفسير نور الثقلين ٤ / ٣٦١، الحديث ٧٦.

قال عليه السّلام: الظالم لنفسه الذي لا يدعو الناس إلىٰ ضلال ولا هدى، والمقتصد منّا أهل البيت هو العارف حقّ الإمام، والسابق بالخيرات هو الإمام.[١]

وفي مناقب ابن شهر آشوب، قال: ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام، إنّه قال:

«نزلت في حقنا وحق ذريّاتنا خاصّة»[٢]

وفي خبر آخر إنه عليه السّلام قال:

«هي لنا خاصّة وإيّانا عنى»[٣]

وفي رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السّلام، قال:

«هم آل محمد عليهم السّلام»[٤]

فإلى هذه الآية الكريمة أيضاً تشير كلمة «المصطفون» في الزيارة الجامعة.

«الاصطفاء» لغةً

وللراغب الإصفهاني بيان في معنى مصطلح «اصطفى»، يقول:

«واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالىٰ إيّاه صافياً عن الشوب الموجود في غيره، وقد يكون بإختياره وحكمه وأن لم يتعرّه ذلك من الأول»[٥]

فإذا تمّ هذا الكلام، عرفنا أنّ وجودات الأئمّة عليهم السّلام وأصل خلقتهم تختلف عن خلقة سائر الناس.

---

(١) الاحتجاج ٢ / ١٣٨ و ١٣٩؛ وقد نقل هذا الحديث في البحار ٢٣ / ٢١٥، الحديث ٥. بتفاوت بسيط.

(٢) المناقب ٣ / ٢٧٤؛ بحار الأنوار ٢٣ / ٢٢٢، الحديث ٢٨ والصفحة ٢٢٣ الحديث ٢٩، ٣٠.

(٣) المناقب ٣ / ٢٧٤؛ بحار الأنوار ٢٣ / ٢٢٢، الحديث ٢٨ والصفحة ٢٢٣ الحديث ٢٩، ٣٠.

(٤) المناقب لابن شهر اشوب ٣ / ٢٧٤.

(٥) المفردات في غريب القرآن: ٢٨٣.

من دلالات الإصطفاء

ولقد نقل الفخر الرازي في تفسيره، في ذيل الآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١)

عن الحليمي ـ وهو أحد كبار المحدّثين وقدماء المفسرين عند أهل السنّة ـ كلاماً لطيفاً ومفصلاً، أقام فيه البرهان على أن وجود الأنبياء وأصل خلقتهم، روحاً وجسماً، يختلف عن خلقة سائر الناس.(٢)

وكلام الراغب الإصفهاني، إشارة إلى نفس هذه المطالب. وإذا ثبتت هذه النظريّة بالدليل، لكانت ذات قيمة وأهميّة علميّة.

إنه قد لا يكون تقبّل نظريّة اختلافهم في أصل الخلقة أمراً سهلاً، خاصّة وإنّ مثل هذا الرأي قد يثير شبهة الجبر، ولكن إذا ما ثبت ذلك بالدليل والبرهان، فإن شبهة الجبر يمكن دفعها.

وبناءاً على ذلك، فإنّ الذين اصطفاهم الله تعالى، منزّهون عن الشوائب من أول خلقتهم، فهم طاهرون مطهرون عن ذلك ذاتاً.

والشوائب هي، الشك، الشبهة، الجهل، وكلّ أقسام الأدناس والأرجاس، قال تعالى:

﴿إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(٣)

أي أذهب عنهم الرجس بأي معنى من المعاني كان، وهذا لا يعني الرفع بعد الوجود، بل هو بمعنى الدفع.

---

(١) سورة آل عمران(٣): الآية ٣٣ و٣٤.

(٢) تفسير الرازي ٨ / ٢٢ و ٢٣.

(٣) سورة الاحزاب(٣٣): الآية ٣٣.

فعرفنا إذن، أنّ هذا الكلام الوارد في الزيارة يعود إلىٰ القرآن الكريم، وأدلّتنا وبراهيننا في خصوص الأئمّة عليهم السّلام تامّة.

ولا شك في أنّ الأنبياء، هم أيضاً كذلك، فهم واجدون لمقام العصمة والطهارة.

ويستمرّ الفخر الرازي في نقل كلام الحليمي، بأنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال:

«علّمني رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ألف باب من العلم واستنبطتُ من كلِّ باب ألفَ باب».[1]

أجل، إنّ الأئمّة الأطهار موجودات خاصّة واستثنائيّة في عالم الخلقة.

ومن جهة أخرى، فإنّ دلالة كلمة «الإصطفاء» علىٰ الأفضليّة واضحة. فقد نقل الطبري في تفسيره: «عن الحسن في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِين﴾

قال: فضّلهم الله علىٰ العالمين بالنبوّة علىٰ الناس كلِّهم، كانوا هم الأنبياء، الأتقياء، المطيعون لربّهم»[2]

ومن جهة ثالثة، فإنّ هذه الآية المباركة ﴿ثُمَ أَوْرَثْنَا الْكِتاب﴾ تدلّ علىٰ أعلميّة أهل البيت عليهم السّلام. لأنه كان المقصود من «الكتاب» هو القرآن المجيد، فإنّ القرآن هو أشرف الكتب السماويّة، فما كان موجوداً في الكتب السّماويّة السّابقة، فهو موجود فيه، ومن ورثه كان أفضل وأعلم من أصحاب

---

(١) تفسير الرازي ٨/ ٢٣.

(٢) تفسير الطبري ٣/ ٣١٧ و ٣١٨.

الكتب السماويّة السابقة. وإن كان المقصود من «الكتاب» أمراً آخر يتضمن القرآن الكريم، كانت الدلالة على أفضليّة وارثه وأعلميّته، أوضح.

والحاصل، إن الأئمّة عليهم السّلام، أفضل وأعلم من كلّ الأنبياء سوى رسول الله محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وعلى الجملة، فإنّ الآية المباركة ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ﴾ تدلّ على أعلميّة أهل البيت عليهم السّلام، مضافاً إلى عصمتهم وأفضليتهم على سائر الناس.

كلّ ذلك ببركة الطّاعة لله

هذا، وقد أشرنا سابقاً إلى أن «الإصطفاء» إنما كان ببركة العبوديّة، وهذا ما جاء في آيات القرآن الكريم، حيث يقول عزّوجلّ:

﴿وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذينَ اصْطَفى﴾(١)

إذ نجد التأكيد على العبوديّة، وذلك، لأنّ العبوديّة لله عزّوجلّ مقدّمة لحصول الكمالات والوصول إلى المقامات العالية، بمعنى أن البداية لابد أن تكون من العبوديّة. فالأئمّة الأطهار عليهم السّلام، كانوا عباداً لله قبل الوصول إلى هذه المقامات، وكانوا عباداً لله بعد الوصول إلى هذه المقامات أيضاً. فكانوا دائمي الاشتغال بالعبادة. لاحظوا هذه الآية:

﴿وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾(٢)

---

(١) سورة النمل(٢٧): الآية ٥٩.

(٢) سورة الأنبياء(٢١): الآية ١٩.

وكذلك لاحظوا ما ورد في ذيل هذه الآية، حيث يقول الإمام عليه السّلام لمفضل بن عمر:

«ويحك يا مفضل ! ألستم تعلمون أنّ «من في السماوات» هم الملائكة و«من في الأرض» هم الجان والبشر وكلّ ذي حركة، فمن الذين فيهم ومن عنده الذين قد خرجوا من جملة الملائكة؟

قال المفضل: من تقول يا مولاي !

قال: يا مفضل ! نحن الذين كنّا عنده، ولا كون قبلنا ولا حدوث سماء ولا أرض ولا ملك ولا نبي ولا رسول...»[١]

فلو أننا قلنا بأن الأئمّة عليهم السّلام عباد الله، ولكن عبادٌ أوصلهم الله تعالىٰ ببركة عبوديتهم الحقّة، إلىٰ مقاماتٍ ومنازل عالية لم يصل إليها أحد، فهل يعدّ ذلك غلوّاً؟!

أَلْمُطِيعُونَ لِلّهِ

إنّ الأئمّة عليهم السّلام هم المطيعون لله سبحانه وتعالى بتمام معنى الكلمة وبجميع مراتب الطّاعة. وفي توضيح هذه العبارة نقول:

إن قيل عن رجلٍ بأنه عبد مطيع لله، فإن هذا الكلام يدلّ على إيمانه بالله عزّوجلّ، لأنّ الطاعة فرع الإيمان، كما أنّ الإيمان فرع المعرفة بالله.

إذن، فهو موصوف بالمعرفة في هذه الجملة من الزيارة الايمان والطاعة.

---

(١) الهداية الكبرى: ٤٣٣.

وعليه، فإنّ: «المطيعون لله» في هذه الجملة من الزيارة يعني: «العارفون بالله، المؤمنون بالله، المطيعون لله» عزّوجلّ.

ولكن السؤال هو: أيّة معرفة هذه؟ وأيّة عبوديّة هذه؟

الأئمّة عليهم السّلام يقولون:

«ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك، فهل شأنهم في المعرفة والطّاعة لله».(١)

ومن هنا يتّضح لنا معنى قول أمير المؤمنين عليه السّلام:

«لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»(٢)

فإذا كان علي عليه السّلام يقول ذلك، فهل يعقل أن تكون عنده ذرّة من شك أو جهل أو لحظة غفلة عن الله؟

إنّ الأئمّة عليهم السّلام هم المصداق الأتمّ لـ«العلماء» الذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾(٣)

بل إنّ الأئمّة عليهم السّلام هم من قال الله تعالىٰ في حقّهم:

﴿وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون﴾(٤)

---

(١) روض الجنان: ٢٧؛ مشارق الشموس ١ / ٨٨؛ شرح اصول الكافي ١ / ٢٥٧؛ عوالي اللئالي ١ / ٢٠؛ بحار الأنوار ٦٧ / ١٨٦ و ١٩٧؛ مرآة العقول ٢ / ١٠١.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ١ / ٣١٧. تفسير أبي‌السعود ١ / ٥٦؛ كشف الغمّة ١ / ١٦٩؛ الصراط المستقيم ١ / ٢٣٠؛ بحار الأنوار ٤٠ / ١٥٣ و ٤٦ / ١٣٥؛ ينابيع المودة ١ / ٢٠٣، الحديث ٨ مناقب الخوارزمي: ٣٧٥.

(٣) سورة فاطر(٣٥): الآية ٢٨.

(٤) سورة الأنبياء(٢١): الآية ٢٨.

طاعة علي طاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله

والآن، هلمّوا معاً، لنتأمّل في قدر هذه الطاعة، فالّذين كانت طاعتهم لله تعالىٰ بدرجة تجعلهم ـ مع حصولهم علىٰ مقام القرب عند الله ـ لا يستكبرون عن عبادته وتجعلهم ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون﴾، هم الذين تكون إطاعتهم، إطاعة لله تعالىٰ، ولذا ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلّى الله عليه وآله:

يا علي، من أطاعك فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاك فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله.[١]

ولماذا تكون إطاعتهم بهذه المثابة؟

لأنّ جميع حركاتهم وسكناتهم، أفعالهم وتروكهم، هي طاعة لله عزّوجلّ وعبادة له. فمن أراد طاعة الله عزّوجلّ، عليه أن يتّخذهم أئمةً ويطيعهم إطاعةً مطلقةً فإن ذلك هو الطريق إلىٰ طاعة الله.

المطيعون هم الفائزون

وبالإلتفات إلىٰ ما سبق، من المناسب هنا ملاحظة الآية التالية:

قال تعالىٰ:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُون﴾[٢]

وفي آية أخرى يصف الفوز بـ«العِظَم» حيث يقول:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظيماً﴾[٣]

---

(١) الأمالي، الشيخ الطوسي: ٥٥٢؛ المناقب، ابن شهر آشوب ٣/ ٦؛ بحار الأنوار ٣٨/ ٢٩؛ بشارة المصطفى: ٤٢٠، الحديث ٢٨. وراجع: المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ١٢٨.

(٢) سورة النور(٢٤): الآية ٥٢.

(٣) سورة الاحزاب(٣٣): الآية ٧١.

إنَّ طاعة الإمام، هي طاعة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، فإذا ما كانت الطاعة مقرونة بالخشية، كان الفوز نصيب المطيع.

فما هو المقصود من «الفوز»؟

للجواب عن هذا السؤال، نرجع إلىٰ القرآن الكريم لنرى كيف يفسّر «الفوز».

ففي آيةٍ في ذكر نعيم الجنة يقول تعالى:

﴿وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم﴾[١]

فأيّ مقام هذا؟

تفيد الآية أن النعم الإلهيّة الاخرويّة لا تقاس بـ«رضوان من الله».

في رواية سمعتها قديماً من المرحوم والدي، أنّ أصحاب الإمام الحسين عليه السّلام يجتمعون حوله في الآخرة ويجلسون بين يديه ويستمعون إليه، ولا يزالون ينظرون إلىٰ وجهه المبارك، لايكترثون للحور العين والولدان المخلَّدين.

ثمّ وجدت الرّواية في كتاب كامل الزّيارات و هذا نصّها:

«... والخلق يعرضون وهم حدّاث الحسين عليه السّلام تحت العرش وفي ظلّ العرش لا يخافون سوء الحساب، يقال لهم: أُدخلوا الجنّة، فيأبون و يختارون مجلسه و حديثه، و إنَّ الحور لترسل إليه وإليهم إنا قد اشتقناكم مع الولدان المخلّدين، فما يرفعون رؤوسهم لما يرون في مجلسهم من السرور و الكرامة»[٢]

---

(١) سورة التوبة(٩): الآية ٧٢.

(٢) كامل الزيارات: ١٦٨ و ١٦٩، الحديث ٢١٩؛ بحار الأنوار ٤٥/ ٢٠٧ و ٢٠٨.

ومن آثار الطاعة

ومن جهة أخرى، فإنّ مَنْ عبد الله عزّوجلّ وأطاعه مثل هذه الطاعة، فإنّ الله سبحانه وتعالى يسخّر له كلَّ الكائنات، فتكون في خدمته وطاعته. وهذاالمعنى اللّطيف تتضمنه بعض فقرات الزيارة الجامعة الشريفة، كما سنقرألاحقاً.

وفي رواية عن الإمام الصّادق عليه السّلام، قال:

«من خاف الله، أخاف الله منه كلَّ شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كلِّ شيء»[١]

وعلى الجملة، فقد كانت طاعة أهل البيت عليهم السّلام فرضاً علينا، وقد اُمرنا بها في القرآن الكريم والروايات.

ولذا فقد عنون الكليني رحمه الله في الكافي باباً تحت عنوان:

«باب فرض طاعة الأئمّة عليهم السلام»[٢]

وبناءاً على ما مرّ، فإنّ الإطاعة المطلقة ملازمة للعصمة، كما إنّ التسليم المطلق مساوٍ للولاية التكوينيّة والتشريعيّة.

وقد جاء في القرآن الكريم آيات في أفضليّة الأئمّة عليهم السّلام، منها قوله تعالى:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظيما﴾[٣]

---

(١) الكافي ٢ / ٦٨، الحديث ٣، بحار الأنوار ٦٧ / ٣٨١، الحديث ٣٣.

(٢) الكافي ١ / ١٨٥، وقد نقل ١٧ حديثاً في هذا الباب.

(٣) سورة النساء(٤): الآية ٥٤.

ورُوي عن الإمام الباقر عليه السّلام أنه قال في خصوص هذه الآية:

«نحن المحسودون»[١]

ولا شك أن المراد من «ملكاً عظيماً» هو الولاية التكوينيّة، والتي سنشرحها -إن شاء الله ـ في محلّه بنحو من التفصيل.

أَلقَوّٰامُونَ بِأَمرِهِ

والمراد من كلمة «القوّام» الكثير القيام، لأنها صيغة مبالغة.

وقد يكون المراد، النسبة، مثل «العطّار» أي الذي شغله «العِطر» فيكون في كلّ أحواله وحالاته مشتغلاً بالعطر وتهيئته وإعداده وحمله ونقله وبيعه و شرائه.

وقالوا في علم النحو في قوله تعالىٰ:

﴿وَ ما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبيد﴾[٢]

إنّ مصطلح «ظلّام» ليس بمعنى أفعل التفضيل،[٣] لأنّه إن كان كذلك، فإنّ «ما» النافية ستلغي التفضيل ويبقى الباقي منسوباً لله، وهذا يعني نسبة الظلم إلىٰ الباري

---

(١) بصائر الدرجات: ٥٥، الحديث ٣؛ الكافي ١ /٢٠٦، الحديث ٢: وفيه عن أبي الحسن عليه السّلام؛ بحار الأنوار ٢٣ /٢٨٦، الحديث ٥؛ شواهد التنزيل ١ /١٨٣، الحديث ١٩٥. عن الإمام الصّادق عليه السّلام.

(٢) سورة فصلت (٤١): الآية ٤٦.

(٣) شرح ألفية ابن مالك: ٢٧٢، وقد جاء في هذا الكتاب:

(ومع فاعل وفعّال) ـ بفتحة فتشديد ـ (فَعِل) بفتحة وكسرة (في نسب أغنى عن الياء) السابقة (فقبل) إذ ورد كقولهم: لابن والتمار وطعم أي صاحب لبن وتمر وطعم، وليس في هذين الوزنين معنى المبالغة الموضوعين أي: خرج عليه قوله تعالى:((و ما ربّك بظلّام للعبيد)) أي بذي ظلم.

عزّوجلّ وهو بحدّ الكفر. وعليه، فإنّ قوله تعالىٰ ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبيد﴾ يعني سلب النسبة بين الله تعالىٰ والظلم.

فهو كما لو قيل: فلان ليس عطاراً، بل هو نجّارٌ مثلاً.

فتفسير «القوّام بأمره» علىٰ النسبة أولىٰ من تفسيرها علىٰ المبالغة والتفضيل بمعنى كثير القيام بأمر الله تعالىٰ.

وفي الحقيقة، فإن من شئون أهل البيت المعصومين عليهم السّلام القيام بأمر الله تعالىٰ، مثل العطار الذي من شأنه القيام بأمر العطور في كلِّ أوقاته، إعداداً وتهيئة وعرضاً.

وهذا ما يبدو لي من خلال دراسة أحوال الأئمّة عليهم السّلام ومنازلهم، ولست أدري إن كان هناك من يقول بهذا الرأي، لأنّي لا أراجع سائر الشروح علىٰ هذه الزيارة.

دلالة هذه الجملة على الولاية

ثمّ يقع الكلام في المراد من «القوّام» ومن «أمر الله».

قال الفيّومي: قام بالأمر يقوم به قياماً فهو قوّام وقائم واستقام الأمر وهذا قوامه، بالفتح والكسر، وتقلب الواو ياءً جوازاً مع الكسرة: أي عماده الذي يقوم به وينتظم، ومنهم من يقتصر على الكسر، ومنه قوله تعالى ﴿الّتي جَعَلَ اللـهُ لَكُـم قِـياماً﴾. والقوام بالكسر: ما يقيم الإنسان من القوت. والقوام بالفتح: العدل والإعتدال. قال تعالى ﴿وَكٰانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوٰامًا﴾ أي عَدلاً. وهو حسن القوام، أي الإعتدال.[1]

(١) المصباح المنير: ٥٢٠.

فالقوّامون بأمر الله، أي: الذين هم العماد لأمر الله، بهم يقوم ويستمرُّ على الوجه الصحيح والوضع المعتدل، فالأئمة عليهم السّلام هم السّبب لبقاء أمر الله واستمراره ودوامه.

وأمّا «أمر الله» فإنَّ الأمر اسم جنسٍ مضاف، ومتى أُضيف اسم الجنس أفاد العموم، كما تقرّر في علوم العربيّة وأصول الفقه، فالأئمّة عليهم الصّلاة هم العماد والسناد لكلّ أمر الله، وإذا ما شرحنا «أمر الله» تعالىٰ بهذا النّحو، سيتضح لنا جليّاً تفسير الآية الشريفة التي جاء فيها:

﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾[1]

بعد ما تقرّر نزول الملائكة و الروح على الإمام الحقّ في كلّ زمانٍ، في ليلة القدر بكلّ التقديرات الإلهيّة.

وبناءاً علىٰ هذا المعنى، فإنّ تمام إرادة الله تعالىٰ، وكلّما يرتبط بحضرة الحق جلّ وعلا، بالنسبة إلى الخلائق، داخل في «الأمر»، وإنّ قوام وجوده ومقوّمه هم الأئمّة عليهم السّلام.

ولا يخفى، إنّ ما نعلمه عن «أمر الله» عزّوجلّ، هو بنحو الإجمال، وأنّه يشمل كلَّ شيءٍ، ونظير هذا الإجمال ما ذكرناه في شرح فقرة «المستقرّين في أمر الله». وأمّا بيان هذا المطلب بالتفصيل فعلمه عند الأئمّة عليهم السّلام أنفسهم.

وفي ليلة القدر، تتعالىٰ مراتب علوم الأئمّة عليهم السّلام، فيطّلعون علىٰ إرادة الله وتقديراته لخلقه، وفي تلك الليلة تتعين وظائف وتكاليف كلّ إمام لزمانه، وتُبَلَّغ اليه.

إذن، فكلُّ عمل يقوم به الأئمّة ويقومون عليه، هو من عند الله عزوجلّ، وكلّ

---

(١) سورة القدر(٩٧): الآية ٤.

ما يفعلونه هو عين الصّلاح وحقّ المصلحة، فسكوتهم وقتالهم واستشهادهم وسجنهم وغيبتهم، وكلّ حالاتهم هي قيام بأمر الله تعالىٰ.

وفي الحقيقة، إنّ إرادة الله عزّوجلّ، تتجلّى وتتشخّص في الخارج بحركات وسكنات الإمام عليه السّلام.

ومن هنا نقرأ في فقرة أخرى من الزيارة: «العاملون بإرادته».

وكذلك نقرأ في زيارة آل يس:

«ودليل إرادته».

فالأئمّة عليهم السّلام هم الأدلّاء إلىٰ إرادة الله وأمره، كما يكون الرجل المرشد إلىٰ الطريق دليلاً.

فإذا أردنا أن نعرف إرادة الله سبحانه وتعالى، لابدّ أن نرى ما يقوم به الأئمّة عليهم السّلام، وما يأمرون به، وما يقولونه، فأقوالهم وسيرتهم عليهم السّلام هي دليلنا إلىٰ إرادة الله سبحانه وتعالى في كلّ الموارد، فهل هذا من الغلو؟!

جاء في الحديث القدسي إنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

«عبدي أطعني تكون مثلي، أنا أقول للشئ كن فيكون، وأنت تقول للشئ كن فيكون»[١]

وهذا الحديث الشريف أيضاً يبتدئ بكلمة «عبدي»، ونحن لانزال نؤكد علىٰ إن البداية لابدّ أن تكون من العبوديّة.

أجل، إنّ الإنسان يصل بإذن الله تعالىٰ ـ عن طريق العبوديّة والطاعة لله تعالىٰ ـ إلىٰ مقام تُطيعه فيه كلُّ الكائنات.

---

(١) شرح رسالة الحقوق للامام زين العابدين عليه السّلام: ٤١٠؛ الفوائد الرجاليّة للسيد بحر العلوم ١ / ٣٩، بتفاوت طفيف.

وفي حديث قدسي آخر يقول عزّوجلّ:

«ما زال العبد يتقرّب إلي بالنوافل حتّىٰ أكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها...»[١]

والجدير بالذكر أن الحافظ النووي ـ من كبار علماء السنّة الشافعيّة ـ قد نقل هذا الحديث في شرحه علىٰ صحيح مسلم،[٢] وفسرّه تفسيراً جميلاً.

إذن، لابد أن يكون الشروع من العبوديّة للوصول إلىٰ المحبّة، وإنّ المحبّة توصل للقرب، ولكنْ أيّ قرب؟!!

في هذا الحديث لم يقل عزّوجلّ: «ما زال الرجل» ولم يقل «مازال المؤمن»، وإنما قال: «مازال العبد».

وهذا لمطلق العبد، فإذا ما قلنا ذلك في حق الأئمّة عليهم السّلام، فهل يعدّ ذلك من الغلوّ؟! أم إنّ المستشكل في قلبه مرض؟

وبناءاً علىٰ ما مرّ بيانه، فإنّ هذه الفقرة من الزيارة والفقرة السابقة عليها، لها دلالة واضحة علىٰ الولاية المطلقة، كما إنَّ الولاية المطلقة لها دلالة علىٰ العصمة، إذ مَن كان في جميع حالاته وشؤونه دليلاً علىٰ إرادة الله سبحانه وتعالى، يستحيل أن لا يكون معصوماً، لأن غير المعصوم لا يمكنه بلوغ هذه المقامات والدرجات.

ومن جهة أخرى، فإنّ هذه العبارة تدلّ علىٰ علم الإمام عليه السّلام أيضاً، فما لم يكن الإمام عليه السّلام عالماً بإرادة الله سبحانه وتعالى، لم يكن دليلاً علىٰ إرادته عزّوجلّ.

---

(١) المحاسن للبرقي ١ / ٢٩١، الحديث ٤٤٣؛ الكافي للكليني ٢ / ٣٥٢، الحديث ٧؛ بحار الأنوار ٦٧ / ٢٢، الحديث ٢١؛ جامع الاخبار: ٨٨؛ معارج اليقين في أصول الدين: ٢٥، الحديث ٥٠٥.

(٢) راجع شرح صحيح مسلم ١٥ / ١٥١، وقد أوردنا كلامه في الصفحة: ٣٥٧ من الجزء الأول. هذا وقد روي هذا الحديث كاملاً في صحيح البخاري ٧ / ١٩٠ ومجمع الزوائد ١٠ / ٢٦٩.

ومن هنا نقول: إنَّ كلّاً من أفعال وتروك و سكنات وحركات الأئمّة عليهم السّلام، هي مظهر إرادة الله تعالىٰ.

ولا عجب في ذلك، فإنّه عندما يقبض عزرائيل روح أحد من الخلق، فإننا نقول: إنَّ إرادة الله تعالىٰ تعلّقت بقبض روح هذا الإنسان، لماذا؟ لأنّ عزرائيل مأمور من قبل الله، ففعله فعل الله عزّوجلّ، لذا نقول: كانت إرادة الله في أن لا يحيا هذا الشخص أكثر من هذا العمر، وإنّ أجله قد حان.

ففعل عزرائيل يبيّن لنا إرادة الله عزّوجلّ فهو الدليل عليها.

ومن هنا نرى أنّ الله يقول ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذي وُكِّلَ بِكُم﴾[١]

ويقول أيضاً: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حينَ مَوْتِها﴾[٢]

وهذا ينطبق علىٰ فعل الأئمّة عليهم السّلام، فلماذا يكون هنا غلّواً ولا يكون كذلك هناك؟!

أفهل من الغلوّ أن نقول: إنّ نصب العداء لأهل البيت عليهم السّلام هو نصب العداء لله تعالىٰ؟!

ولماذا لا يكون من الغلوّ ما جاء في قوله تعالىٰ:

﴿مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْريلَ وَ ميكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرين﴾[٣]

ويكون غلوّاً إذا ما قيل ذلك في عداء أهل البيت عليهم السّلام؟!

---

(١) سورة السجدة (٣٢): الآية ١١.

(٢) سورة الزمر (٣٩): الاية ٤٢.

(٣) سورة البقرة (٢): الآية ٩٨.

أَلعَامِلُونَ بِإِرَادَتِهِ

إنّ عمل الأئمّة عليهم السّلام هو المبيِّن لإرادة الله عزّوجلّ، وقد تقدّم، بعد أن استفدنا ذلك من الحديث القدسي الشريف، أنّ كلّ هذه المراتب والمقامات، تبدأ بالعبوديّة والطاعة لله تعالىٰ، وقد قرأنا فيما سبق رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام إنّه قال:

«كان علي عليه السّلام ـ والله ـ عبداً لله صالحاً، أخو رسول الله صلّى الله عليه وآله، مانال الكرامة من الله إلا بطاعته لله ولرسوله»(١)

وهكذا نجد الأمر في خصوص رسول الله صلّى الله عليه وآله، فإن الله عزّوجلّ وفي معرض بيانه لمعراج نبيه الأكرم عبّر عنه بالعبد حيث يقول:

﴿سُبْحانَ الَّذي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ الْبَصيرُ﴾(٢)

و في رواية: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يطوف بالكعبة ذات مرّة، فرأى شاباً يتطلّع في وجوه النساء، وكان ذلك أيّام عمر بن الخطاب، فماكان من أمير المؤمنين إلا أن لطم الشابّ علىٰ وجهه، فأسرع الشاب يشتكيه إلىٰ عمر بن الخطاب. ولما عرف عمر بالقضيّة قال له:

---

(١) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب، الصفحة: ٧٦.

(٢) سورة الاسراء(١٧): الآية ١.

«رأتك عين الله وضربتك يد الله»[(١)]

تُرى، إذا أنكر شيعي هذا المقام لأهل البيت عليهم السّلام ألا يكون أقلّ شأناً من عمر؟!!

أَلفَائِزُونَ بِكرَامَتِهِ

قال الراغب الإصفهاني:

«الفوز: الظفر بالخير مع حصول السّلامة»[(٢)]

فالأئمّة عليهم السّلام هم الظافرون بالخير والرّضا والسّلامة، ولكن أي خير؟

يقول عليه السّلام: بكرامته. فهم ظافرون بكرامة الله سبحانه وتعالى، وكرامة الله عزّوجلّ، لابدّ أن تكون مقاماً عالياً ليصحّ لنا تجليلهم بالفوز بهذا المقام ووصفهم بالوصول إليه.

هذا، وقد أشرنا سابقاً إلىٰ جانب من حقيقة معنى «كرامة الله» للأئمّة عليهم السّلام في شرحنا لفقرة «وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون»[(٣)]

وبناءاً علىٰ هذا، تكون الباء في «بكرامته» زائدة.

---

(١) راجع: الرياض النضرة ٣ / ١٦٥؛ جواهر المطالب ١ / ١٩٩؛ النهاية في غريب الحديث ٣ / ٣٣٢؛ بحار الأنوار ٧٨ / ٣٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٣٨٧.

(٣) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب، الصفحة: ٣٧٢.

ويمكن أن تكون سببية، بمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى أعطاهم مقام الكرامة فكانوا بسببه من الفائزين، كما مرّ بنا سابقاً بيان بهذا الشأن، مع ذكر بعض الآيات القرآنية.

ويبدو لنا أنّ التفسير الأول للباء أوجه، والله العالم.

اصْطَفَاكُمْ بِعِلْمِهِ، وارْتَضَاكُمْ لِغَيْبِهِ واخْتَارَكُمْ لِسِرِّهِ، واجْتَبَاكُمْ بِقُدْرَتِهِ، وأَعَزَّكُمْ بِهُدَاهُ، وخَصَّكُمْ بِبُرْهَانِهِ، وانْتَجَبَكُمْ لِنُورِهِ، وأَيَّدَكُمْ بِرُوحِهِ، ورَضِيَكُمْ خُلَفَاءَ فِي أَرْضِهِ، وحُجَجاً عَلَى بَرِيَّتِهِ، وأَنْصَاراً لِدِينِهِ، وحَفَظَةً لِسِرِّهِ، وخَزَنَةً لِعِلْمِهِ، ومُسْتَوْدَعاً لِحِكْمَتِهِ، وتَرَاجِمَةً لِوَحْيِهِ، وأَرْكَاناً لِتَوْحِيدِهِ، وشُهَدَاءَ عَلَى خَلْقِهِ، وأَعْلَاماً لِعِبَادِهِ، ومَنَاراً فِي بِلَادِهِ، وأَدِلَّاءَ عَلَى صِرَاطِهِ.

عَصَمَكُمُ اللَّهُ مِنَ الزَّلَلِ، وآمَنَكُمْ مِنَ الْفِتَنِ، وطَهَّرَكُمْ مِنَ الدَّنَسِ، وأَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ وطَهَّرَكُمْ تَطْهِيراً

اصطفاكم بعلمه

وهذا المقطع هو بداية فقرة اخرى من فقرات الشهادة الثالثة، إذ أنَّ كلَّ فقرة من الفقرات تشتمل علىٰ قسم من خصائص الأئمّة عليهم السّلام، وفي كلٍّ واحدة منها سرّ ونكتة جليلة.

والنكتة في هذه العبارة وفي كلّ عبارات هذه الفقرة من الزيارة الشريفة، هي إنَّ أوصاف وشؤونات وخصائص الأئمّة عليهم السّلام كلّها من قبل الله تعالىٰ، لأنَّ كلّ واحدة من هذه الجمل، عبارة عن فعلٍ قد ثبت وتحقّق على وجه اليقين، والفاعل هو الله سبحانه وتعالى.

ومثل هذا التعبير، صريح في أن هذه الأوصاف والمنازل والمقامات وإنْ كانت مختصة بالأئمّة عليهم السّلام، ولكنها جاءتهم من ناحية الله سبحانه وتعالى، فهو الذي أرادهم أن يمتازوا بهذه المقامات والأوصاف والخصائص السامية.

وعليه، فليس فقط لا وجه لتضمن هذه العبارات لشائبة الغلوّ، بل لا سبيل حتّىٰ لاحتمال الغلوّ فيها.

كلمة «الإصطفاء»

وقد أشرنا سابقاً إلىٰ أنّ كلمة «الإصطفاء» بمعنى الانتخاب والفرز،[١] وإنّ الله عزّوجلّ قد انتجب الأئمّة عليهم السّلام بحسب علمه وميّزهم بالمنزلة والشأن عن سائر خلقه، فأعطاهم مقاماً خاصّاً لم يعطه أحداً من العالمين.

لأهل البيت مقامُ لم يبلغه أحد

وتوضيح ذلك هو:

إنّ الله تعالىٰ هو خالق البشر وأنه خبير منذ بداية خلقهم بكلّ أوصافهم، أخلاقهم، وحالاتهم بنحو كامل، فلا يغيب عنه شئ من شؤونهم. يقول تعالىٰ في القرآن المجيد:

﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطيفُ الْخَبير﴾[٢]

فهل يمكن ألاّ يكون الباري عزّوجلّ عالماً بكلّ ما يرتبط بشؤون مخلوقاته، مع أنّه اللطيف الخبير؟

إذن، فهو عزّوجلّ، يعلم ماذا خلق، وهو خبير بكلّ أبعاد وجود الموجودات وأحوالهم الإختياريّة.

ومن هنا، وبسبب علمه هذا بأحوالهم، يمنحهم مراتب القرب منه، كلٌّ بحسب حالاته وأحواله، فكلّ من رفع منهم خطوات أكثر في طريق العبوديّة، كانت منزلته من الباري أقرب، ومقامه أسمى عنده.

---

(١) راجع: المفردات في غريب القرآن: ٢٨٣.

(٢) سورة الملك(٦٧): الآية ١٤.

والأئمّة عليهم السّلام، وصلوا إلىٰ مرتبة جعلتهم يمتازون عن الآخرين، أي إنّهم حصلوا علىٰ خصائص لم يحصل عليها الآخرون.

وعليه، فإنّ الباري عزّوجلّ، وبمقتضى علمه بأحوالهم، صفاتهم وعبادتهم عليهم السّلام، اصطفاهم، ومنحهم مثل المقام الذي لم يصل إليه أحد غيرهم.

وهنا ينبغي التنويه إلىٰ أمرين:

الأول: إنّ الأئمّة عليهم السّلام، هم بشرٌ مخلوقون لله كسائر أفراد البشر.

الثاني: إنّ كلّ فرد من أفراد البشر يمكنه ـ باختياره ـ الإهتداء إلىٰ الطريق الصحيح للقرب الإلهي، وطيّ هذا الطريق الموصل إلىٰ رضاه.

ومن هنا، فإنّ من الضروري بيان مطالب ثلاث:

المطلب الأول:

في بيان بعض الشروط:

إنَّ أول شرط للاهتداء إلىٰ الطريق الصحيح، هو المعرفة بالطريق، وعدم السير في الطريق الخطأ أو السير بغير طريق.

الشرط الثاني: العبادة والطاعة الصّادقة الخالصة، والثبات في هذا الطريق.

الشرط الثالث: أن تكون هذه الحركة إختياريّة.

المطلب الثاني:

فإذا كان الأمر كذلك، فلا محالة من تفاوت مراتب الأشخاص في هذه الحركة.

المطلب الثالث:

بمقتضى الأدلّة الكثيرة الواردة في الكتاب والسنّة، ومن خلال التأمّل في أحوال وسيرة الأئمّة الهداة عليهم السّلام، يتضح لنا جليّاً أنّ هؤلاء الكرام قد وصلوا إلىٰ مرتبة عند الله تفوق المراتب جميعاً.

ولا يخفى، إنَّ هذا البحث يمكن أن يكون مستقلّاً عن بحث العصمة، مع أنّ الأئمّة عليهم السّلام معصومون باختيار منهم.

يقول تعالىٰ في محكم كتابه:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَميعٌ عَليم﴾(١)

فاصطفاء واختيار هؤلاء، إنما هو من ناحية الله سبحانه وتعالى، ومن قبله، ولذا نسب الفعل إلىٰ الذات الإلهيّة المتعالية.

ولكن، نجد أنه عزّوجلّ يقول في ذيل الآية: **﴿وَ اللَّهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾**.

أي: إنّ علم الله تعالىٰ دخيل في الإصطفاء والإنتخاب.

وفي آية أخرى يقول عزّوجلّ:

﴿اللَّهُ يَصْطَفي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَميعٌ بَصيرٌ * يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْديهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُور﴾(٢)

وعليه، فصحيحٌ أن الإصطفاء يكون من قبل الله تعالىٰ، وأنّه فعله عزّوجلّ، ومنسوب اليه، ولكنّ هذا الإصطفاء إنما كان لعلمه عزّوجلّ بأحوالهم، وببركة عبوديّتهم الحقّة لله تعالىٰ، وهذا هو ما عنيناه بالإهتداء إلىٰ الطريق وتشخيصه، ومن ثمّ طيّه والثبات عليه.

والشواهد على ذلك في الآيات القرآنيّة، والروايات الشريفة، كثيرة وقد ذكرنا بعضها في المباحث السّابقة.

---

(١) سورة آل عمران(٣): الآية ٣٣.

(٢) سورة الحج(٢٢): الآية ٧٥ و ٧٦.

ونقرأ في آية أخرى، خطاب الباري عزّوجلّ لرسوله الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث يقول:

﴿وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُودا﴾(١)

فإنه ظاهر في أنّ التهجّد مقدّمة للمقام المحمود.

وكذلك تأمّلوا في الآية الشريفة:

﴿وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدي وَ الْأَبْصارِ * إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ﴾(٢)

ففي هذه الآية يذكر أوّلاً عبوديّة الأنبياء الكرام لله تعالى، ثم يصل إلىٰ: «أخلصناهم» وهذا مطلب مهم جدّاً.

وفي آية أخرى يقول عزّوجلّ:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾(٣)

فإنّ فيها، أنّ الإصطفاء كان من بين العباد، وكما ذكرنا سابقاً، فإن مراتب العباد مختلفة، ولكنّ من بين العباد من خطى خطوات كبيرة وراسخة في هذا الطريق، وتقدّم علىٰ الآخرين حتّىٰ وصل إلىٰ مقام الإصطفاء من بين العباد، فاصطفاهم ثمّ أورثهم الكتاب، وهم أهل بيت النبي الأكرم عليهم السّلام.

كان هذا خلاصة شرح هذه الجملة بناءاً علىٰ نسخة «إصطفاكم بعلمه».

---

(١) سورة الاسراء(١٧): الآية ٧٩.

(٢) سورة ص(٣٨): الآية ٤٥ و ٤٦ و ٤٧.

(٣) سروة فاطر(٣٥): الآية ٣٢.

شرح الجملة بناءً على نسخة «لعلمه»

وأمّا بناءاً على النسخة التي ورد فيها: «إصطفاكم لعلمه»، فسيكون للجملة معنى آخر، وهو: إنّ الله تعالىٰ اصطفى الأئمّة عليهم السّلام ليكونوا وعاءاً لعلمه وحملة له.

وهنا لابدّ من ملاحظة:

١ ـ ما هي دلالات انتخاب الأئمّة عليهم السّلام من بين كلّ الخلائق من الأوّلين والآخرين، ليكونوا وعاءاً لعلم الله تعالىٰ؟

٢ ـ إنّ المصطفي لهؤلاء هو الله اللطيف الخبير الحكيم.

٣ ـ انتخبهم ليكونوا وعاءاً وظرفاً للعلم الإلهي.

٤ ـ إنَّ علم الله سبحانه وتعالى غير محدود والإمام محدود.

٥ ـ إنّ العلم كمالٌ لا كمال بعده، بل إنّ جميع الكمالات مرجعها إلىٰ العلم.

وهنا نكتفي بذكر مطلبين فقط:

الأئمة أوعية علم الله

المطلب الأول: إنّ الشواهد القرآنيّة والروائيّة علىٰ أنّ الأئمّة عليهم السّلام هم وعاء العلم الإلهي، كثيرة. فقد رُويتْ في كتب الفريقين بمناسبات مختلفة، وقد ذكر جملة منها في ذيل الآية الكريمة :

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ في إِمامٍ مُبين﴾[١]

فعن أبي جعفر عن جدّه عليهما السلام قال:

---

(١) سورة يس(٣٦): الآية ١٢.

لمّا نزلت هذه الآية ﴿وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ في إِمامٍ مُبين﴾ علىٰ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، قام أبوبكر وعمر من مجلسهما فقالا: يا رسول الله ! هو التوراة؟ قال: لا. قالا: فهو الإنجيل؟ قال: لا. قالا: فهو القرآن؟ قال: لا. قال: فأقبل أمير المؤمنين علي عليه السّلام، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: هو هذا، إنَّه الإمام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كلّ شيء؛[١]

ومن جملة تلك الروايات، ما ورد في ذيل الآية المباركة:

﴿قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهيداً بَيْني وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتاب﴾[٢]

وقد أشرنا إلىٰ بعضها في شرح عبارة: «وخزّان العلم».

علومهم من الله ورسوله

المطلب الثاني: إنّ الله سبحانه وتعالى ورسوله هما المعلّمان للأئمة عليهم السّلام، بمعنىإنّ علم رسول الله صلّى الله عليه وآله، من الله عزّوجلّ، حيث يقول:

﴿عَلَّمَهُ شَديدُ الْقُوى﴾[٣]

وكذلك قوله عزّوجلّ مخاطباً نبيّه الأكرم:

﴿وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْري مَا الْكِتابُ وَ لاَ

(١) معاني الأخبار: ٩٥، الحديث ١؛ المناقب، ابن شهر آشوب ٢ / ٢٦٣؛ الفصول المهمّة ١ / ٥٠٩ و ٥١٠، الحديث ٦١؛ بحار الأنوار ٣٥ / ٤٢٧ و ٧٢٨، الحديث ٢؛ ينابيع المودة ١ / ٢٣٠، الحديث ٦٦.

(٢) سورة الرعد(١٣): الآية ٤٣.

(٣) سورة النجم(٥٣): الآية ٥.

الْإيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدي إِلى صِراطٍ مُسْتَقيم﴾[١]

وكذلك قوله تعالىٰ:

﴿ثُمَ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا...﴾[٢]

ثمّ ورد عن الأئمّة عليهم السّلام قولهم:

علم الكتاب ـ والله ـ كلّه عندنا.[٣]

هذا، وقد أخذ الأئمّة علمهم من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، كما ورد عنه أنه قال:

«معاشر الناس، ما من علم إلا وقد أحصاه الله فيّ، وكلّ علم علمتُ فقد أحصَيته في إمام المتقين، وما من علم إلا علّمته عليّاً وهو الإمام المبين»[٤]

و قال أمير المؤمنين عليه السّلام:

«علّمني رسول الله صلّى الله عليه وآله ألف باب من العلم يُفتح لي من كلّ باب ألفُ باب»[٥]

والآن، اسمعوا ما يقوله الإمام الرّضا عليه السّلام حول الإمام والإمامة:

«الإمام... مخصوص بالفضل كلِّه من غير طلب منه ولا اكتساب، بل

---

(١) سورة الشورى (٤٢): الآية ٥٢.

(٢) سورة فاطر (٣٥): الآية ٣٣.

(٣) الكافي ١ / ٢٥٧، الحديث ٣؛ بحار الأنوار ٢٦ / ١٩٧، الحديث ٨

(٤) الاحتجاج ١ / ٧٤؛ بحار الأنوار ٣٧ / ٢٠٨.

(٥) نوادر المعجزات: ١٣١؛ دلائل الإمامة: ٢٣٥؛ بحار الأنوار ٦٩ / ١٨٣؛ نظم درر السمطين: ١١٣؛ ينابيع المودة ١ / ٢٢٢، الحديث ٤٣ مع تفاوت بسيط.

اختصاص من المفضل الوهّاب... إنّ العبد إذا اختاره الله عزّوجلّ لامور عباده، شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة وألهمه العلم إلهاماً،

فلم يعي بجواب ولا يحير فيه عن الصواب... يخصّه الله بذلك ليكون حجّته علىٰ عباده وشاهده علىٰ خلقه...»[١]

وَإِرتَضَاكُم لِغَيبِهِ

إنّ الله سبحانه وتعالى ارتضى الأئمّة عليهم السّلام لغيبه. والظاهر أنّ هذه الجملة من الزيارة الجامعة، بيان لمصداق الآية الكريمة:

﴿قُلْ إِنْ أَدْري أَ قَريبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً * عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدا﴾[٢]

ومازلنا نؤكّد في كلّ موردٍ على أنَّ كلّ ما عند الأئمّة عليهم السّلام، فهو من عند الله سبحانه وتعالى، فهذا الإستيعاب للعلوم الذي لم يكن متوفراً عند أحد غير الأئمّة عليهم السّلام، من المنح الإلهيّة لهم دون سواهم من الخلق.

فهذه الآية الشريفة تخاطب الرسول الأكرم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم بأن ما عنده من علم فهو من الله تعالىٰ، فهو ينفي عن نفسه العلم بقرب ما يوعدون أو أنَّ له أمداً.

---

(١) الكافي ١ / ٢٠١ و ٢٠٣؛ الأمالي للصدوق: ٧٧٦ ـ ٧٧٨؛ بحار الأنوار ٢٥ / ١٢٤ ـ ١٢٧.

(٢) سورة الجن (٧٢): الآية ٢٥ ـ ٢٨.

إنّ النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله، ينفي علمه بذلك، لأن ذلك من الغيب، والعالم بالغيب هو الله سبحانه وتعالى.

فعبارة «عالم الغيب» خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره «هو» أي: هو عالم الغيب.

وقد ورد هذا المعنى كذلك في قوله تعالىٰ:

﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّه...﴾[١]

إذن، فالله سبحانه وتعالى هو «عالم الغيب» بالذات، ولا يُطلع أحداً علىٰ غيبه «إلاّ من ارتضى من رسول».

ولابدّ من التأمل والتدقيق في هذه الألفاظ ودلالاتها، فإنّ كلمة «إن» في قوله «إن أدري» نافية، و«فلا يظهر» أي لا يُطلِعُ أحداً.

«الارتضاء» لغةً

والآن، ما معنى كلمة «ارتضى»؟

قد مرّت بنا سابقاً مفاهيم من الإصطفاء، الإنتخاب، الإجتباء، وقلنا إنّ هذه الألفاظ وإنْ كانت قريبة إلىٰ بعضها من حيث المفهوم، ولكنّها ليست مترادفة، ولابدّ من وجود التفاوت فيما بينها وإن كان قليلاً، لدفع إشكال التكرار.

وكلمة «الإرتضاء» من جملتها أيضاً، فإن مصطلح «الّرضا» في اللغة، هو ما يقابل السّخط.[٢]

والسّخط لا يأتي جزافاً، فكذلك الرّضا. فإن لم يستحق الإنسان السّخط، لا يُسخط عليه قهراً، ومن لم يستحق الرضا، لا يُرتضى.

---

(١) سورة النمل(٣٧): الآية ٦٥.

(٢) راجع معجم مقاييس اللغة ٢ / ٤٠٢؛ لسان العرب ١٤ / ٣٢٣.

إذن، فالإنسان لابدّ أن يكون بحالة من حيث الصّفات والأحوال والسّلوك، حتّىٰ يستحق الرّضا من الله تعالىٰ.

وهذه النقطة يمكن أن تكون نقطة الإفتراق بين الإرتضاء، الإنتخاب، الإجتباء والإصطفاء.

ثمّ إنَّ من يستحقُّ مقاماً ومنزلةً مّا، فإنّه ينتظر و يترقّب وصولها إليه. وهذه الخصوصيّة ليست موجودة في كلمة الإصطفاء أو الإنتخاب.

ومن جهة أخرى، فإنه بالتأمل في الآية، يظهر اشتمالها على الإستثناء من عمومين:

الأول: «على غيبه» في قوله تعالىٰ: ﴿**فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِه**﴾ وهذه النكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي لا يظهر علىٰ كلّ غيبه، فإن لم يثبت هذا العموم، فلا شك في تمامية الإطلاق.

الثاني: العموم الموجود في «أحداً»، في قوله: ﴿**فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً**﴾، يعني لا يظهر ولا يطلع أي أحدٍ علىٰ غيبه.

من هو المرتضى؟

إنّ المرتضى هو الشخص الذي قَبِلَهُ الله تعالىٰ لإطلاعه علىٰ غيبه، وهو ذلك الشخص الذي هداه الله، وعلَّمهُ وربّاه وأشرف علىٰ كلّ شؤونه، وهو ليس إلّا النّبي الأكرم والأئمّة عليهم السّلام، ولذا نقول في الزيارة: «وارتضاكم لغيبه».

ولكنّ الله تعالىٰ يقول بعد ذلك: «من رسول»، والأئمّة عليهم السّلام، ليسوا رسلاً.

إذن، لابدّ من مراجعة الروايات، لنرىٰ ماهو الدليل علىٰ شمولية الآية للأئمّة عليهم السّلام، ليصح تطابق هذه الجملة من الزيارة الشريفة مع الآية المباركة.

فإن كانت «مِن» بيانية، وكانت كلمة «رسول» بمعنى النبي المرسل، لم تتم المصداقيّة والتطابق، ولا ينسجم معنى الفقرة مع الآية المباركة.

ولكن، يكفي الإستشهاد في هذا المقام بروايةٍ واحدة وهي:

عن الإمام الرّضا عليه السّلام، قال:

أو ليس الله يقول ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً * إلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُول﴾

فرسول الله عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله علىٰ ما شاء من غيبه، فَعَلِمنا ما كان وما يكون إلىٰ يوم القيامة.(١)

وَإِختَارَكُم لِسِرِّه

أي: وأشهد أنّ الله تعالىٰ قد اختاركم أنتم لسرّه

وبالنظر البدوي، فإنّ مصطلح «السرّ» يعني: ما يقابل «العلن».

يقول الراغب الإصفهاني في «مفردات غريب القرآن»:

عَلَن: العلانيّة ضدّ السرّ، وأكثر ما يقال ذلك في المعاني دون الأعيان.(٢)

ويقول ابن فارس في هذا الشأن:

---

(١) الخرائج والجرائح ١ / ٣٤٣؛ بحار الأنوار ٤٩ / ٧٥، ذيل الحديث ١، فتح الباري ٨ / ٣٩٥؛ تفسير الثعلبي ١٠ / ٥٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٣٤٥.

فالسرّ خلاف الإعلان، يقال: أسررتُ الشيئ إسراراً، خلاف أعلنت وأسررت الشيئ: أخفيته. وأسررته أعلنته.[١]

ويقول ابن منظور في «لسان العرب»:

وسرَّ الشيئ: كتمه وأظهره، وهو من الأضداد، سَررته: كتَمتَه.[٢]

المعاني المتعددة لكلمة «السرّ»

لا يخفى أنّ لكلمة «السرّ» معان متعددة في لغة العرب، كما ذكر في لسان العرب ومعجم مقاييس اللغة والصحاح،[٣] وعباداتهم ظاهرة في أنها معاني حقيقيّة، وإنْ كان المعنى المتبادر من كلمة «السرّ» هو ما يقابل «العلن». وهذا لا يمكن إنكاره بحال، ولكنّ هذا التبادر والخطور، إنّما كان بسبب كثرة الإستعمال لهذا المصطلح في هذا المعنى دون غيره من معانيه، فمثل هذا التبادر لايجعله حقيقةً في ذلك ومجازاً في غيره.

والحاصل: إنّ لفظ «السرّ» حقيقي في كلّ معانيه، ومن ذلك قولهم:

السّر: خالص الشيئ.[٤]

فسرّ الشّيئ زبدته وخالصه بنحو لا يشوبه شيئ آخر، قالوا: ومنه السّرور.

فوصف الإنسان بالسّرور مقابل الحزن ـ يعني خلُوّه من الحزن، وهذا من الواضحات.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣ / ٦٧.

(٢) لسان العرب ٤ / ٣٥٧.

(٣) معجم مقاييس اللغة ٣ / ٦٩ ـ ٧٠؛ صحاح اللغة ٢ / ٦٨١؛ لسان العرب ٤ / ٣٥٨ ـ ٣٦٠.

(٤) معجم مقاييس اللغة ٣ / ٦٨؛ صحاح اللغة ٢ / ٦٨٢.

وأيضاً، فقد أخذ لفظ «السُرَّة» في لغة العرب من السرّ بمعنى الخالص، قالوا: لأنَّ السرّة من الإنسان: خالص جسمه ومرجعه.[١]

هذا، وقد ذهب بعض اللّغويين إلىٰ أنّ سبب التسمية بالسرّة إنّما هو وقوعها في وسط جسم الإنسان.

وفي الرواية:

«الولد سرُّ أبيه»[٢]

ذلك، لأنّ الولد خالص صفات الأب، فهي تظهر في الولد بنحوِ الإجمال والكلّيّة وتتجلّى فيه. وبعبارة أخرى، فإنّ الولد معرِّف للأب في أخلاقه وملامحه.

ويقال أيضاً: «فلان سرّ قومه».[٣] أي إنّ جميع صفات القوم قد جمعت عند هذا الشخص وتجلّت فيه.

ومن المعاني للسّر: قولهم: «سرّ الشيئ: مستقرّ الشيئ»

ومنه سمّي السرير الذي ينام عليه الإنسان، لأنّ الإنسان يستقرّ عليه.

ويقال أيضاً: «سرير الرأس: مستقرّه»

قال في معجم مقاييس اللغة:

السرّ: السين والراء يجمع فروعه: إخفاء الشيئ، وما كان من خالصه، ومستقرِّه.[٤]

إذن، فلهذه المادّة ثلاثة معاني وإليها تعود كلّ المشتقّات بناءً على كلام ابن فارس.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣ / ٦٨.

(٢) مستدرك سفينة البحار ٥ / ١٩، قال: روى: «الولد سرّ أبيه»، وفي أعيان الشيعة ٥ / ٩٢، قال: روى قوله صلّى الله عليه وآله: «الولد سرّ أبيه».

(٣) تفسير التبيان ٢ / ٢٦٧؛ تفسير مجمع البيان ٢ / ١١٩؛ لسان العرب ٤ / ٣٥٩.

(٤) معجم مقاييس اللغة ٣ / ٦٧.

ولا يبعد أن يكون المعنى الثالث ـ وهو المستقر ـ هو المعنى الجامع بين الجميع. فتأمّل.

ونحن نشرح الجملة المذكورة من الزيارة على ضوء المعاني الثلاثة:

المعنى الأول: أصحابُ السرّ

أمّا إنْ كان «و اختاركم لسرّه» بالمعنى الأوّل، فهذا يعني إنّ الله تعالىٰ جعل الأئمّة عليهم السّلام أصحاب سرِّه وانتخبهم لذلك.

وقد ذكرنا سابقاً في شرح عبارة «وحفظة لسرِّه» أنّ «السرّ» هو ما يودع عندالشخص على أن لا في نفسه ويخفيه عن الآخرين، فالائمة حفظة الأسرار الإلهيّة وإنْ جاز أن تكون هناك بعض الامور التي لم يطّلع عليها حتّىٰ النبي الأكرم محمد صلّى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السّلام ـ مع أنهم أقرب الناس إلى الله ـ.

فالسرُّ، هو الأمر المكتوم، والمكتوم له مصداقان:

فمنه: ما لم يُطلع الله عزّوجلّ عليه أحداً حتى النبيّ الأكرم.

ومنه: ما أطلع عليه النبيّ وآله الأطهار فقط، وهذا هو المراد من الجملة بناءً على المعنى الأوّل.

وعندنا روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السّلام في هذا المعنى، ومنها ما جاء في بصائر الدرجات للشيخ الصفّار القمي بإسناده عن الإمام الباقر عليه السّلام أنه قال:

«نحن شجرة النبوّة وبيت الرحمة ومفاتيح الحكمة ومعدن العلم ومَوضع

الرسالة ومختلف الملائكة وموضع سرّ الله، ونحن وديعة الله في عباده، ونحن حرم الله الأكبر، ونحن عهد الله...»[١]

وفي رواية أخرى، بسند آخر في كتاب البصائر وكتاب الكافي، عن الإمام الصّادق عليه السّلام قال:

«يا خيثمة، نحن شجرة النبوّة وبيت الرحمة ومفاتيح الحكمة ومعدن العلم وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وموضع سرّ الله، ونحن وديعة الله في عباده ونحن حرم الله الأكبر، ونحن ذمّة الله».[٢]

وفي رواية أخرى في الكافي عن أبي بصير عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنه قال له:

«يا أبا محمد، إنَّ عندنا ـ والله ـ سرّاً من سرّ الله وعلماً من علم الله».

و إنْ كانت «مِن» في هذهِ الرواية تبعيضيّة، فهذا يعني أنّ بعض الأمور مخفيّة حتّىٰ عن أهل البيت عليهم السّلام ولم يطلعهم الله عزّوجلّ عليها، ولأنها لم تصلهم عبّر عنها بالسرّ.

ثم يقول عليه السّلام:

«ما يحتمله مَلك مقرّبٌ ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، والله ما كلَّف الله ذلك أحداً غيرنا، ولا استعبد بذلك أحداً غيرنا، وإنّ عندنا سرّاً من سرّ الله وعلماً من علم الله، أمرنا الله بتبليغه...»[٣]

ومنه يظهر إنَّ بعض الامور وإنْ عبَّر عنها بالسرّ، إلّا إنَّ الأئمّة عليهم السّلام

---

(١) بصائر الدرجات: ٧٧، الحديث ٣؛ بحار الأنوار ٢٦ / ٢٤٥، الحديث ٨

(٢) بصائر الدرجات: ٧٧، الحديث ٦؛ الكافي ١ / ٢٢١، الحديث ٣.

(٣) الكافي ١ / ٤٠٢، الحديث ٥.

كانوا مأمورين بتبليغها إلى الناس، وإنَّ ذلك من مختصاتهم التي يستعبدهم بها الله سبحانه وتعالى.

وفي رواية أخرى في هذا المجال، ذكرها الصّدوق عليه الرحمة في كتاب الأمالي، ورواها أيضاً صاحب كتاب روضة الواعظين، إنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام قال في خطبة له:

«أنا حجّة الله، وأنا خليفة الله، وأنا صراط الله، وأنا باب الله، وأنا خازن علم الله، وأنا المؤتمن على سرّ الله، وأنا إمام البريّة بَعدَ خَير الخليقة محمدٍ نبي الرحمة صلّى الله عليه وآله».(١)

وفي كمال الدين للشيخ الصّدوق رحمه الله، بسنده عن ابن عبّاس، إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله سلم قال:

إنَّ علي بن أبي طالب إمام أمَّتي وخليفتي عليها من بعدي.

ثم يوصلُ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم هذا الأمر بالإمام المهدي عليه السّلام وغيبته، قال ابن عباس: فقام جابر بن عبدالله الانصاري فقال:

يا رسول الله، وللقائمِ مِن وُلدِك غَيبَة؟

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

إي وربّي، ﴿**وليمحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين**﴾. يا جابر، إنَّ هذا الأمر أمرٌ مِن أمر الله وسرٌّ من سرّ الله، مطويّ عن عباد الله، فإيّاك والشكّ فيه، فإنَّ الشك في أمر الله عزّوجلّ كفرٌ.(٢)

---

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق: ٨٨، الحديث ٩؛ روضة الواعظين: ١٠١ مع اختلاف بسيط؛ بحار الأنوار ٣٩/ ٣٣٥، الحديث ١.

(٢) كمال الدين: ٢٨٧ و ٢٨٨، الحديث ٧؛ بحار الأنوار ٥١ / ٧٣، ح ١٨ بتفاوت طفيف.

ومن المحتمل رجوع «إنَّ هذا الأمر» إلىٰ أصل الإمامة، كما ويحتمل رجوعه إلىٰ غيبة الإمام صاحب العصر عليه السّلام.

فإن كان المراد، أصلُ الإمامة، فقد عُبِّر عنها بأنّها «سرٌّ من سرِّ الله».

وإلىٰ هنا تمّ بيان المعنى الأوّل من المعاني الثلاث لكلمة «السّر» في توضيح جملة «اختاركم لسرّه».

المعنى الثاني: سرُّ الله

وأمّا بناءً على المعنى الثاني، فسيكون المعنى: إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أخلص الأئمّة عليهم السّلام لنفسه، فكانوا المثل الأعلى للكمالات والصفات الإلهيّة.

فكما فسّروا «الولد سرّ أبيه» بتجلّي الأب في ابنه معنوياً وأخلاقياً وأنه قد تلخّص فيه، كذلك الأئمّة عليهم السّلام، فإنّ الله سبحانه وتعالى قد اختارهم من بين خلقه، لتتخلص صفاته عزّوجلّ فيهم وتتجلّى بهم، وهذا المعنى حق لا ريب فيه.

والروايات الدالّة على إنَّ الأئمّة عليهم السّلام هم مظاهر الصفات الإلهيّة والكمالات الربوبيّة كثيرة.

ومن ذلك ما رواه الشيخ المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار، في باب «بابٌ جامعٌ في صفات الإمام وشرائط الإمامة» وهي رواية مطوّلة، رواها بالإسناد. عن طارق بن شهاب عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام جاء فيها:

والإمام ـ يا طارق ـ بشرٌ ملكي وجسدٌ سماوي وأمرٌ الهي وروحٌ قدسي ومقامٌ علي... السنام الأعظم والطّريق الأقوم، من عرفهم وأخذ عنهم فهو منهم،

وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَني فَإنَّهُ مِنّي﴾.[١] خلقهم الله من نور عظمته وولّاهُم أمر مملكته، فهم سرّ الله المخزون وأولياؤه المقرّبون، وأمره بين الكاف والنون، إلىٰ الله يدعون وعنه يقولون وبأمره يعملون...؛[٢]

فالأئمّة عليهم السّلام، سرّ الله بالمعنى الثاني وهو شأن جليل و مقام عظيم، و هم مع ذلك عبادُ الله، ومأمورون من قبله عزّوجلّ، ويعملون بأمره، ويدعون إليه، ولا يسبقونه بالقول، بل يقولون ما يقول.

المعنى الثالث: مستقرُّ الله

وأمّا بناءً على المعنى اللغوي الثالث لكلمة «السرّ» وهو: المستقر، والذي على أساسه سُمّي السريرُ سريراً لمناسبة الإستقرار عليه، فإنّه يكون معنى «اختاركم لسرّه»: إنّ الله سبحانه وتعالى مع الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام ولا ينفصل عنهم، وهم أيضاً لا ينفصلون عنه عزّوجلّ.

ولهذا المعنى شواهد كثيرة في الكتاب و السنّة، فإنّ أئمّتنا عليهم السّلام أئمّة المتّقين، وقد قال تعالى: ﴿وَ اعْلَمُوا أَنَ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقين﴾[٣] وأئمّة المحسنين، والله عزّوجلّ يقول: ﴿وَ إِنَ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنين﴾[٤] وهم أئمّة الصّابرين، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرين﴾[٥]

---

(١) سورة إبراهيم (١٤): آية ٣٦.

(٢) بحار الأنوار ٢٥ / ١٧٢، الحديث ٣٨.

(٣) سورة البقرة (٢): الاية ١٩٤.

(٤) سورة العنكبوت (٢٩): الآية ٦٩.

(٥) سورة البقرة (٢): الآية ١٥٣.

وقد ورد في الأحاديث القدسية نظير ذلك، كالحديث:

«أنا عند المنكسرة قلوبهم».(١)

أوَ ليس صحيحاً ما ورد من أنّ:

«قلبَ المؤمِنِ عرشُ الرحمن»؟(٢)

بل، إنَّ الله تعالىٰ يمنح هذه المنزلة للمقرّبين عنده، وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون﴾(٣)

وبناءاً على ذلك، فإنّ الأئمّة عليهم السّلام مستقرّون عند الله تعالىٰ، وأنّ صفات الباري المتعال مستقرة فيهم، فهم مظاهر علم الله وقدرته وارادته، فمن أخذ منهم فقد أخذ من الله، ومظاهر إرادة الله، فمن أطاعهم فقد أطاع الله...

هذا، وقد روى المجلسي رحمه الله في بحاره عن كتاب مشارق أنوار اليقين، للشيخ رجب البرسي رحمه الله، جاء فيها:

«فَهُم سرُّ الله المخزون».(٤)

وللعلماء آراء متفاوتة في الشيخ المذكور وكتابه:

فالشيخ الأميني رحمه الله فصَّل الحديث في كتابه «الغدير» عن الحافظ

---

(١) منية المريد: ١٢٣؛ شرح الاسماء الحسنى ١/ ١٤٦.

(٢) بحار الأنوار ٥٥ / ٣٩ الحديث ٦١؛ شرح الأسماء الحسنى ١ / ٣٤.

(٣) سورة آل عمران (٣): الآية ١٦٩.

(٤) مشارق أنوار اليقين: ١٧٨؛ بحار الأنوار ٢٥ / ١٧٣، الحديث ٣٨.

الشيخ رضي الدين رجب البرسي رحمه الله، وأجلَّهُ وأكثر من الدفاع عنه، ونزَّهه عمّا رُمي به من الغلو.(١)

ولكنَّ المعتمد كلام الشيخ المجلسي رضوان الله عليه، لأنّنا نقلنا المطلب عن بحار الأنوار، يقول في مقدمة كتاب بحار الأنوار عند عدّه منابع الكتاب ومصادره:

وكتاب مشارق الأنوار وكتاب الألفين للحافظ رجب البرسي، ولا أعتمد على ما يتفرّد بنقله، لاشتمال كتابيه على ما يوهم الخبط والخلط والإرتفاع.

ثمّ يقول بعد ذلك:

«وإنّما أخرجنا منهما ما يوافق الأخبار المأخوذةَ من الأُصول المعتبرة».(٢)

ومن هنا، نعرف أنَّ ما رواه من كلام أمير المؤمنين عليه السّلام مخاطباً به طارقاً، هو موافق للأخبار المأخوذة من الاصول المعتبرة.

---

(١) راجع كتاب الغدير ٧ / ٣٣، وقد وصف العلامة الاميني رحمه الله الحافظ الشيخ رجب البرسي بقوله:
الحافظ الشيخ رضي الدين رجب بن محمّد بن رجب البرسي الحلّي، من عرفاء علماء الإمامية وفقهائها المشاركين في العلوم، على فضله الواضح في فن الحديث، وتقدّمه في الأدب وقرض الشعر وإجادته... وله في العرفان والحروف مسالك خاصّة، كما أنَّ له في ولاء أئمّة الدين عليهم السّلام آراء ونظريات لا يرتضيها لفيف من الناس، ولذلك رموه بالغلو والارتفاع، غير إنَّ الحق أنَّ جميع ما يثبت المترجم لهم عليهم السّلام من الشؤون هي دون مرتبة الغلوّ غير درجة النبوّة...
وينقل نماذج من أشعاره حول الغدير، من جملتها:
هو الشمس؟ أم نور الضريح يلوح؟ هو المسك؟ أم طيب الوصي يفوح؟
وبحر ندا؟ أم روضة حوت الهدى وآدم؟ أم سر المهيمن نوح؟
وداود هذا؟ أم سليمان بعده؟ وهارون؟ أم موسى العصا و مسيح؟
وأحمد هذا المصطفى؟ أم وصيّه علي؟ نماه هاشم و ذبيح...
(٢) بحار الأنوار ١ / ١٠.

إذن، يمكن تفسير عبارة «إختاركم لسرّه» على المعاني الثلاث لكلمة السرّ، حتّى لو كانت شروح الزيارة الجامعة الموجودة قد اقتصرت في شرحها على المعنى الأول من المعاني الثلاث، ولكنّنا نعتقد بصحة تفسيرها طبق المعنى الثاني والثالث أيضاً، ولا نرى في ذلك إشكالاً.

وَاجتَباكُم بِقُدرَتِهِ

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد اجتبى الأئمّة الأطهار عليهم السّلام بقدرته، فما هي حقيقة هذا الإجتباء؟ وما المراد من القدرة هنا؟

الإجتباء لغة

كلمة «الإجتباء» في اللغة وكتب التفسير والحديث، اُخذت بمعنى الإصطفاء.

ولكننا قد أشرنا سابقاً إلىٰ أنَّ الإصطفاء، الإختيار، الإنتخاب، الإنتقاء، والإجتباء، مفاهيم قريبة من بعضها، ولذا نراهم يستعملون أحدها مكان الآخر في بعض الأحايين، فيضعون كلمة «إصطفاء» مكان كلمة «الإجتباء» وهكذا.

ولكن، وبالنظر إلىٰ القول بعدم وجود الترادف في لغة العرب، لابدَّ أن نفرّق بين هذه المصطلحات ومفاهيمها، حتّىٰ لو كانت متقاربة، والتفريق يكون بينها من جهة العموم والخصوص أو من جهة الخصوصيّات والإعتبارات والدقائق الكامنة في مفاهيم هذه الألفاظ.

ويقول الراغب الإصفهاني في «المفردات في غريب القرآن»:

«جبيت الماء في الحوض جمعته، والحوض الجامع له جابية، وجمعها: جواب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَ جِفانٍ كالجَوابِ﴾[١] ومنه استعير جبيت الخراج جباية، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يُجبى إليه ثَمَراتُ كلِّ شَيءٍ﴾.[٢] والإجتباء: الجمع على طريق الإصطفاء. قال عزّوجلّ: ﴿فَاجتَباهُ رَبُّهُ﴾.[٣]»[٤]

ومنه يظهر أنَّ الإجتباء غير الإصطفاء، وإنّ هذين اللفظين ليسا مترادفين، فالإصطفاء أعم والإجتباء أخصّ منه، لكونه الجمع على طريق الإصطفاء، فكلّ إصطفاء إجتباء، وليس كلّ إجتباء إصطفاء، بل هو أخصّ، وخصوصيته هي جمعُهُ على طريقه.

فلو جمعتم عدة أشياء مصطفاةٍ، بعضها إلى البعض، كان ذلك إجتباءاً لتلك الأشياء.

وقد يعزل الإنسان عدة أشياء من مجموعة واحدة، لكنه لا يجعلها إلىٰ بعضها البعض، بل يفرّقها تفريقاً، فهذا لا يسمى إجتباءاً وإنما هو إصطفاءٌ لاغير.

فالإجتباء ـ إذن ـ هو الجمع على طريق الإصطفاء.

وهذه التدقيقات مفيدة لفهم القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وكذلك لفهم عبارات الزيارة الجامعة الشريفة.

يقول تعالىٰ في كتابه:

﴿فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحين﴾[٥]

---

(١) سورة سبأ (٣٤): الآية ١٣.

(٢) سورة قصص: الآية ٥٧.

(٣) سورة قلم (٦٨): الآية ٥٠.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ٨٧

(٥) سورة القلم (٦٨): الآية ٥٠.

ثم يقول الراغب الإصفهاني:

«وإجتباء الله العبدَ، تخصيصه إيّاه بفيضٍ إلهي يَتَحَصَّل لهُ منهُ ـ يعني من الفيض ـ أنواع من النعم بلا سعي مِنَ العبد، وذلك للأنبياء وبعضٍ من يُقاربِهم مِنَ الصدّيقين والشهداء»[١]

نكات قيّمة

وفي كلام الراغب الإصفهاني ثلاث نكاتٍ قيّمة:

الأولى: إنَّ الله سبحانه وتعالى إذا اجتبى عبداً من عباده، فإنّه سيخصُّه بعناية خاصّة منه، وببركة هذه العناية يحصل هذا العبد على نعمٍ إلّهيّة جمّة.

الثانية: إنَّ هذا الفضل والإختصاص الإلهي، إنّما هو عطيّة وتفضّل من الله عزّوجلّ، وليس كسبيّاً.

الثالثة: إنّ هذا المعنى لا يختص بالأنبياء، ويحصل لـ: «من يقاربهم من الصدّيقين والشهداء» ـ مع الإحتفاظ بتفاوت المراتب ـ ولكنّه لا يشمل غير هؤلاء من الناس فلا ينالهم مثل هذا الفيض الإلّهي.

إذن، فنحن، ببركة القرآن الكريم، وبالإستعانة بما جاء في كتاب المفردات في معنى كلمة الإجتباء، توصّلنا إلى حدٍّمّا إلى معرفة ما تدّل عليه هذه الجملة من المقام العظيم والشأن الجليل للأئمة الطّاهرين عليهم الصّلاة والسّلام عند الله عزّوجلّ.

نعم، إنّ الله سبحانه وتعالى قد قرّب الأئمّة عليهم السّلام إليه حتّى أوصلهم إلىٰ مقام هو خاصٌّ بهم دون غيرهم، فكانوا أرفع مقاماً وأجلّ شأناً لديه من الأنبياء والمرسلين، كما سيتّضح ذلك بشرح بعض الجمل الاخرى من الزيارة.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٨٧ ـ ٨٨

الإجتباء في القرآن

ولتتميم البحث، نراجع بعض الآيات القرآنية الشريفة، لنثبت أنَّ هذا المصطلح في الزيارة الجامعة إنما هو إشارة إلىٰ ما جاء في كلام الله، وإنّ هذا المقام تفضُّلٌ من الله وعناية خاصة لبعض عباده، كما ورد في عدّة مواطن من القرآن الكريم؛ منها: قوله تعالىٰ في سورة الأنعام:

﴿ومِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وسُلَيْمانَ وأَيُّوبَ ويُوسُفَ ومُوسى وهارُونَ وكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وزَكَرِيَّا ويَحْيى وعِيسى وإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وإِسْماعِيلَ والْيَسَعَ ويُونُسَ ولُوطاً وكلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ * ومِنْ آبائِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ وإِخْوانِهِمْ واجْتَبَيْناهُمْ وهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ولَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ * أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ والْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ﴾[١]

فبناءاً على مضامين هذه الآيات الكريمة، فإنَّ الأئمّة الأطهار عليهم السّلام مجتَبَون من قبل الله، وقد مُنحوا مثل هذه المقامات الرفيعة.

فنحن نلاحظ أنَّ الله سبحانه وتعالى يقول في الآية:

﴿وَاجتَبَيناهُم وهَدَيناهُم﴾

فقد جاءت «الهداية» إلىٰ جنب «الإجتباء»، ونفس هذا المعنى نقرؤه في الزيارة الجامعة الشريفة، إذ جعلت الهداية إلىٰ جنب الإجتباء في قوله عليه السّلام:

«واجتباكم بقدرته وأعزّكم بهداه»

---

(١) سورة الانعام (٦): الآيات ٨٤ ـ ٨٩

إذن، وكما في تعبير الراغب الإصفهاني، فإنَّ هذه المنازل والمقامات الممنوحة للأنبياء المقربين والمفاضة عليهم من الله عزّوجلّ حاصلة للأئمّة الأطهار عليهم السّلام كذلك مع حفظ المراتب.

ويقول تعالىٰ في عدّة موارد من سورة مريم:

﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ﴾

ثم يقول بعد ذلك:

﴿أُولئِكَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ومِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ومِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهيمَ وإِسْرائيلَ ومِمَّنْ هَدَيْنا واجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْـمنِ خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا﴾(١)

ويقول في خصوص خليله إبراهيم عليه السّلام:

﴿إِنَّ إِبْراهيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِـلَّهِ حَـنيفاً ولَـمْ يَكُ مِـنَ الْـمُشْرِكينَ * شـاكِـراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ * وآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحينَ﴾(٢)

حيث نلاحظ أيضاً فيها إقتران الهداية بالإجتباء.

ويقول عزّوجلّ في شأن يونس عليه السّلام:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ولا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وهُوَ مَكْـظُومٌ * لَـوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّـهِ لَـنُبِذَ بِـالْعَراءِ وهُـوَ مَـذْمُومٌ * فَـاجْتَباهُ رَبُّـهُ فَـجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحينَ﴾(٣)

---

(١) سورة مريم (١٩): الآية ٥٨.

(٢) سورة النحل (١٦): آيات ١٢٠ ـ ١٢٢.

(٣) سورة القلم (٦٨): الآيات ٤٨ ـ ٥٠.

نعم، هذا فضل الله الذي أعطاه لأنبيائه والأئمّة عليهم السّلام وللمقرّبين من ساحة قدسه عزّوجلّ على حسب مراتبهم.

وهذه حقيقة، أقرّت بها وأشارت إليها كتب التفسير واللغة، وقد سجّلها أصحاب هذه الكتب بعبارات لطيفة جداً.

فقد جاء عنهم:

«الإجتباء من جَبَيتُ الشيء: إذا خلّصته لنفسك».[(١)]

فالإجتباء يعني: عزل الشيء عن جملة أشياء وجمعه من هنا وهناك والإختصاص به وعدم الإشتراك فيه مع الغير.

وهذا هو نفس التعبير الوارد في القرآن الكريم:

﴿إلّا عِبادَ الله المُخلَصينَ﴾[(٢)]

وهم الذين وصلوا، ـ ومن خلال طاعتهم وعبادتهم ـ إلىٰ منزلة صاروا فيها خالصين لله سبحانه وتعالى وحده.

ومن ثَمَّ يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان[(٣)]:

«فإجتباء الله سبحانه عبداً من عباده، هو أن يقصده برحمته ويخصّه بمزيد كرامته، فيجمع شمله ويحفظُه من التفرّق في السبُل المتفرقة الشيطانيّة المفرّقة للإنسان ويركبهُ صراطه المستقيم وهو أن يتولّى أمره ويخصّه بنفسه».

---

(١) تفسير التبيان ٦ / ٩٨؛ تفسير القرطبي ٩ / ١٢٧؛ زاد المسير ٣ / ٥٥؛ تفسير الرازي ١٨ / ٨٩؛ تفسير البيضاوي ٣ / ٢٤٧؛ تاج العروس ١٩ / ٢٦٧؛ معاني القرآن ٣ / ٣٩٨.

(٢) سورة الصافات (٣٧): الآيات ٤٠ و ٧٤ و ١٢٨ و ١٦٠.

(٣) لابدّ من التنبه علىٰ أننّا لانوافق على كلّ ما جاء في هذا التفسير، ولكنَّ الإنصاف أنّ فيه ظرائف ودقائق قد لا توجد في غيره. هذا، و قد شرح «إجتباء الله سبحانه» في موضعين، قد يظهر لنا بالتأمل والتدقيق وجود التهافت بينهما.

والحاصل، إنَّ الله تعالىٰ إذا اجتبى عبداً من عباده، صارت كلُّ شؤون ذلك العبد، إلَهيّة، فجميع حركاته، سكناته، سيرته، سلوكه، فعله، تركه، نطقه وسكوته، ستكون بإرادة الله سبحانه وتعالى وموافقة لرضاه. وهذا هو نفس «إذا خلَّصَه لنفسه» الذي قال به علماء الفريقين.

ثم يقول صاحب الميزان:

فلا يكون لغيره فيه نصيبٌ.(١)

أي: ستكون كلّ أبعاد وجود هذا الشخص لله تعالىٰ وباختياره عزّوجلّ، ولا يبقى شيئ في هذا الوجود لغير الله تعالىٰ، بل ستكون كلّ حركاته وسكناته إلهيّةً، وتكون أفعاله وتروكه ربّانيّة.

ويقول العلّامة الطباطبائي في موضع آخر:

«إجتباء الله الإنسان، هو خلاصُه لنفسه وجمعه من التفرّق في المذاهب المختلفة»(٢)

ثم ينقل العلامة الطباطبائي كلام الراغب الإصفهاني في تفسير سورة الأنعام ويعلِّق عليه بقوله:

«والذي ذكره من معنى «الإجتباء» • وإن كان كذلك على ما يفيده موارد وقوعه في كلامه تعالىٰ، لكنّه لازم المعنى الأصلي بحسب انطباقه على صنعه فيهم».(٣)

هذا، وينبغي التأمّل في معنى كلمة «صنعه فيهم» وكيف أنَّ الله سبحانه وتعالى يتولّى صُنع الأنبياء والأئمّة الأطهار عليهم السّلام ويهيؤهم ويعدُّهم لمنزلة شامخة ومقام رفيع.

---

(١) تفسير الميزان ١١ / ٧٩.

(٢) تفسير الميزان ١٢ / ٣٦٨.

(٣) تفسير الميزان ٧ / ٢٤٧.

ثم يقول العلامة:

«والذي يُعطيه سياق الآيات أنّ العناية تعلّقت بمعنى الكلمة الأصلي وهو الجمع من مواضع وأمكنة مختلفة متشتتة، فيكون تمهيداً لما يذكر بعده من الهداية إلىٰ صراط مستقيم، كأنَّه يقول: وجمعناهم على تفرّقهم حتّىٰ إذا اجتمعوا وانضمَّ بعضهم إلىٰ بعضٍ هديناهم جميعاً إلىٰ صراطِ كذا وكذا»؛[١]

وخلاصة الكلام، إنَّ الله سبحانه وتعالى اصطنع الأئمّة عليهم السّلام لنفسه كما إصطنع أنبيائه ورسله والمقرّبين، واختصَّ بهم له وحده، بنحوٍ جعل معه هداية خاصّة لهم بحسب مراتبهم، وهذا هو نفس مفاد الآيات التي ذكرناها سابقاً، والتي كان للأئمّة عليهم السّلام تفسيرهم وبيانهم لها.

ماورد عن الأئمة في الموضوع

وقد ورد في تفسير نور الثقلين، ومجمع البيان، وكتاب المناقب لابن شهر آشوب، وبعض الكتب الاخرى في ذيل بعض هذه الآيات ـ في سورة مريم ـ عن الإمام السجّاد عليه السّلام، إنه قال:

«نحنُ عُنينا بها».[٢]

ويذكر الآلوسي في تفسير روح المعاني هذه الرواية في ذيل الآية من سورة مريم ثم يقول: «وهذه روايات الشيعة»، ويحاول الإنتقاص والإستهزاء بهم بعد أن أعياه إبداء الدليل وعجز عن المناقشة العلميّة، فيقول:

---

(١) تفسير الميزان ٧ / ٢٤٧.

(٢) تفسير مجمع البيان ٦ / ٤٣١؛ تفسير الميزان ١٤ / ٨٠، المناقب لابن شهر آشوب ٣ / ٢٧٣؛ تفسير نور الثقلين ٣ / ٣٥١، الحديث ١١٤؛ بحار الأنوار ١١ / ١٧ و ٢٤ / ١٤٧، الحديث ٢١.

«وروى بعض الإمامية عن علي بن الحسين رضي الله تعالىٰ عنهما أنّه قال: نحن عُنينا بهؤلاء القوم. ولا يخفى أنّ هذا خلاف الظاهر جدّاً. وحال روايات الإماميّة لا يخفى على أرباب التمييز».[١]

كلام مع الآلوسي

وهذا توهّم من الآلوسي.

ولكي يتضح خواء ما قال الآلوسي ووهنُه، نذكر بعض الآياتِ القرآنية في هذا المجال، وهي كثيرة، نبدأ من الآية ١٥ من سورة مريم، حيث يقول عزّوجلّ:

﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا﴾[٢]

ويقول في قصة إبراهيم عليه السّلام:

﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾[٣]

ثم يقول عزّوجلّ:

﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وكانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾[٤]

ويقول في قصة اسماعيل عليه السّلام:

﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وكانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾[٥]

---

(١) تفسير روح المعاني ١٦ / ١٠٨.

(٢) سورة مريم (١٩): الآية ١٦.

(٣) سورة مريم (١٩): الآية ٤١.

(٤) سورة مريم (١٩): الآية ٥١.

(٥) سورة مريم (١٩): الآية ٥٤.

ثم يقول عزّوجلّ:

﴿وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا * ورَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا﴾[١]

ثم يقول:

﴿أُولئِكَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ومِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ومِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهيمَ وإِسْرائيلَ ومِمَّنْ هَدَيْنا واجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا﴾[٢]

وعبارة «أولئك الذين» متعلقة بقوله «واذكر».

كما إنَّ عبارة «وممَّن حملنا» و«ممن هدينا وإجتبينا» معطوفة على «النبيين».

ومنه يُعلم أنَّ السيدة مريم عليها السلام كانت من جملة هؤلاء المجتبين، مع أنها ليست من الأنبياء.

وعليه، يتضح لنا، إنَّ مقام الإجتباء يشمل غير الأنبياء أيضاً، وإنَّ كلام الإمام السجّاد عليه السّلام في تفسير الآية، خالٍ من أيّ إشكال بل هو في غاية الصّحة، ولكنَّ الآلوسي غفل عن هذه النكتة فتصوّر أن كلام الإمام يستلزم القول بأنَّ الأئمّة عليهم السّلام هم من جملة الأنبياء، فراح يستهزء ويسخر من روايات الإماميّة ويتّهمها بالضعف.

مع أنَّ الراغب الإصفهاني نفسه قد أذعن بهذه الحقيقة حينما قال:

«وإجتباء الله العبد تخصيصه إيّاه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع النعم... وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصدّيقين والشّهداء»[٣]

---

(١) سورة مريم (١٩): الآية ٥٦ و٥٧.

(٢) سورة مريم (١٩): الآية ٥٨.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٨٧ـ٨٨.

وبناءاً على هذا، لا إشكال في أنّ هذه العبارة من الزيارة الجامعة هي إشارة إلىٰ المراتب والمقامات المذكورة في القرآن الكريم للأنبياء والأئمّة عليهم السّلام، على ما بينهم من التفاوت كما لا يخفى.

ما معنى بقدرته؟

والآن، نتناول معنى «بقدرته» بحثاً ودراسة.

وعمدة البحث في هذا المقام ينصبُّ على معنى «الباء» في هذه الكلمة. فلابدَّ من التدقيق فيها، وذلك لأن كلمة «قدرة» معلومة المعنى.

وهنا احتمالان:

١ ـ إنَّ هذا الإجتباء الذي هو بمعنى الجمع على طريق الإصطفاء، إنما كان بقدرة الله سبحانه وتعالى. وفي هذه الحالة ستكون «الباء» سببيّة. ويكون المعنى: بسبب قدرته تعالىٰ جمعكم واصطفاكم.

ومنه يُعلَم، أنّ إعمال قدرته في هذه القضيّة كان لازماً وضروريّاً. فإذا ما ذكرت القدرة الإلهيّة في آية من الآيات الكريمة في القرآن، وخاصّة إذا كانت مقرونة بالباء السببيّة، فإن ذلك يكشف عن عظمة ذلك الفعل وأهميّته وخطورته المستدعية لوجود قدرة الله عزّوجلّ لإيجادها.

وكمثال على ذلك، قوله تعالىٰ في سورة القيامة:

﴿أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾.(١)

فواضح أنَّ إحياء الموتى أمرٌ عظيم يحتاج إلىٰ قدرة عظيمة وهي القدرة الإلهيّة.

---

(١) سورة القيامة (٧٥): الآية ٤٠.

وكذلك نقرأ في آية مباركة أخرى:

﴿بَلى قادِرينَ عَلى أَنْ نُسَوِّي بَنانَه﴾[١]

فإرجاع الأجساد إلىٰ الحياة مع المحافظة على أشكالها وحتى على الخطوط الموجودة في الأصابع، أمرٌ عظيم يحتاج إنجازه إلىٰ قدرة عظيمة وهي القدرة الإلهيّة.

وفي آية ثالثة يقول عزّوجلّ:

﴿أَولَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ والْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وهُوَ الْخَلّاقُ الْعَليمُ﴾[٢]

٢ ـ الإحتمال الثاني في معنى الجملة هو: إنّ الله تعالىٰ قد إختار الأئمّة عليهم السّلام بجهة أنهم مظهرُ قدرته. وعليه تكون «الباء» بمعنى «اللّام»، إنْ كانت مستعملة في لغة العرب.

ويؤيّده ورود الكلمة في نسخة اخرى للزيارة بلفظ «لقدرته» بدل «بقدرته».

وعلى أيّ حال، يمكن تفسير العبارة هكذا: «اجتباكم لتكونوا مظاهر قدرته».

نعم، إنَّ الله سبحانه وتعالى قد فَعَل فعلاً عظيماً، وخلق أفراداً عظماء، ليكونوا دليلاً على قدرته، ومظهراً لها.

وكذلك، فإنَّ الله تعالىٰ قد خلق الأئمّة عليهم السّلام، لتتوفر فيهم قدرة عظيمة للتصرّف في الكون، وهو ما يعبّر عنه بالولاية التكوينيّة.

كما إنّهم كانوا يمتلكون القدرة الربّانيّة مضافاً إلىٰ القدرة الجسمانيّة، وقد

---

(١) سورة القيامة (٧٥): الآية ٤.

(٢) سورة يس (٣٦): الآية ٨١

ظهر ذلك في قضيّة قلع باب خيبر، فإنه لمّا سُئل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام عن ذلك قال:

«والله ما قَلَعتُ بابَ خَيبَرَ ورَمَيتُ بِهِ خَلف ظَهرِي أربعين ذراعاً بقوّة جسديّة ولا حركة غذائيَّة، لكنّي أُيِّدتُ بقوَة ملكوتيّة...».[1]

وَأَعَزَّكُم بِهُداهُ

قال الراغب الإصفهاني في كلمة «العزَّة»:

«العزَّة: حالة مانعةٌ للإنسان مِن أن يُغلَب»؛

ثمَّ يقول:

« والعزيز: الذي يَقهَر ولا يُقهَر؛ وعزّ الشيئ: قلّ، إعتباراً بما قيل: كلُّ موجودٍ مملول وكلّ مفقودٍ مطلوب، وقوله:» وإنَّه كتاب عزيز «أي يصعُب منالُه ووجود مثلِهِ».[2]

ومن مجموع ما ذُكر، يتضح أنَّ معنى العزَّة في الإنسان هو عدم وقوعه تحت نفوذ وسيطرة وقدرة وقاهريّة أحد، وبطبيعة الحال فإنَّ مثل هذا الإنسان قليل الوجود.

وهذا هو المعنى الحقيقي لكلمة «العزّة».

العزَّة المطلقَةُ

ولا شك في أنَّ العزَّة المطلقة من كلِّ الجهات والحيثيّات، إنّما هي لله العزيز العليم، ومن مختصّاته عزّوجلّ.

---

(١) الامالي للصدوق: ٦٠٤ ـ ٦ ـ ٥، الحديث ٨٤٠؛ روضة الواعظين: ١٢٧؛ بحار الأنوار ٢١ / ٢٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٣٣٢ و ٣٣٣.

قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾[1]

وفي هذه الآية الكريمة جاءت كلمة «العزَّة» بألف ولام الجنس، ومع ذلك، فقد أكدّها القرآن الكريم بكلمة «جميعاً». ومن جهة أخرى، فإنَّ اللّام في «لله» هي لام الملكيّة.

وبناءاً على هذا، فإن أي إنسانٍ إذا امتلك شيئاً من العزّة الحقيقيّة، فإن ذلك إنّما يكون من الله تعالىٰ، فعزّة ما سوى الله أينما كانت فإنما هي من الله عزّوجلّ وليست خصوصيّة ذاتيّة في ذلك الفرد.

ولماذا قلنا العزّة الحقيقيّة؟

لأنّ البشر أحياناً يتصوّر بعض الأشياء والامور عزّة له، أو يفترض أنَّ نوعاً من تعامل الآخرين معه عزّة، أو السّماح له بالدخول في أمرٍ معيّن، عـزّة، أو أنّ إمتلاكه الشئ الكذائي، عزّة.

وهذا، وإن كان أحياناً من مظاهر العزّة عرفاً، ولها اعتبار عند العقلاء أيضاً، ولكنَّ هذه المظاهر وهذه العزّة ليست دائميّة؛ وإنما هي مؤقتة، تزول مع مـرور الزمان وتغير الأحوال.

افرضوا أنّ زيداً تصدّى لمنصب رئاسة، فإنّ دورة رئاسته وسيادته، ستنتهي.

تصوّروا إنَّ إنساناً اكتسب عزّة في قومه من أجل جماله، أو لجوده وسخائه، أو لوصف آخر من أوصافه، لكنّ هذه العزّة تنتهي وتزول بزوال الجمال أو بنفاد

---

(١) سورة النساء (٤): الآية ١٣٩ وسورة يونس (١٠): الآية: ٦٥.

المال، فمثل هذه العزّة ليست حقيقيّة، بل العزّة الحقيقية، هي العزّة الإلهيّة فقط، فإنها العزّة الدائمة الأبديّة.

فإذا ما كانت العزّة المطلقة لله تعالىٰ وحده، وإنّ كلّ عزّة هي من عزّته عزّوجلّ، اكتساباً أو تفضّلاً، نعرف حينئذٍ أن مثل هذه العزّة الحاصلة للإنسان إنّما هي ببركة الإرتباط بالله تعالىٰ وطاعته.

فكلّما ارتبط الإنسان بمبدأ العزّة الحقيقيّة، وقوّى أواصره بالله سبحانه، كلّما إزداد عزّاً حقيتيّاً، ولمّا كان ذلك المبدأ دائميّاً وأبديّاً، قهراً تكون عزّة الإنسان دائميّة حقيقيّة كذلك.

فعمدة شواخص العزّة الحقيقيّة، هي دوامها وأبديتها، لأنها مأخوذة ومستمدّة من مصدر دائمي وأبدي.

الأئمّة والعزّة الحقيقيّة

وإنّ الله سبحانه وتعالى قد أعطى العزّة الحقيقيّة للنّبي الأكرم وللأئمّة عليهم الصّلاة والسّلام، وفي كلّ الأحوال، إجتمع الناس حولهم أم لم يجتمعوا، فالسّجون والقصور والحياة والممات الظاهري، لا يؤثر في عزّتهم ومقدارها، ففي كلّ الأحوال والظروف عزّتهم محفوظة، لماذا؟

لأنّ هذه العزّة لم يمنحها لهم إلّا الله عزّوجلّ، ولأنّ الله تعالىٰ هو الذي أعزَّهم، فلن يستطيع أحدٌ أن يسلبهم إيّاها، وهذا هو سرّ العزّة الإلهيّة الحقيقيَّة.

فلذا، فإنّا إذا ما أردنا أن نحصل على العزّة الحقيقيّة، علينا أن نرتبط بالله عزّوجلّ، فإنّ مثل هذه العزّة إنّما تتأتى بالإرتباط القوّي به والطّاعة المطلقة له. وفي هذه الحالة سنكون، ليس فقط أعزّاء، بل سنكون مصدراً لإعزاز الآخرين، فمن إرتبط بنا حصل على العزّة أيضاً من خلال ارتباطنا بالله.

وبعبارة أخرى، بإمكاننا نحن أيضاً أن نكون مصدراً لعزّة الآخرين. ومن هنا يقول الباري عزّوجلّ:

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعا﴾

ويقول أيضاً:

﴿وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِين﴾(١)

فالمؤمن العزيز بعزّة الله تعالىٰ، لا يذلّ ولا يخاف، يقول تعالىٰ:

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون﴾(٢)

نعم، إنَّ عزّة النّبي و آله عليهم السّلام عزّة الله عزّوجلّ لهم، وهي بالحدّ الأعلىٰ للعزّة الإلهيّة، ولا يتقدّمهم أحد في قربهم الإلهي وكمالاتهم وسائر منازلهم عليهم السّلام.

خصائص العزّة الحقيقيّة

ثم إنَّ الأئمّة الأطهار عليهم السّلام أعزّة، أي قليلوا المثال والنظير، فهم من حيث جهات الكمال والقرب إلىٰ الله سبحانه وتعالى في الغاية القصوى، لا يغلبهم ولا يسبقهم أحد ولا يقهرهم أحد، بل كلُّ ما سواهم مقهور لعزّتهم ومغلوب، وخاضع وصاغر، ومثل هذه العزّة مقرونة دائماً بالعلوّ.

يقول عزّوجلّ في القرآن الكريم:

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم﴾(٣)

---

(١) سورة المنافقون (٦٣): الآية ٨

(٢) سورة يونس (١٠): الآية ٦٢.

(٣) سورة التوبة (٩): الآية ٤٠.

وهذه العزّة كانت مقرونة بالتوكّل، يقول تعالىٰ:

﴿وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيم﴾[١]

وهذه العزّة مقترنة بالنصر والغلبة في كلّ الأحوال، فمهما حاول أعداء أهل البيت عليهم السّلام، النيل منهم والتقليل من شأنهم، ما استطاعوا، فكان الأئمّة عليهم السّلام هم المنتصرون، وبهذا يصرّح القرآن الكريم بقوله تعالىٰ:

﴿وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢]

وهذه العزّة مقرونة بالقوّة، يقول تعالىٰ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِي الْعَزِيز﴾[٣]

وهذه العزّة، مقرونة بالحكمة، وما أكثر ورود هذا المعنى في القرآن الكريم في وصف الذات الإلهيّة المتعالية:

﴿عَزِيزٌ حَكِيم﴾[٤]

وهذه العزّة مقرونة بالعلم، يقول تعالىٰ:

﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[٥]

والعجيب، أنّ هذه العزّة مع كلّ تلك القدرة والعلم والحكمة والنصر الإلهي، مقرونة أيضاً بالرحمة. يقول تعالىٰ:

---

(١) سورة الأنفال (٨): الآية ٤٩.

(٢) سورة الانفال (٨): الآية ١٠.

(٣) سورة هود (١١): الآية ٦٦.

(٤) سورة البقرة (٢): الآية: ٢٠٩، ٢٢٠، ٢٢٨، ٢٤٠، ٢٦٠؛ سورة المائدة (٥): الآية ٣٨؛ سورة الانفال (٨): الآية: ١٠، ٤٩، ٦٣، ٦٧؛ سورة التوبة (٩): الآية ٤٠، ٧١ وسورة لقمان (٣١): الآية ٢٧.

(٥) سورة الانعام (٦): الآية ٩٦؛ سورة النمل (٢٧): الآية ٧٨؛ سورة يس (٣٦): الآية ٣٨ و....

﴿وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحيم﴾[١]

فمع إنّ الله تعالىٰ غالبٌ في كلّ الأحوال، لكنّه رحيم في كلّ الأحوال وغفور أيضاً.

والأئمّة عليهم السّلام كانوا كذلك أيضاً، فمع قدرتهم على الانتقام والنصر والغلبة كانوا يعفون عمّن ظلمهم ويحسنون إلى من أساء إليهم، لأنهم مظهر الرحمة الإلهيّة.

بين العزّة والهداية

وبطبيعة الحال، فإنّ مثل هذه العزّة وبهذه الأبعاد والخصوصيّات، يلزمها هداية إلهيّة، وبدونها لا تتحصل تلك العزّة، ولذا فإنّنا نقول في الزيارة:

«أعزّكم بهداه» !

إنّ الله سبحانه وتعالى، وإنْ كان الهادي لجميع المخلوقات، ولذا يقول عزّوجلّ:

﴿الَّذي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾[٢]

ولكنّ هداية كلّ مخلوق تختلف عن هداية غيره، فكلٌّ بحسب استعداده وشأنه، يقول تعالىٰ:

﴿وَ الَّذي قَدَّرَ فَهَدى﴾[٣]

فالتقدير أمر ضروري، والتناسب لازم، فصحيح أنّ الله عزّوجلّ قادر على إعطاء الهداية بلا تقدير وحساب، ولكن، لمّا كانت الإستعدادات مختلفة، كانت مقادير الهداية متناسبة مع مقادير الإستعداد عند المخلوقات.

---

(١) سورة الشعراء (٢٦): الآيات: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥ و....

(٢) سورة طه (٢٠): الآية ٥٠.

(٣) سورة الأعلىٰ (٨٧): الآية ٣.

إنه يقول تعالىٰ:

﴿وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعين﴾[١]

لكنْ ليست المشيئة الإلهيّة في أن يهدي الله كلّ المخلوقات بدون محاسبات وتقديرات، وبدون مقدّمات وامتحانات، فإنّ هذا مخالف للحكمة من الخلقة.

فمقتضى الحكمة إذن، أن تكون الهداية على أساس التقادير والإستعدادات، وطبقاً لضوابط وشروط وقواعد وسنن ثابتة، وذلك، لأنّ هذه الهداية بكلّ هذه العظمة والأهميّة والسّعة، لا يمكن أن تكون جزافيّة وبلا محاسبات دقيقة.

بين الإجتباء والهداية

ومن جهة أخرى، ينبغي التذكير بأنّ الله تعالىٰ كان قد امتحن واختبر المقرّبين إليه من الأنبياء والأئمّة عليهم السّلام، ثم اجتباهم عن الآخرين وهداهم هداية خاصّة.

وقد بيّنا آنفاً في شرح عبارة «إجتباكم» بأن هذا الإجتباء كانت له مقدّمات، ومن تلك المقدمات: الامتحان، فقد وقع الإمتحان ثُمَّ كان الإجتباء، ثُمَّ الهداية.

وقد أشرنا في محلّه إلىٰ جملة من الآيات في هذا الشأن منها قوله تعالىٰ بشأن بعض الأنبياء:

﴿ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وهَدى﴾؛[٢]

---

(١) سورة النحل (١٦): الآية ٩.

(٢) سورة طه (٢٠): الآية ١٢٢.

وقوله عزّوجلّ:

﴿شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وهَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيم﴾؛[١]

وقوله في شأن جمع من الأنبياء:

﴿وَ اجْتَبَيْناهُمْ وهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيم﴾[٢]

إنَّ أنبياء الله عليهم السّلام قد تحمّلوا من أممهم التعذيب والتكذيب وتعرّضوا لامتحانات شاقّة وابتلاءات كبيرة في هذا العالم، وبعد أن نجحوا فيها، إجتباهم الله تعالىٰ.

والأئمّة عليهم السّلام أيضاً كانوا ممتحنين ومبتلين بأنواع الابتلاءات والإمتحانات، ثم بعد ذلك حصلوا على الهداية الخاصّة، ثم صاروا هداة للعالمين.

يقول تعالىٰ في كتابه للرّسول الأعظم:

﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ ولِكُلِّ قَوْمٍ هاد﴾[٣]

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة عن الفريقين، إنّ المراد من ﴿لِكُلِّ قَوْمٍ هاد﴾ هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام، فهو الهادي لهذه الامّة، ومن ألفاظ الحديث أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال:

«أنا المنذر وعلي الهادي من بعدي؛ يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي».[٤]

---

(١) سورة النحل (١٦): الآية ١٢١.

(٢) سورة الانعام (٦): الآية ٨٧

(٣) سورة الرعد (١٣): الآية ٧.

(٤) تفسير مجمع البيان ٦ / ١٥؛ تفسير نور الثقلين ٢ / ٤٨٢، الحديث ١٦؛ بحار الأنوار ٩ / ١٠٧ و٢٣ / ٢؛ شواهد التنزيل ١ / ٣٨٤، الحديث ٤٠٠؛ تاريخ مدينة دمشق ٢٢ / ٣٥٩.

ويقول عزّوجلّ في آية أخرى في شأن الأئمّة عليهم السّلام:

﴿وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا﴾(١)

يقول جابر الجعفي، قال الباقر عليه السّلام:

«نزلت هذه الآية في ولد فاطمة سلام الله عليها خاصّة»:

﴿وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُو ن...﴾(٢)

أجل، لقد صبر الأئمّة عليهم السّلام صبراً جميلاً وكانوا مظهر الصّبر ومصداقه الواسع العريض، ولمّا صبروا نصبهم الله أئمّة وهداة للعالمين، وهذه هي الهداية الخاصّة التي حصلوا عليها بعد تلك الخصوصيّات، فكانوا مهديين هداة.

فلو أننا ارتبطنا بالله عزّوجلّ، الذي هو مركز العزّة ومصدرها ومنبعها وأصلها، فليس فقط سنكون من الأعزّاء، بل سنكون واسطةً لإفاضة العزّة على الآخرين أيضاً. كما ورد في مجالسة العلماء وملازمتهم من قول أميرالمؤمنين عليه الصلاة والسّلام:

«من جالس العلماء وُقِّر».(٣)

فمجالسة العلماء تورث العزّة، لأنّهم يحملون شيئاً من علوم أهل البيت عليهم السّلام، ومن جالس العالم ولازمه، كان محترماً بين الناس عزيزاً.

وعلى الجملة، فإنّ الله عزّوجلّ قد اجتبىٰ الأئمة الأطهار وأدّبهم ثم

---

(١) سورة السجدة (٣٢): الآية ٢٤.

(٢) تأويل الآيات ٢ / ٤٤٤ ـ ٤٤٥، الحديث ٨؛ بحار الأنوار ٢٤ / ١٥٨، الحديث ٢٣؛ تفسير فرات الكوفي: ٣٢٩، الحديث ٤٤٩؛ شواهد التنزيل ١ / ٥٨٣، الحديث ٦٢٥.

(٣) كنز الفوائد: ١٤٧؛ بحار الأنوار ١ / ٢٠٥، الحديث ٣٠.

نصبهم للهداية وأمر بمتابعتهم وطاعتهم، ونهى عن اتّباع غيرهم كما في قوله تعالى:

﴿أَ فَمَنْ يَهْدي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُون﴾(١)

كأن الله عزّوجلّ يقول: أليس عندكم عقول؟ كيف تتبعون من هو محتاج إلىٰ الهداية، ولا يميِّز الحق من الباطل؟ تجعلونه إماماً لكم ومقتدىً، وتتركون الإمام الهادي الّذي لا يضلُّ ولا يزلّ أبداً؟ أين عقولكم؟

المغفرة لمن اهتدى

ومن جهة أخرى، فإن الله عزّوجلّ قد وعد المسارعين إلىٰ الإهتداء بهدي أهل البيت عليهم السّلام، ومن أطاعهم، بالمغفرة والرحمة، حيث يقول عزّوجلّ:

﴿وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾(٢)

وهذه من جملة الآيات الآمرة باتّباع أهل البيت عليهم السّلام، فقد ورد بذيلها في كتب الفريقين أنَّ المراد هو الإهتداء إلى ولاية أميرالمؤمنين وأهل البيت عليهم السّلام.(٣)

فعن الإمام الباقر عن أبيه عن جدّه عليهم السّلام، قال:

«خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ذات يوم فقال: إنَّ الله تعالىٰ

---

(١) سورة يونس (١٠): الآية ٣٥.

(٢) سورة طه (٢٠): الآية: ٨٢

(٣) المناقب، ابن شهر آشوب ٣/ ٤٠٣؛ بحار الأنوار ٢٤/ ٢١، الحديث ٣٨.

يقول: ﴿وإنّي لَغَفّارٌ لِمَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالِحاً ثُمَ اهْتَدى﴾

ثـم قـال صـلّى الله عـليه وآله وسـلّم لعـلي بـن أبـي‌طالب عـليه السّـلام: إلىٰ ولايتك»؛[1]

وعنه أيضاً أنه قال:

«(ثمّ اهتدى) إلىٰ ولايتنا أهل البيت، فوالله، لو أنّ رجلاً عبد الله عمرَهُ ما بين الركن والمقام ثمَّ مات ولم يجئ بولايتنا لأكبَّه الله في النار على وجهه»[2]

ثم إنّ الله قد وعد المهتدين إلى ولاية أميرالمؤمنين بالتسديد والهداية فقال:

﴿والَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾[3]

فعن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام في ذيل هذه الآية:

«هذه نزلت في آل محمد وأشياعهم»[4]

ومن جهة أخرى، فإنّ الله عزّوجلّ قد إعتنى بالأئمّة عـليهم السّـلام عـناية خاصّة، فعطف قلوب المؤمنين إليهم، وساق الأرواح نحوهم، وهذا بنفسه نحوُ عزّةٍ وإكرامٍ لهم عليهم السّلام.

يقول تعالىٰ:

﴿إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا﴾[5]

---

(١) شواهد التنزيل ١ / ٤٩٣، الحديث ٥٢١.

(٢) مجمع البيان ٧ / ٤٥؛ بحار الأنوار ٢٤ / ١٤٩، الحديث ٢٩؛ تفسير الصافى ٣ / ٣١٤، الحديث ٨٢؛ تفسير نور الثقلين ٣ / ٣٨٧، الحديث ٩٥؛ شواهد التنزيل ١ / ٤٩٢.

(٣) سورة العنكبوت (٢٩): الآية ٦٩.

(٤) المناقب، ابن شهر آشوب ٢ / ٤٠٣؛ بحار الأنوار ٢٤ / ٢١، الحديث ٣٨.

(٥) سورة مريم (١٩): الآية ٩٦.

وتلخّص: إن الله عزّوجلّ انتجب أهل البيت عليهم السلام وهداهم هداية خاصّةً وجعلهم أعزّة بين الناس ونصبهم هداةً لهم إليه.

ما هي الهداية؟

ولا نقاش في أنَّ الهداية على نوعين:

فتارة الهداية، دلالة إلىٰ الطريق والسبيل، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إِمَّا شاكِراً وإِمَّا كَفُوراً﴾؛[١]

وتارة، تكون الهداية بنحوٍ تجد الهادي مصاحباً لك في الطريق حتى الوصول إلى المقصد.

فقد تسأل من شخص عن مكانٍ، فيرشدك نحوه، وقد يمشي معك حتّىٰ يوصلك إليه، ولعلَّ إلىٰ هذا المعنى أشارت الآية:

﴿ والَّذينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدى﴾[٢]

ويقول عزّوجلّ في آية أخرى:

﴿وَ يَزيدُ اللّهُ الَّذينَ اهْتَدَوْا هُدى﴾[٣]

فالله عزّوجلّ يزيد في هداية السالك للطريق، فيجعل يده بيد الدليل ليوصله إلىٰ المقصد سالماً، فلا يتعرّض للضياع والضلال.

---

(١) سورة الإنسان (٧٦): الآية ٣.

(٢) سورة محمد (٤٧٩: الآية ١٧.

(٣) سورة مريم (١٩): الآية ٧٦.

ويقول تعالىٰ:

﴿وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍ﴾[١]

وكلّ هذه مراتب للهداية، ولكن المهمّ أن يعرف الإنسان سبيل الرشد فيختاره فيسلكه على منهاج النبي وآله الأطهار عليهم السّلام، الذين نالوا الهداية الخاصّة، ويضع قدمه موضع أقدامهم ويتّبع آثارهم فينال العزّة والهداية معاً، بل ويكون مصدراً للعزّة والهداية للآخرين ونوراً يُستضاء به ببركة طاعته لأهل البيت عليهم السّلام.

وَخَصَّكُم بِبُرهَانِهِ

قال الراغب الإصفهاني في كلمة «الاختصاص»:

«التخصيص والاختصاص والخصوصيّة والتخصُّص: تفرّدُ بعض الشئ بما لا يشاركه فيه الجملة، وذلك خلافُ العموم والتعمُّم والتعميم»[٢]

ما معنى البرهان؟

وقال الراغب الإصفهاني في مصطلح «البرهان»:

«البرهان: بيانٌ للحجّة... والبرهان أوكد الأدلّة وهو الذي يقتضي الصدق أبداًلامحالة»[٣]

وقد وردت كلمة «البرهان» في القرآن الكريم في ثلاث مواطن.

---

(١) سورة الزمر (٣٩): الآية ٣٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ١٤٩.

(٣) نفس المصدر السابق: ٤٥.

الأول: في شأن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، يقول تعالىٰ:
﴿قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُم﴾(١)

الثاني: في شأن النبي يوسف الصديق عليه السّلام، حيث يقول تعالىٰ:
﴿وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وهَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّه﴾(٢)

الثالث: في قصّة موسى عليه السّلام، يقول تعالىٰ:
﴿فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ ومَلأَئِه﴾(٣)

هذا، والملاحظ هو إنَّ «البرهان» في الآيات الثلاث قد نسب إلىٰ الله تعالىٰ وأضيف إلىٰ «الربّ»، وهذا يعني أنَّ إقامة تلك البراهين هي من مقتضيات مقام الربوبيّة.

ما معنى الربّ؟

وقال الراغب الإصفهاني في معنى «الربّ»:

«الربّ في الأصل التربية وهو إنشاء الشيئ حالاً فحالاً إلىٰ حدّ التمام. يقال: ربَّه وربّاه وربّبه... فالربّ مصدرٌ مستعارٌ للفاعل. ولا يقال: الربّ مطلقاً إلا لله تعالىٰ المتكفّل بمصلحة الموجودات... والمتولّي لمصالح العباد»؛(٤)

فعندما يقال: فلانٌ يربّي الطلّاب، فهذا يعني أنه يهتم بتربيتهم، بالإشراف عليهم ورعايتهم في كلِّ مراحل دراستهم حتّىٰ يوصلهم إلىٰ الكمال العلمي والأخلاقي.

---

(١) سورة النساء (٤): الآية ١٧٤.

(٢) سورة يوسف (١٢): الآية ٢٤.

(٣) سورة القصص (٢٨): الآية ٣٢.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ١٨٤.

وعليه، فإنّ الله سبحانه وتعالى، هو الموصل للموجودات إلىٰ مرحلة الكمال، فإنّ كلَّ موجود له نوعاً من الكمال يتناسب مع خلقته، لذا، فإنّ الله تعالىٰ هو ربُّ الموجودات جميعاً.

وبالالتفات إلىٰ معنى «التخصيص» و«البرهان» وإن هذه الكلمة قد اُضيفت إلىٰ كلمة «الربّ»، يتضح لنا معنى عبارة «وَ خَصَّكم بِبَرهانِهِ».

فالمعنى المحصَّل هو: أنَّ الله تعالىٰ قد خصَّ أهل البيت عليهم السّلام بالحجَّة المحكمة التي من خلالها يربّي الموجودات القابلة للرشاد ـ خاصّة الإنسان ـ ويوصلها إلىٰ الكمال، وجعلهم المتولّين لمصالح هذه الموجودات، وتلك الحجّة هي البرهان.

فالأئمّة عليهم السّلام هم وسيلة كمال البشريّة وسائر الموجودات ورشدهم وتعاليهم.

«البرهان» مصداقاً

والآن، نريد أن نرى ما هو مصداق «البرهان» الذي خصَّ الله تعالىٰ الأئمّة عليهم السّلام به.

هل المقصود من البرهان شيئ مُعَيَّن جعله الله في اختيارهم؟ أم أنَّ المقصود مطلق الحجّة المطابقة للواقع؟

وبعبارة أخرى: هل إنَّ البرهان في هذه الجملة عَلَمٌ لشيئ معين؟ أم أنَّ المراد إنَّ الأئمّة عليهم السّلام قد اختصّوا بإقامة الحجّة على العباد بالنحو الذي يقيمُه الباري عزّوجلّ في كلّ مورد؟

فإن كان المراد من البرهان، شيئ خاص ومعين، فما هو ذلك الشيئ؟

من المحتمل أن يكون القرآن المجيد، وإنّ الله تعالىٰ قد خصَّ الأئمّة عليهم السّلام بفهم كلامه الكريم، إذ يمكن التعبير عن القرآن الكريم بـ«البرهان» وأنّه من الجائز تفسير كلمة «برهان» في قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[1] على إنّه القرآن الكريم، فإنَّ القرآن حجّة صادقة مطابقة أبداً مع الواقع ولا تتخلف عنه، وإنّه حجّةٌ وبرهانٌ رسول الله صلّى الله عليه وآله على حقانيّة الإسلام ورسالته، كما إنّه برهان الأئمّة عليهم السّلام على إمامتهم وولايتهم في قبال المخالفين والمنكرين.

وما معنى هذا الإختصاص؟

إنَّ هذا الإختصاص يعني أنَّ كلَّ المعارف، الأسرار، الحقائق، الأحكام، وكلّ الخصائص الكامنة في القرآن الكريم واللّازمة لتربية العباد وإيصالهم إلىٰ الكمالات الحقيقيّة، موجودة عند أهل البيت عليهم السّلام دون سواهم من الخلق.

ويُحتمل أن يكون المراد من «البرهان» الإعجاز. وعليه يكون المعنى: إنّ الله تعالىٰ قد خصَّ الأئمّة عليهم السّلام بالمعاجز اللّازمة للتربية البشريّة وإقامة الحجّة على الناس، لإيصالهم إلىٰ الكمال، وإنّ كلّ واحدة من معجزاتهم الخاصّة، هي حجّة على حقانيّتهم ومصدّقة لما يدعون إليه ومطابقة لما يأمرون به.[2]

---

(١) سورة النساء (٤): الآية ١٧٤.

(٢) راجع: تفسير مجمع البيان ٣/ ٢٥٢؛ تفسير الصافى ١/ ٥٢٥.

ومــن الواضـح إنَّ المـعجزة إنـما يـؤتى بـها فـي مـقام الدعـوة للإيـمان، والهداية،ولغرض الإيصال إلىٰ الكمال المطلوب، والردع عن الإنحراف، وللنجاة من الضلالة.

ومن هنا فإننا نقرأ في قصّة النبي موسى عليه السّلام، بأنَّ الله تعالىٰ قال له:

﴿اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ واضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إلى فِرْعَوْنَ ومَلاَئِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقينَ﴾[1]

والاحتمال الآخر في المراد من «البرهان» أنه «الإسم الأعظم»، والذي اختصَّ به الأئمّة عليهم السّلام، فصار سبباً لأفضليّتهم على جميع العالمين. فقد جاء في بعض الأدعية

«وباسمك الذي جعلته عندهم وبه خـصصتهم دون العـالمين وبـه أبـنتهم وأبنتَ فضلهم من فضل العالمين، حتّىٰ فاق فضلهم فضلَ العالمين جميعاً».

وعلى كلّ تقدير، فإنَّ هذه العبارة في الزيارة الجامعة، من جملة الأدلّة على أفضليّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسـلّم والأئـمّة الأطـهار عـليهم السّـلام، وتقدّمهم على كلّ العالمين.

وَانتَجَبَكم لِنُورِهِ

لقد ذكرنا سابقاً، إنّ الإنتجاب، الإنتخاب، الإختيار، والإصطفاء هي مفاهيم متقاربة جدّاً بعضها من البعض في المعنى، ولكنّها ليست مترادفة. وقد جاء في اللّسان في معنى الإنتجاب:

---

(١) سورة القصص (٢٨): الآية ٣٢.

«والمنتَجَب: المختار من كلّ شيء، وقد انتجب فلانٌ فلاناً، إذا استخلصه وإصطفاه إختياراً على غيره».[١]

فالأئمّة عليهم السّلام المختارون المستخلصون لنور الله عزّوجلّ.

فعندما ينتخب الشخص من بين مجموعة أشخاص لعملٍ مّا، فهذا يعني أنّ هذا الشخص متميّز في هذا العمل عن الآخرين، وأنّ غيره فاقد لهذه الأهليّة، ولكنّ اختيار الله الأئمّة و انتخابهم من بين الخلائق إستخلاص لهم على العالمين. وهذا المعنى نلحظه في قوله تعالىٰ:

﴿قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِين﴾[٢]

فإبليس يُقسم بعزّة الله تعالىٰ بأنه سيضلّ كلّ العباد باستثناء المخلصين، لأنّه يعلم جيّداً عجزه عن إغوائهم، لأن هؤلاء قد أخلصهم الله تعالىٰ لنفسه.

و«الإنتجاب» مأخوذ من «نجْب» بمعنى «الطهارة».

يقال: فلانٌ نجيب. أي: منزهٌ ومبرءٌ من العيوب والنقائص الموجودة في الآخرين.

وبناءاً على نسخة «لنوره» يكون المعنى: إنّ الله تعالىٰ قد اختار الأئمّة عليهم السّلام لحمل نوره، إذ لم يكن لغيرهم من خلائقه القابليّة اللازمة لهذا الشأن العظيم.

ثم إنّ النور ـ وهو كما قالوا: الظاهر بنفسه والمظهر لغيره ـ منه ماديّ، وهو ما يستشعره الإنسان ببصره، ومنه معنويٌ وهو المقصود هنا، ودرك هذا النور يحتاج إلى لبصيرة، وهي غير متوفّرة عند أغلب الناس.

---

(١) لسان العرب ١ / ٧٤٨.

(٢) سورة ص (٣٨): الآيات ٨٢ و ٨٣

وكما سيأتينا في شرح «خلقكم الله أنواراً»، فإنّ الأئمّة عليهم السّلام أنوار، وكلّ حيثياتهم نورانيّة، ولذا، فإنّ كلّ تعاليمهم، نصائحهم، أحكامهم، أفعالهم، تروكهم، أقوالهم، مصدرٌ للهدى ونور للنجاة.

ومن ثَمَّ كان أصل وجودهم حجّة، وكان قولهم وفعلهم وتقريرهم حجّة.

النور، مصداقاً

وبناءً على ما تقدم، فإن الأئمّة عليهم السّلام، هم الحاملون لنورِ الله. ولـ«نور الله» عدّة مصاديق:

فأحدها هو القرآن المجيد. فقد ورد في الكتاب قوله تعالىٰ:

﴿فَالَّذينَ آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّـذي أُنْـزِلَ مَـعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾[١]

والمصداق الآخر هو شخص رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، قال تعالىٰ:

﴿وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وسِراجاً مُنيراً﴾[٢]

فإن السراج المنير في هذه الآية هو رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.[٣]

وقال تعالى:

﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وكِتابٌ مُبينٌ﴾[٤]

---

(١) سورة الاعراف (٧): الآية ١٥٧.

(٢) سورة الاحزاب (٣٣): الآية ٤٦.

(٣) راجع: شرح الاخبار ٣ / ٤١٨؛ الامالي: الشيخ الطوسي: ٥٢٦؛ المناقب: ابن شهر آشوب ١ / ١٣١؛ بحار الأنوار ٧٤ / ٧٤؛ تفسير التبيان ٨ / ٣٤٩؛ تفسير مجمع البيان ٨ / ١٦٨؛ زاد المسير ٦ / ٢٠٦.

(٤) سورة المائدة (٥): الآية ١٥.

قال في مجمع البيان:

«قد جاءكم من الله نور. يعني بالنور محمداً صلّى الله عليه وآله، لأنّه يهتدي به الخلق كما يهتدون بالنور، عن قتادة واختاره الزجاج».(١)

وجاء في كتاب معاني القرآن:

«قد جاءكم من الله نور» قيل: نور يعني به النبي صلّى الله عليه و آله و هو تمثيل، لأنّ النور هو الّذي تتبيّن به الأشياء.(٢)

هذا، ومن مصاديق «النور»، العلم. ففي الرواية:

«العلم نورٌ يقذفُهُ الله في قلَب مَن يَشاء».(٣)

وسنقرأ في الزيارة الجامعة:

«كَلَامُكُم نُورٌ».

بين القرآن والعترة

فهل إنّ كلام الأئمّة عليهم السّلام غير كلام الله الذي هو القرآن؟

وهل أنّ الأئمّة عليهم السّلام هم غير القرآن؟

مقتضى الأدلّة عقلاً وكتاباً وسنّةً وخاصّة ما ورد في كتب المخالفين أنّ الأئمّة عليهم السّلام هم القرآن، وأنّ القرآن هو أهل البيت عليهم السّلام.

أمّا ما جاء في الحديث المتواتر من أنّ النبي الأكرم محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم قال:

---

(١) تفسير مجمع البيان ٣ / ٣٠١.

(٢) تفسير معاني القرآن ٢ / ٢٨٤، الحديث ٥٢.

(٣) مستدرك سفينة البحار ٨ / ٣٠٥؛ المسترشد: ٩؛ مصباح الشريعة: ١٦.

«علي مع القرآن والقرآن مع علي لا يفترقان».(١)

وأمّا حديث الثقلين المعروف، والذي يقول فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«كتاب الله وعترتي أهل بيتي».(٢)

فظاهرهما القِران بين الأئمّة عليهم السّلام والقرآن الكريم وأنّ كلّاً منهما عدلٌ للآخر...

ولكن المطلب أعمق من هذا، فالأئمّة عليهم السّلام هم القرآن الناطق وإنّ كتاب الله هو القرآن الصّادق. فقد ورد في حديث لأمير المؤمنين علي عليه السّلام، يقول فيه:

«هذا كتاب الله الصّادق وأنا كتاب الله الناطق».(٣)

وما تقتضيه آية المباهلة هو أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام واجد لكلّ كمالات رسول الله صلّى الله عليه وآله ـ ماخلا النبوّة ـ وأنه نفسه من كلّ الجهات.

وقال نظام الدين النيشابوري في تفسيره، ذيل الآية المباركة:

﴿وَكيفَ تَكفُرُونَ وَأَنتُم تُتلى عَلَيكم آياتُ اللهِ وَفيكم رَسُولُهُ﴾(٤)

وكيف تكفرون: إستفهام بطريق الإنكار و التعجّب، والمعنى: من أين يتطرّق

---

(١) راجع ١ / ٤١١ من هذا الكتاب.

(٢) هذا حديث الثقلين المتواتر الذي ذكرناه مراراً.

(٣) بحار الأنوار ٨٩ / ٤٩، الحديث ٨ نقلاً عن تفسير القمّي ٢ / ٦٢٠؛ العمدة: ٣٣٠؛ وسائل الشيعة ٢٧ / ٣٤، باب ٥ من أبواب صفات القاضي، الحديث ١٢؛ تاريخ الطبري ٥ / ٦٦؛ تذكرة الخواص: ٩٦.

(٤) سورة آل عمران (٣): الآية ١٠١.

إليكم الكفر، والحال أنّ آيات الله تتلى عليكم على لسان الرّسول صلّى الله عليه وآله غضة في كلّ واقعة، وبين أظهركم رسول يبيّن لكم كلّ شبهة و يزيح عنكم كلّ علّة....

قلت: أمّا الكتاب، فإنّه باق على وجه الدّهر، وأمّا النّبي صلّى الله عليه و آله فإنّه وإن كان قد مضى إلىٰ رحمة الله في الظاهر، ولكنَّ نور سرّه باق بين المؤمنين فكأنّه باق، على أنّ عترته عليهم السّلام ورثته يقومون مقامه بحسب الظّاهر أيضاً، ولذا قال: «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين»[١]

وهل الأئمّة عليهم السّلام إلّا العلم؟

إنّ حياتهم كلّها وكلَّ ما سُمِعَ وشوهِد منهم عليهم السّلام، هو علمٌ ونورٌ، ولا مجال للظلمة والجهل في سيرتهم؛ فَهُمْ، العلم والنور.

ولذا نقرأ في زيارة صاحب الزمان عليه السّلام والمعروفة بزيارة آل يس:

«السلامُ عليك أيُّها العَلَمُ المنصوبُ والعِلمُ المصبوبُ».[٢]

فالحاصل، إنَّ الأئمّة عليهم السّلام نورٌ، وبهم يهتدىٰ إلى الله، وكلّ مصاديق النور المضافة إلىٰ الله تعالىٰ، متوفرة فيهم؛ وهذا إنما كان بانتخاب الله وإرادته، وليس في هذا الاعتقاد أي شائبة للغلوّ.

وأمّا بناءاً على قراءة «وإنتجبكم بنوره»، فالظاهر أنَّ «الباء» سببيّة، وأنّ المراد من «النور» هو «العلم»، فيكون الباري عزّوجلّ وبسبب علمه بالذوات المقدسة، إنتجب الأئمّة عليهم السّلام وإنتخبهم وخصّهم لنفسه

---

(١) غرائب القرآن ١ / ٣٤٧.

(٢) الاحتجاج ٢ / ٣١٦؛ بحار الأنوار ٥٣ / ١٧١.

وَأَيَّدَكُم بِرُوحِهِ

«التأييد» في اللغة

والتأييد في اللغة، مأخوذ من مادّة «أيْد» بمعنى القوّة الشديدة.

يقول الراغب الإصفهاني:

«أيّد: قال الله عزّوجلّ: ﴿أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُس﴾[١] فعلت من الأيد أي القوّة الشديدة. وقال تعالىٰ: ﴿وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاء﴾[٢] أي: يكثر تأييده»[٣]

هذا، وقد استعمل هذا المصطلح في عدّة مرّات في القرآن الكريم. منها قوله تعالىٰ:

﴿وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاء﴾

وفي آية أخرى، يقول عزّوجلّ:

﴿هُوَ الَّذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنين﴾[٤]

ويقول في آية ثالثة:

﴿فَأَيَّدْنَا الَّذينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرين﴾[٥]

ففي هذه الآية تصريح بأنَّ الله تعالىٰ يؤيد المؤمنين بقوة شديدة تجعلهم يفوزون بالنصر والغلبة والظهور على أعدائهم. وبطبيعة الحال، فإنَّ للغلبة مصاديق مختلفة بحسب اختلاف الميادين.

---

(١) سورة المائدة (٥): الآية ١١٠.

(٢) سورة آل عمران (٣): الآية ١٣.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٣٠.

(٤) سورة الأنفال (٨): الآية ٦٢.

(٥) سورة الصف (٦١): الاية ١٤.

فالغلبة في ميدان الحرب والقتال تحصل بالقوّة البدنيّة وباستخدام الأسلحة، والغلبة في ميدان الحوار والمناظرة والجدل، تتحقق بالقدرة العلميّة.

وكذلك تختلف كيفيّات التأييد الإلهي بحسب الموارد والحالات.

فتارة نجد أن الله تعالىٰ يؤيد بالوسائط الظاهريّة والقوّة القتالية الشديدة، لتحصيل الغلبة. ومنه قوله تعالىٰ:

﴿هُوَ الَّذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنين﴾[١]

ففي هذه الآية، عُطفت كلمة «بالمؤمنين» على «بنصره» و«الباء» في الكلمتين، سببية. يقول الراغب الإصفهاني:

«النصر والنصرة: العون».[٢]

ولكن وَرد في الدعاء لإمام العصر والزمان عجَّل الله تعالىٰ فرجه الشريف: «وَ أيِّدْهُ بِالنَّصر»

ويبدو أنَّ المقصود هنا، الإمداد الغيبي بالملائكة وغيرها.

أنحاء التأييد الإلهي

وعلى كلّ تقدير، فإنَّ الله عزّوجلّ قد أيّد رسوله الكريم محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم وأمدَّه بالقوّة ليحصل على الغلبة والنصر.

وأمّا كلمة «بالمؤمنين» إلىٰ جنب كلمة «بنصره»، فهي إشارة إلىٰ دور المؤمنين في هذه الغلبة والظهور، ولأنَّ «الباء» سببية كما قرّرناه، فسيكون المعنى: إنّ الله

---

(١) سورة الأنفال (٨): الآية ٦٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٤٩٥.

تعالىٰ نصر نبيّه بسبب المؤمنين والمراد ـ بحسب الأحاديث الواردة في تفسير الآية ـ هو خصوص الإمام علي عليه الصّلاة و السّلام.

فيمكن إذن، الاستدلال بهذه الآية الشريفة على بطلان قول من يزعمون إنّ الإستعانة بغير الله شرك، لأنها ظاهرة في إستعانة الرسول بالخلق لتحصيل الغلبة وإنتصار الإسلام على أعدائه.

وخلاصة الكلام هي: إنّ التأييد تارة: يكون بالوسائل الظاهريّة، وأخرى: بالوسائل الغيبيّة. يقول عزّوجلّ في الكتاب الكريم:

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها﴾؛[١]

ففي هذه الآية، كان التأييد الإلهي غيبياً، أي بقوىً غير مرئيّة، وهي الملائكة، كما جاء في التفاسير.[٢] وكذلك الكلام في الآيات الكريمة التي تتحدث عن وقعة بدل الكبرى وحرب حنين، حيث ورد التصريح فيها بنزول الملائكة لنصرة رسول الله صلّى الله عليه وآله.[٣]

ولكن، ورد في غيرموضع من القرآن الكريم، التأييد الغيبي بخصوص «الروح»، وإنّ الله تعالىٰ نصر نبيّه محمداً صلى الله عليه وآله والمسلمين بواسطة الروح حتّىٰ غلبوا على عدوّهم غير أنّ التعبير يختلف:

ففي مورد منها قال تعالىٰ:

﴿أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْه﴾؛[٤]

---

(١) سورة التوبة (٩): الآية ٤٠.

(٢) راجع: الكافي ٨ / ٣٧٨، الحديث ٥٧١.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السّلام ١ / ٢٠٧؛ المسترشد: ٤٣٦.

(٤) سورة المجادلة (٥٨): الآية ٢٢.

وفي موضع آخر يقول تعالىٰ:

﴿أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُس﴾؛[١]

فكان روح القدس، وسيلة التأييد لرسول الله صلّى الله عليه وآله للغلبة. كماكان روح القدس ينزل على النبي صلّىالله عليه وآله بأمور تتعلّق بالرسالة. يقول تعالىٰ:

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذينَ آمَنُوا﴾؛[٢]

وهذا في واقع الأمر، مقامٌ خاصٌّ، فإنه إنْ أُريد بروح القدس أحد الملائكة ـكما هو الظاهر ـ فلابدّ أن يكون لهذا الملك شأن خاصّ وموقع متميّز في طاقم الإدارة الربوبيّة.

ونقرأ في آية أخرى قوله تعالىٰ:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمينُ * عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرين﴾؛[٣]

فهل هو ملكٌ واحد يوصف تارة بالقدس وأخرى بالأمين؟

إنّ هذا الأمر يحتاج إلىٰ تحقيق أوسع.

وفي كتاب «بصائر الدرجات»، بابان عُقِدا في هذا الشأن، جاء فيهما بعض الأحاديث الواردة في هذا المعنى. ومن ذلك مارواه عن جابر قال:

سألت الإمام الباقر عليه السّلام عن «العلم» فقال:

«يا جابر، إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس وروح

---

(١) سورة البقرة (٢): الآية ٨٧

(٢) سورة النحل (١٦): الآية ١٠٢.

(٣) سورة الشعراء (٢٦): الآيتان ١٩٣ و ١٩٤.

الإيمان وروح الحياة وروح القدرة وروح الشهوة. فروح القدس ـ يا جابر ـ علّمنا ما تحت العرش إلىٰ ما تحت الثرى...»؛[١]

وظاهر هذه الرواية هو إنّ «روح القدس» إسم روحٍ من أرواح الأنبياء أو الأوصياء.

وفي رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السّلام قال:

«إنّ الأوصياء محدَّثون، يحدّثهم روح القدس ولا يرونه، وكان علي عليه السّلام يعرض على روح القدس ما يُسئل عنه، فيوجس في نفسه أن قد أصبت بالجواب فيخبر، فيكون كما قال».[٢]

وروى سماعة بن مهران قال: سمعت الإمام الصّادق عليه السّلام يقول:

«إن الروح خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يسدّده ويرشده، وهو مع الأئمّة والأوصياء من بعده»[٣]

وظاهر هذه الروايات هو أنّ «روح القدس» من جنس الملائكة، وأنّ له مقاماً خاصاً ومتميّزاً.

ومن جهة أخرى، يقول تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ﴾[٤]

والظّاهر أنه من عطف الخاصّ على العام.

---

(١) بصائر الدرجات: ٤٦٧، الحديث ٤، باب ما جعل الله في الأنبياء والأوصياء والمؤمنين وسائر الناس من الأرواح...؛ بحار الأنوار ٢٥ / ٥٥، الحديث ١٥. جاء في هذا المصدر بدلاً من كلمة «علّمناه»، كلمة «عرفوا».

(٢) بصائر الدرجات: ٤٧٣، الحديث ٩، باب في الأئمّة عليهم السّلام إنّ روح القدس يتلقّاهم إذا احتاجوا إليه ؛ بحار الأنوار ٢٥ / ٥٧، الحديث ٢٤.

(٣) بصائر الدرجات: ٤٧٦، الحديث ٤ و ٥؛ بحار الأنوار ١٨ / ٢٦٧، الحديث ٢٥ و ٢٨ / ٦٠، الحديث ٣١.

(٤) سورة القدر (٩٧): الآية ٤.

ولكن، جاء في القرآن الكريم ما يتضمّنُ إضافة «الروح» إلىٰ الله تعالىٰ، وهذه الإضافة تارة تكون مع واسطة مثل قوله:

﴿أُولئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ الْإيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْه﴾[١]

وتارة تكون الإضافة مباشرة إلىٰ الله تعالىٰ، مثل قوله تعالىٰ:

﴿فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا﴾[٢]

وحينئذ، لابدّ من التحقيق في إنّ «الروح» في هاتين الآيتين واحدة أم متعددة؟ وهل إنّها نفس «روح القدس» أم لا؟

هذا، وفي الزيارة الجامعة «وأيّدكم بروحه» لا «أيّدكم بروح منه» ولا «أيّدكم بروح القدس» أو «الروح الأمين».

فهذه التعبيرات القرآنيّة المباركة، تحتاج إلىٰ بحث وتحقيق أكثر في الموضع المناسب لذلك، وهل إنّ إضافة «الروح» إلىٰ الله تعالىٰ أو إلىٰ الضمير، تؤثر في المعنى وتجعله مختلفاً أم لا؟

والقدر المسلّم هو إنّ الأئمّة عليهم السّلام مؤيّدون بذلك الملك العظيم المقرّب، وقد صرّحت الروايات بهذا المعنى، كما جاء في كتاب بصائر الدرجات وكتاب أصول الكافي.[٣]

وقد ورد في نهج البلاغة أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام قال في وصفه لرسول الله صلّى الله عليه وآله:

---

(١) سورة المجادلة (٥٨): الآية ٢٢.

(٢) سورة مريم (١٩): الآية ١٧.

(٣) بصائر الدرجات: ٤٧١ ـ ٤٧٦؛ الكافي ١ / ٢٧١ ـ ٢٧٤.

«ولقد قرن الله به صلّى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره، ولقد كنت أتّبعه إتّباع الفصيل أثر أمّه، يرفع لي في كلّ يومٍ من أخلاقه علماً ويأمرني بالإقتداء به».(١)

وبتعبير آخر، فإنّ إدارة شؤون رسول الله صلّى الله عليه وآله ومنذ بداية حياته كانت بيد هذا الملك، الذي هو من أعظم الملائكة، وهذا لا ينافي إختياريّة رسول الله صلّى الله عليه وآله، فإنّ حركاته وسكناته وأفعاله وأقواله الإختياريّة كانت بتسديد هذا الملك.

مضافاً إلىٰ ما جاء في الكافي في ذيل قوله تعالىٰ:

﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْري مَا الْكِتابُ وَلاَ الْإيمان﴾(٢): من قوله عليه السّلام:

«خلقٌ من خلق الله عزّوجلّ، أعظم من جبرئيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلّى الله عليه وآله يخبره ويسدّده وهو مع الأئمّة من بعده»(٣)

فهذه الرواية صريحة في أنّ ذلك الملك الموكّل بحفظ رسول الله صلّى الله عليه وآله وتسديده، هو نفسه الموكّل بحفظ الأئمّة عليهم السّلام من بعده، وتسديدهم.

وهذا المقام ـ وهو وجود روح القدس مع الأئمة المؤيد والمسدّد لهم ـ لم يحصل بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله إلّا لأئمة أهل البيت الطاهرين عليهم السّلام. وسيأتي إن شاء الله تفصيل الكلام في هذا الشأن عندما نبحث في الولاية وأقسامها.

---

(١) نهج البلاغة ٢ / ١٥٧ (في ضمن خطبة القاصعة)؛ بحار الأنوار ١٤ / ٤٧٥. جاء فيه: «علّمناه من أخلاقه».

(٢) سورة الشورى (٤٢): الآية ٥٢.

(٣) الكافي ١ / ٢٧٣، الحديث ١؛ بحار الأنوار ١٨ / ٢٦٤، الحديث ٢٢.

وَرَضِيَكُم خُلَفاءَ في أَرضِهِ

لو تأملنا قليلاً في هذه العبارة وتعمّقنا بها، فسنجد أنّها تتضمّن مطالب كثيرة.

إنَّ الخلافة تعني النيابة والقائم مقاميّة، والإستخلاف إنما يكون لملأ الفراغ الحاصل من غياب المستخلِف، بالمستَخلَف.

يقول الراغب الإصفهاني في معنى «الخليفة» لغَةً:

«والخلافة: النيابة عن الغير إمّا لغيبة المنوب عنهُ وإمّا لموته وإمّا لعجزه وإمّا لتشريف المستَخلَف...».(١)

الخلافة في القرآن واللّغة

إنه لمّا خلق الله تعالىٰ سيدنا آدم عليه السّلام وأراد أنْ يسكنه الأرض بدلاً عن الجنّ ـ فقد قيل إنّ الجنّ كانوا يعيشون على وجه الأرض ـ عبّر عن هذا المخلوق الجديد بـ«الخليفة».

يقول القرآن الكريم في هذا الشأن:

﴿وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَليفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾(٢)

ولمّا أغرق الله تعالىٰ قوم نوح في الطوفان، وخُلِيَتْ الأرض من البشر، وصف الذين جاءوا بعد قوم نوح بـ«الخلفاء».

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ١٥٦.

(٢) سورة البقرة (٢): الاية ٣٠.

يقول تعالىٰ:

﴿وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوح﴾[١]

أي: لقد حصل فراغ في الأرض بعد قوم نوح، فجئتم أنتم لملء الفراغ، ونحن قادرون عليكم كما قدرنا على قوم نوح.

وفي آية آخرى ـ وفي معرض بيان أحوال قوم عاد وكيف إنّ الله تعالىٰ أهلكهم جميعاً ولم تبق لهم باقية ـ عبّر تعالى عمّن جاء بعدهم بالخلفاء، وأنذرهم عاقبة أمرهم، فقال عزّوجلّ:

﴿وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْض﴾[٢]

وكذا قوله تعالىٰ في قصّة فرعون:

﴿وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾[٣]

فعبّر القرآن الكريم في هذه الموارد عن الناس الذين جاءوا بعد أقوامٍ إنقرضوا، بالخلفاء والخلائف.

هذا هو المعنى اللّغوي للخليفة.

وفي هذه الموارد لايسجّل للخلفاء مدح ولا ذم.

معنى خلافة الله

وأمّا في: «ورضيكم خلفاء في أرضه» فمن الواضح وجود الفضيلة بل الأفضليّة، بل هو مقام لا بدانيه مقام، إنّه خلافة الله في أرضه.

---

(١) سورة الأعراف (٧): الآية ٦٩.

(٢) سورة الأعراف (٧): الآية ٧٤.

(٣) سورة يونس (١٠): الآية ٧٣.

ولابدّ لفهم هذه العبارة من بيان حقيقة الخلافة بصورةٍ عامّة، وذلك: إنّه يعتبر في خلافة شخصٍ عن آخر، أي قيامه مقامه بعد تعيينهما من ثلاثة امور:

الأوّل: الدليل عليها من قِبَل المستخلَف.

والثاني: وجود المناسبة بين الخليفة والمستخلَف.

والثالث: العلم بجهة الخلافة وحدودها.

فنقول: إنّ الله تعالىٰ جامع لجميع الكمالات، ولذا فإنّ الأئمّة عليهم السّلام لابدَّ أن يكونوا واجدين لكلّ صفات الكمال الإلهي وبحدِّ عالم الإمكان.

كما إنّ هذا الإستخلاف، إنما كان بإرادةٍ وجعلٍ إلهي، والأدلّة على ذلك لاتحصىٰ.

وأمّا جهتها وحدودها، فهي أنَّ الأئمّة عليهم السّلام يقومون بالأفعال الإلهيّة في العالم، بحدود الإمكان؛ وهذا مقامٌ عظيم أُعطي للأئمّة عليهم السّلام من قِبَل الله تعالىٰ.

وواضح أنّ هذا المقام لم يصل إلىٰ الفعليّة بنحو كاملٍ في هذا العالم، فإنّ الأعداء منعوا بسط يد الأئمّة وحالوا دون نفوذ كلمة خلفاء الرسول على ما أراده الله تعالىٰ، ولكنّ الوعد الإلهي بفعليّة هذا الإستخلاف سيتحقق في زمن الإمام المهدي عليه السّلام إن شاء الله، وإليه يشير قوله تعالىٰ:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً...﴾(١)

---

(١) سورة النور (٢٤): الآية ٥٥.

ولمعرفة التفاصيل راجعوا وتأملوا الروايات التي أوردها الكليني في الكافي تحت عنوان: «باب أنَّ الأئمّة خلفاء الله»[١]

ولم يصل هذا الإستخلاف إلىٰ حدِّ الفعليّة عند الأنبياء إلّا في زمن النبي داود عليه السّلام. قال تعالىٰ:

﴿يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَليفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَق﴾[٢]

وبالتأمل في الآية يظهر لنا أنَّ هذه الخلافة الممنوحة لداود عليه السّلام:

١ ـ كانت من قِبَل الله تعالىٰ بجعلٍ منه.

٢ ـ إنّها خلافة الله.

٣ ـ إنَّها مطلقة وغير مقيّدة بجهة خاصّة وحيثيّة معيَّنة.

٤ ـ بعد أن تقرّرت الخلافة، فُرِّع عليها:

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَق﴾

وبحثُنا في هذه المرحلة، هو في ثبوت أصل هذاالمقام للأئمّة عليهم الصّلاة والسّلام.

إنّ خلافة الأئمّة عليهم السّلام هي بجعل الله تعالىٰ لا غيره. وحتّى رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يكن له دور في خلافتهم، سوى التبليغ إلى الأُمّة وإنما هو تنصيب وجعلٌ إلهي.

وهنا لابدّ من بيان مطلبين:

الأول: ليس من حقِّ الناس التدخّل في تعيين الخليفة ونصبه.

---

(١) الكافي ١ / ١٩٣ و ١٩٤، الحديث ١ و ٢ و ٣.

(٢) سورة ص (٣٨) الآية: ٢٦.

الثاني: قد ورد في بعض الكتب إنَّ الخلافة صارت موروثة وإن رسول الله صلّى الله عليه وآله قد جعلها في أولاده !!!

كلّا، إنَّ القضيّة ليست بيد النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ومن جهة أخرى، فإنّ الخلافة خلافة الله عزّوجلّ والتي هي بمعنى القائم مقاميّة؛ فالأئمّة عليهم السّلام هم خلفاء الله تعالىٰ بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

فالله عزّوجلّ ليس جسماً، ولا سنخيّة بين الذات الإلهيّة المقدسّة ومخلوقاته على الإطلاق؛ فلا يمكن أن يحكمهم جلَّ وعلا بشكل مباشر، ولذا، فإنّه قال لداود: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَق**﴾.

وفي مباحثنا الكلاميّة، إستفدنا من هذه الآية بأنَّ الخلافة غير الحكومة ـ وأنَّ من الخطأ أن يتصوّر البعض بأنَّ الخلافة والحكومة مترادفان !! لأنّ الحكومة إنّما هي شأن من شئون الخلافة، فقد يكون الخليفة بلا حكومة، وقد يسجن الخليفة لسنوات عديدة، وقد يغيب عن أعين الناس قروناً.

فالحكومة الحقّة في الأرض، هي للخليفة الحقّ، المنصوب من قبل الله تعالىٰ لهداية الخلق.

وبعبارة أخرى، لو كان الله تعالىٰ جسماً ـ تعالىٰ الله عن ذلك ـ وأراد أن يحكم في الأرض عمليّاً، لفعل ذلك. ولكنْ، لأنّه ليس بجسم، ولأن الأرض بحاجة إلىٰ حاكم يحكمها، جعل هذا المقام على عهدة أشخاص توفّرت فيهم الأهليّة للإستخلاف الإلهي، ليقوموا بالأمر نيابة عنه تعالىٰ.

وهذا المعنى أو ما يقاربه جاء في إحدى فقرات إستئذان دخول المشاهد

الطّاهرة والعتبات المقدسة، فسواء كان هذا المتن معتبراً من حيث السند أم لم يكن كذلك، فإنّ الدلائل على حقيّة مضمونه كثيرة، فقد جاء فيه:

«اللّهم إنّ هذه بقعةٌ طهّرتها وعَقوَةٌ شرّفتها ومعالم زكّيتها، حيث أظهرت فيها أدلَّة التوحيد وأشباح العرشِ المجيد الّذين إصطفيتهم ملوكاً لحفظ النّظام واخترتهم رؤساء لجميع الأنام، وبعثتهم لقيام القسط في إبتداء الوجود إلىٰ يوم القيامة. ثمّ مننت عليهم باستنابة أنبيائك لحفظ شرائعك وأحكامك، فأكملت باستخلافهم رسالة المنذرين كما أوجبتَ رياستهم في فطر المكلّفين، فسبحانك من إلهٍ ما أرأفك ولا إله إلّا أنت من ملك ما أعدلك»

فالمراد من «أشباح» العرش المجيد، هو الأئمّة عليهم السّلام. والمراد من «الملوك» هو الحكّام المعنيّون بحفظ النظام. فهذا هو مقتضى العدل الإلهي، فإنه لمّا تعالىٰ عزّوجلّ عن الجسميّة واستحال تصدّيه بنفسه للحكم، لزم أن يجعل أحداً يكون خليفةً له ليقوم بذلك.

ونقرأ في إدامة الاستئذان:

«حيث طابق صُنعُك ما فطرت عليه العقول ووافق حكمُك ما قرَّرتهُ في المعقول والمنقول، فلك الحمد على تقديرك الحسن الجميل، ولك الشكر على قضائك المعلّل بأكملِ التعليل. فسبحان من لا يسئلُ عن فعله ولا ينازع في أمره، وسبحان من كتب على نفسه الرحمة قبل ابتداء خلقه»

وكلّ هذه المعاني ثابتة بالبرهان.

ثم نقرأ بعد ذلك:

«والحَمدُ لله الّذي منَّ عَلَينَا بِحُكام يَقومونَ مقامَه لَو كانَ حاضراً في المَكان»

فلو كان الله تعالىٰ جسماً، فماذا كان يفعل؟

كان سيجلس على عرش الحكم والرئاسة ويُديرُ أُمور العباد والموجودات والمخلوقات بنفسه مباشرةً؛ ولمّا كان هذا مستحيلاً، لأنه تعالىٰ عن الجسميّة، كان لابدَّ من تنصيب أحدٍ في مقامه.

ثم نقرأ بعد ذلك:

«ولا إله إلّا الله الّذي شَرَّفنا بأوصياءَ يحفظون الشرايع في كلِّ الأزمان، والله أكبر الذي أظهرهم لنا بمعجزاتٍ يعجز عنها الثقلان، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم الذي أجرانا على عوائده الجميلة في الأمم السّالفين.

اللهم فلك الحمد والثناء العلي كما وجب لوجهك البقاءُ السرمدي وكما جعلت نبيّنا خير النبيّين وملوكنا أفضل المخلوقين وإخترتهم على علمٍ على العالمين، وفّقنا للسّعي إلىٰ أبوابهم العامرة إلىٰ يوم الدين، وإجعل أرواحنا تحِنُّ إلىٰ مَوطنِ أقدامهم ونفوسنا تهوي النّظر إلىٰ مجالسهم وعرصاتهم حتّىٰ كأنّنا نخاطبهم في حضور أشخاصهم.

فصلّى الله عليهم من سادةٍ غائبين ومن سلالةٍ طاهرين ومن أئمّة معصومين.

اللهم فأذن لي بدخول هذه العرصات التي إستعبدت بزيارتها أهل الأرضين والسماوات، وأرسل دُموعنا بخشوع المهابة وذَلِّل جوارحنا بذُلِّ العبوديّةِ وفرض الطاعة، حتّىٰ نقرَّ بما يجب لهم من الأوصاف ونعترف بأنّهم شفعاء الخلائق إذا نصب الموازين في يوم الأعراف، والحمد لله وسلامٌ على عباده الّذين إصطفى محمّدٍ وآله الطاهرين»[١]

---

(١) بحار الأنوار ٩٩/ ١١٥ و١١٦.

ما هو الرضا؟

ثمَّ ما معنى كلمة الرّضا؟

الرضا: ضدُّ السّخط،[١] كما أنّ الرحمة ضدُّ الغضب.

فالله عزّوجلّ قد رضي بأنْ يكون الأئمّة الأطهار عليهم السّلام خلفاءه في الأرض. أي: إنّه تعالىٰ إختارهم لهذه المهمّة، ولا يوجد أي درجة من السّخط عليهم وعلى مقامهم، ولن يوجد.

وبعبارة أخرى، إنّ الله تعالىٰ كان قد رضي من بداية الأمر على استخلاف الأئمّة على الأرض، ولم يكن في هذا الأمر أي سخط، ولم يصدر عنهم ما يوجب السّخط بتاتاً.

ويلزم القول هنا، إنَّ الإرتضاء هو الاختيار، بفارق واحد بين الكلمتين، وهو: إنّ الإرتضاء هو اختيار مقترن بعدم السّخط مطلقاً، أي لم يصدر من المختار ـ بمعنى إسم المفعول ـ ما يوجب سخط المختار ـ بمعنى اسم الفاعل ـ أبداً.

ومن هنا يقول الراغب الإصفهاني في كتابه المفردات في غريب القرآن:

«رضا الله عن العبد هو أن يراهُ مؤتمراً لأمره ومنتهياً عن نهيه»[٢]

فالعبد المرتضى هو العبد الذي توافق حركاته وسكناته، أقواله وأفعاله، إرتكابه واجتنابه وكلُّ شؤونه، رضا المولى، فلا يأتي بما يوجب سخطه.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢ / ٤٠٢؛ لسان العرب ١٤ / ٣٢٣؛ تاج العروس ١٠ / ١٥١.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ١٩٧؛ تاج العروس ١٠ / ١٥١.

وَحُجَجاً على بَرِيَّتِهِ

ما معنى الحجّة؟

وإنّ مفهوم «الحجّة» في اللّغة ـ خاصّة لغة القرآن الكريم ـ دقيق وظريف. قال الراغب الإصفهاني:

«والحجّة: الدلالة المبيّنة للمحجّة، أي المقصد المستقيم والذي يقتضي صحة أحد النقيضين».[١]

إذن، فالحجّة هي الدّلالة على الطريق المستقيم بنحو واضح وبلا شبهة، فعلاً أو تركاً.

وقد وردت هذه الكلمة مراراً في القرآن الكريم. يقول تعالى:

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَة﴾[٢]

وفي آية أخرى:

﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل﴾[٣]

فالله سبحانه وتعالى جعل الأئمّة عليهم السّلام دليلاً قاطعاً، ورضيهم أن يبيّنوا الطريق المستقيم نحوه بعد رُسُله.

معنى البَريَّة

وقال الراغب الإصفهاني في مصطلح البريّة:

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ١٠٧.

(٢) سورة الأنعام (٦): الآية ١٤٩.

(٣) سورة النساء (٤): الآية ١٦٥.

«البَريّة: الخلق»[١]

ومن الواضح، إنَّ مطلق الخلق ليس هو المراد من هذه الكلمة، وإنّما الخلق الذي يحتّج عليه والمحتاج إلىٰ الحجّة.

و«البريّة» يمكن أن تتصف بالفضائل، كما يمكن اتصافها بالرذائل.

يقول تعالىٰ:

﴿أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّة﴾[٢]

وفي آية أخرى يقول عزّوجلّ:

﴿أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّة﴾[٣]

فهذه الكلمة ـ إذن ـ مطلقةٌ من جهة، ومقيّدة من جهة أخرى.

وعليه، فإنّ الله تعالىٰ إختار الأئمّة عليهم السّلام وجعلهم حججاً بينَه وبين خلقه، صالحهم وغير صالحِهِمْ، ليهتدي بهم من يحتاج إلىٰ دليل للهداية، ولتتميم الحجّة على الجميع.

إنَّ الله تعالىٰ خلق الخلائق، وهذا الخلق لم يكن عبثاً ـ حاشا لله ـ وإنَّما كان لهدف وغاية، وهي الكمال الذي ينبغي على كلّ أفراد البشر طيّ طريقه للوصول إلىٰ الغاية.

وهذا الطريق الذي ينبغي على الجميع سلوكه، هو الذي عُبِّرَ عنه بـ «الصراط المستقيم». فعلى الإنسان أن يخطو الخطوات اللّازمة في هذا الطريق ليصل إلىٰ المقصد، ولا شك في حاجة الإنسان إلىٰ دليل ومرشد في سيرهِ هذا، وذلك:

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٤٥.

(٢) سورة البيّنة (٩٨): الآية ٧.

(٣) سورة البيّنة (٩٨): الآية ٦.

أولاً: لكي لا يشتبه في تعيين الطريق.

ثانياً: حتّىٰ على فرض عدم إنحرافه عن الطريق المستقيم، لكنّه قد يواجه بعض العقبات والمعوّقات في طيّه لهذا الطريق، فيحتاج إلىٰ الإرشاد للنجاة.

فالإنسان ـ إذن ـ يحتاج إلىٰ الدليل في أصل حركته وسيره وبداية مسيره، كما ويحتاج إلىٰ هذا الدليل في استمراريّة الحركة.

وبعبارة أخرى، إنّ هذه الحركة تحتاج إلىٰ الدليل والمرشد، حدوثاً وبقاءاً.

ومن هنا، قرأنا في الفقرات السّابقة «والأدلّاء على مرضاة الله».

والأئمّة المعصومون عليهم السّلام هم الهداة إلىٰ صراط الله، في أصل سير العباد وفي دوام حركتهم، الصراط الذي ينتهى إلىٰ الكمال والقرب الإلهي والرضوان الأكبر، فلقد إختارهم الله وجعلهم أدلّاء ولم يختر غيرهم من بين العالمين، وإرتضى دلالتهم للبريّة ولم يرض بغيرهم لأن يكون دليلاً إليه، فليس لناأن نتّخذ غيرهم أدلّاء على الطريق الموصل إلى الله، لأنّ الأمر ليس بيد أحدٍ سواه، و لأن هذا الطريق هو الطريق إلىٰ الله، والله تعالىٰ هو الذي يعيِّن الدليل لطريقه.

الكمال المطلوب

وأيضاً، فإنّه لاينال القرب من الله وتحصيل رضاه إلّا أهل الكمال، ولايتحقق الكمال الذي هو الغرض من الخلقة إلّا لمن بلغ الكمال في جميع أبعاد وجوده، لأنّ الكمال في بُعدٍ دون بعدٍ ليس بالكمال المطلوب المحقّق للغرض المذكور، والإنسان ذو أبعادٍ ثلاثة كما ذكرنا غيرمرّة:

البعد الفكري العقيدي، فإن على الإنسان أن يبلغ الكمال في هذا البعد،

بأنْ يفكر بشكل صحيح، وأن يتمسك بالمعتقدات الصحيحة الخالية من الإنحراف، وأن يكون راسخاً في أُصول الدين، فإنّ أحد أبعاد وجود الإنسان، بل أهمّها هو العقيدة.

والبعد الآخر هو الكمال في الأعمال. والإنسان إنَّما يصل إلىٰ الكمال العملي فيما لو تعبّد بأحكام المولى بنحو كامل، بأنْ يكون عبداً صالحاً، يطيع مولاه فيما يأمر به وينهاه عنه، بل يكون منقاداً لسيّده في كلّ الأفعال والتروك، انقياداً تامّاً. وهذا هو الكمال فيما يتعلّق بالجوارح.

والبعد الثالث في الكمال، هو البعدُ النفساني، بأنْ يهذّب نفسه من الصّفات القبيحة ويتحلّى بالأخلاق والآداب الجميلة الحسنة عند العقل والشرّع.

فقد لا يكون الإنسان من حيث البعد العقائدي، والفكري، منحرفاً، فتفكيره ومعتقده صحيحان، وكذا من حيث البعد العملي يكون ملتزماً بالإمتثال لكلّ الأوامر والنواهي، بل وحتى المكروهات والمستحبات، ولكنّه لم يصل إلىٰ الكمال النفساني الأخلاقي، كأن يكون بخيلاً أو حسوداً، أو متكبراً، فهو غير متزيّن بالصّفات الحسنة، وغير منزّه عن الصّفات السيّئة، فمثل هذا الكمال، كمالٌ ناقص، وليس هو الهدف من الخلقة.

فالإنسان، إنّما يكون كاملاً فيما لو وصل إلىٰ الكمال بجميع جهاته، ولذا، فإنّ على الإنسان تهذيب وتزكية نفسه، وتنزيهها عن الصفات القبيحة، وتزيينها بالصّفات الحسنة، ويصحّح عقيدته على أساس النقل والعقل ويكون مطيعاً لمولاه إطاعةً مطلقة.

وبناءاً على ذلك، فإنّ من سعى وجاهد فكريّاً وعمليّاً ونفسانيّاً ووصل إلىٰ الكمال من كلّ الجهات، صار إنساناً كاملاً.

فإذا عرفنا الغرض من الخلقة وعظمته وما يحقق الغرض وأهميّته، فلابدّ أنْ نعلم أن الهدف له منهج معيّن وطريق خاص، والحركة في هذا الطريق تحتاج إلىٰ أدلّاء ومرشدين، ولابدّ أن يكون هؤلاء الأدلّاء في أعلى مراتب الكمال، لأنّ: «فاقد الشئ لا يعطيه».

وهذا الدليل، في كلّ زمان، هو الإمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام، وليست لغيرهم مثل هذه الصلاحيّة والمكانة.

إذن، فنحن في الجهة الاعتقاديّة، نحتاج إلىٰ دليل، وعلينا أن نأخذ عقائدنا من الأئمّة عليهم السّلام. وفي البعد العملي والعبادي والأخلاقي، لابدّ أن نتتلْمَذ في مدرسة أهل البيت عليهم السّلام، وأن نعي كلماتهم وإرشاداتهم، وننفي الصّفات الرذيلة عن أنفسنا، ونحلّيها بالصفات الحسنة، حتّىٰ نصل إلىٰ الكمال الذي هو غاية الخلقة وهدفها.

فالله سبحانه وتعالى إختار الأئمّة عليهم السّلام برضاه، وأقرَّهم أدلّاء للناس على صراطه والغرض الذي من أجله خلقوا: يقول تعالىٰ:

﴿وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون﴾(١)

فالهدف، هو العبادة التي لابدَّ أن تكون عن معرفة وعلم.

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأراد منه أن يسير في طريق الكمال، وأراد له الوصول إلىٰ قربه، ومن جهة أخرى، فإنّ الله تعالىٰ يَعلم بأنَّ الإنسان يخطأ ويشتبه في انتخاب الطريق، وذلك لوجود المحتالين وقطّاع الطرق في كلّ زمان، وإنّ الإنسان يعجز في كثير من الأحيان عن تشخيصهم ومعرفة حبائلهم ومخططاتهم بسهولة.

---

(١) سورة الذاريات (٥١): الآية ٥٦.

وخلاصة الكلام، إنّ العبارة السّابقة: «ورضيكم خلفاء في أرضه» توضح ضرورة وجود الخليفة في الأرض، ثمّ ثبت بالأدلّة: إنّ هؤلاء الخلفاء هم الأئمّة الأطهار عليهم السّلام.

وفي هذه العبارة: إنّ الأئمّة عليهم السّلام هم حجج الله على الخلائق المحتاجين إلىٰ الحجّة. إذن، فأصل وجود الحجّة وضرورته أمرٌ مسلَّمٌ وتامّ، وإنّ الأئمّة عليهم السّلام هم الحجج الآلهيّة على الناس أجمعين، والدليل على ضرورة وجود الحجة والخليفة في كلّ زمان عقلاً هو قاعدة اللّطف الثابتة بالكتاب والسنّة أيضاً، وإلّا لزم نقض الغرض أو التكليف بغير المقدور.

وبعد، فلو قيل: فلماذا لم يتحقّق الغرض من الخلقة في أكثر الناس، بل الواقع ـ كما قال الله سبحانه ـ ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾؟

والجواب واضح جدّاً: لأن تحقّق الغرض كان متقوماً بأمرين:

أحدهما: الطريق الموصل إلى الهدف والمنهج المحقّق له، وذلك هو الشّريعة الغرّاء التي شرّعها الله العالم بحقائق الامور الخبير بما يصلح الإنسان، وهذه الشريعة متكوّنة من المباني الإعتقاديّة التي يجب على كلّ مكلّف الإيمان بها، ومن الأحكام الفرعيّة، التي على كلّ مكلّف أن يطّبقها تطبيقاً كاملاً، لأنها مستندة إلى الحكم والمصالح، ومن الأخلاق والآداب والسّنن.

والثاني: الدليل على الطّريق، وهو النبيّ والوصّي من بعده، وقد تحمّل الأئمة بعد رسول الله هذه المسئوليّة وقاموا بها بأحسن قيام، فما ادّخروا وسعاً في تبيين الشريعة وتعليم الأُمة وتأديب الناس.

فمن أين جاء الضّلال؟ ومن أين حدثت المشكلة؟

إنّ المشكلة هي من طرف الناس، فقد كان عليهم العمل بالشّريعة، والإهتداء

بهدي الأئمة المعصومين الأدلّاء على الله، حدوثاً واستمراراً ليتحركوا في الطريق المستقيم ويتجنّبوا الإنحراف والتيه، بعيداً عن العقبات والعوائق للوصول إلىٰ الهدف من خلقهم وهو كمالهم، والذي تنحصر فائدته بهم، ولا يضرُّ الله تعالىٰ تخلّفهم عن سلوك هذا الطريق، فلو أنّ جميع الخلق اهتدوا بهدى الأئمة الهداة لما ضلّ أحدٌ، ووصل الكلّ إلى الكمال، ولو تحركوا بعكس جهة الكمال، فإنّ ذلك لا يضرًّ الله شيئاً.

من لم يصل فهو المقصّر

فإذا لم يصل البشر إلىٰ الكمال فضلاً عن أن يقعوا في الضّلال، فمن هو المقصِّر؟

وإذا سُئل الناس يوم القيامة: لماذا تخلّفتم عن طريق الكمال؟ لم يكن عندهم عذر يعتذرون به، ولا حجّة يحتجّون بها.

يقول الله تعالىٰ في كتابه الكريم:

﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ﴾[1]

وعن مسعدة بن زياد، في ذيل هذه الآية قال:

«سمعت جعفر بن محمد عليهما السلام وقد سئل عن قوله تعالىٰ: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ﴾،

فقال: إنّ الله تعالىٰ يقول للعبد يوم القيامة: عبدي أكنت عالماً؟

فإن قال: نعم،

قال له: أفلا عملت بما علمت؟

---

(١) سورة الأنعام (٦): الآية ١٤٩.

وإنْ قال: كنت جاهلاً،

قال له: ألا تعلّمت حتّىٰ تعمل؟

فيخصمه، وذلك الحجّة البالغة»[١]

أجل، إنّ الله تعالىٰ قد نصب الأوصياء من بعد الأنبياء عليهم السّلام أدلّاء على صراطه وحجة على عباده، فليس لأحد من عباده حجّة يوم القيامة يحتج بها.

ومن هنا، فإن العلماء قالوا في علم الاصول، في تعريف الحجّة:

«الحجّية متقومّة بالمنجّزيّة على تقدير الموافقة، والمعذريّة على تقدير المخالفة للواقع، فإنّ الحجّة بالاعتبار الأوّل حجّة للمولى على عبده وبالاعتبار الثاني حجّة للعبد على مولاه»[٢]

فلو إنَّ العبد لم يكن له أحدٌ يعلِّمه ويدلُّه على الطريق الصحيح، ولم يكن له أحدٌ يأخذ بيده في الأبعاد الثلاثة الآنفة الذكر، فإنه سيأتي يوم القيامة ويحتج على الله تعالىٰ ويقول: يا إلهي ما تقصيري ولم تصلني الحجّة؟ ما تقصيري ولم تنصب لي من يدلّني على الطريق فأتعلّم منه؟

لكنّ القرآن الكريم يقول:

﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[٣]

وبناءاً على هذا البيان، فكلُّ إنسانٍ لم يصل إلىٰ الكمال في هذا العالم، ويأتي يوم القيامة مسودّ الوجه، فإنّه هو المقصِّر وحده، لأنَّ الله تعالىٰ قد أقام له الحجّة عن طريق إرسال الأنبياء وتعيين الأوصياء.

---

(١) الأمالي، الشيخ المفيد: ٢٢٧ ـ ٢٢٨، الحديث ٦؛ بحار الأنوار ٢ / ٢٩، الحديث ١٠.

(٢) نهاية الدراية في شرح الكفاية ٢ / ٢٩٨.

(٣) سورة النساء (٤): الآية ١٦٥.

نقاط مهمّة

وبعد توضيح هذا الأمر وإثبات تماميّته كبرويّاً، نقول:

إنّ خلفاء الله وحُجَجه بعد أنبيائه هم الأئمّة الأطهار من أهل بيت رسول الله وخاتم النبيين محمد عليهم السّلام، وهنا يلزم التنبيه إلىٰ عدّة نقاط:

النقطة الاولى:

لمّا كان للأئمّة عليهم السّلام هذا الشأن والمقام من عند الله تعالىٰ، كان لابدَّ من عصمتهم، وذلك لأنّ غير المعصوم لا يصلح للحجيّة.

أفهل يمكن لغير المعصوم الذي يخطأ أو يُحتمل في حقِّه الإشتباه، أن يكون دليلاً ومرشداً نحو الكمال؟!

من هنا، كان التمسّك والاستدلال بكلام غير المعصومين للوصول إلىٰ الكمال، وجعلهم وسائط لطي طريقه والاستعانة بهم لإزالة العقبات، باطلاً.

اللهم إلّا أن يكون غير المعصوم هذا قد أخذ عن المعصوم، وتربّى في مدرسته.

النقطة الثانية:

إنَّ الأئمّة عليهم السّلام، لهم مثل هذا الشأن في كلِّ أحوالهم، سواء كانت مقاليد الحكم بأيديهم أم لم تكن كذلك، لأنَّ «الخلافة» و «الحجيّة» ليست مشروطة ببسط اليد ونفوذ الكلمة.

فالأئمّة عليهم السّلام كانوا في كلِّ الأحوال أدلّاء ومرشدين للامّة إلىٰ الصّراط المستقيم.

نعم، لو كانت أيديهم مبسوطة، وكانوا يحكمون الامّة عمليّاً، لكانت الهداية والدلالة للأمّة قد أُجريت بشكل أشمل وأوسع عمليّاً.

النقطة الثالثة:

إنَّ الإمام صاحب العصر والزمان عليه السّلام، هو حجّة الله حتّىٰ في زمن غيبته. لأنَّ الله تعالىٰ خَلَقَهُ ونصبهُ دليلاً على صراطه. فلو ضللتُ الطريق في زمن الغيبة، فأنا المقصِّر، كما إنَّ الامّة هي المقصِّرة في أصل غيبته عليه السّلام.

وَأنصارَاً لِدِينِهِ

لقد كان الأئمّة عليهم السّلام وعلى طول خط التاريخ، الحافظين والناصرين لدين الله تعالىٰ.

والدين، كما قلنا مراراً، مركبٌ من الاصول، الفروع، والأخلاقيّات، والأئمّة عليهم السّلام نصروا هذا الدين بكلّ أبعاده.

ومن جهة أخرى، فإن «النصرة» لها مصاديق مختلفةٌ كذلك، فتعليم الآخرين، ودلالتهم على الدين، وحفظ الدين من الإنحراف، كلّها أبعاد للنصرة.

كما إنّ «التحريف» أيضاً له أنواع، فهو تارة: بإدخال الزيادة على الدين، واخرى: بإنقاص شيٍ من الدين، وثالثة: بتحريفه بالتفسير بالرأي، ورابعة: بتحريفه معنويّاً. وخامسةً: بإثارة الشبهات والتشكيكات.

فالأئمّة عليهم السّلام، دافعوا عن الدين الإسلامي في كلِّ هذه الميادين، وحفظوه، وتحمّلوا أنواع المشقَّة والبلاء في سبيل الله، حتّىٰ استشهدوا في نهاية حياتهم من أجل الدين.

ومن ثَمَّ يقول الإمام الصّادق عليه السّلام:

«قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: يحمل هذا الدين في كلّ قرنٍ عدول،

ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وإنتحال الجاهلين، كما ينفي الكير خبث الحديد»[١]

وفي رواية أخرى يقول عليه السّلام:

«إنّ الله تبارك وتعالى لم يدع الأرض إلّا وفيها عالم يعلم الزيادة والنقصان، فإذا زاد المؤمنون شيئاً ردّهم، وإذا نقصوا شيئاً أكمله لهم، ولولا ذلك لالتبست على المؤمنين أمورهم»[٢]

وفي حياة الأئمّة الأطهار عليهم السّلام محطّات تعرّض لها الدين إلىٰ أخطار كبيرة، لم يسلم منها الإسلام والمسلمون إلّا ببركة وجود الأئمّة عليهم السّلام، نظير قضايا أمير المؤمنين عليه السّلام في المدينة والكوفة، وقضيّة الاستسقاء في زمن الإمام الحسن العسكري عليه السّلام في سامراء؛[٣] وقضيّة الرّمانة في البحرين.[٤]

فمن الواضح جدّاً، إنَّ نصرة الدين تحتاج إلىٰ قدرة علميّة ومددٍ غيبي كما سيأتي بيانه.

وَحَفَظَةً لِسِرِّهِ

قد تقدّم إنّ الله تعالىٰ قد جعل الأئمّة الأطهار عليهم السّلام حججاً له على الامّة وأدلّاء لها على الطريق إليه، ولذا، فإنّه عزّوجلّ أيّدهم وحفظهم وأمدّهم

---

(١) وسائل الشيعة ١٨ / ١٠٩، الحديث ٤٣.

(٢) كمال الدين: ٢٠٣، الحديث ١١.

(٣) الصواعق المحرقة ٢ / ٦٠٠.

(٤) بحار الأنوار ٥٢ / ١٧٧ ـ ١٨٠.

بالإمدادات الغيبيّة، ولعلّ هذه العبارة، إشارة إلىٰ هذا المعنى، فإنّ أحد الإحتمالات في معنىكلمة «سرّ» خصوص «الإسم الأعظم»، ولذا كان الأئـمّة عـليهم السّـلام يستمدّون منه القوّة في الأوقات اللّازمة.

وخَزَنَةً لِعِلمِهِ

والحقّ، أنّ الأئمّة عليهم السّلام يجب أن يكونوا كذلك، لأنَّ الحجّة والدّليل للأمّة على الصراط المستقيم، يحتاج إلىٰ علمٍ جمٍّ، العلم بكلّ ما له دخالة في هذه الدلالة والحجّيّة.

والأئمّة عليهم السّلام، ليسوا فقط علماء، بل هم خازنون لعلم الله، وقد مرّ بنا توضيح ذلك في شرحنا عبارة «خزّان العلم».

وَمُستَودَعاً لِحِكمَتِهِ

إنَّ الأئمّة عليهم السّلام لابدّ أن يكونوا كذلك، فمن كان حجّةً لله تعالىٰ على خلقه، ودليلاً لهم على الصراط المستقيم، لابدّ أن تتوفّر فيه حكمةٌ تتناسب مع مقام الإحتجاج والدّلالة، ليفعل و يقول ما يقتضي الحكمة ويطابقها.

وَتَراجُمَةً لِوَحيِهِ

التراجمة: جمع «ترجمان»، وفي اللغة، تعني: المبيّن والمفسّر.

قال في مجمع البحرين:

«تراجمة وحيك، جمع ترجمان، وهو المترجم المفسّر للّسان، يقال: ترجم فلان كلامه: بيّنه وأوضحه... واسم الفاعل: ترجمان».[١]

وما يقال في العرف للنقل من لغة إلىٰ لغة: ترجمة، فإنّما هو بلحاظ إنّ هذا بنفسه نوع من أنواع التفسير.

ولعلّ العنوان الجامع لمعناها هو: المبيِّن.

والمراد من جملة «تراجمة لوحيه» هو أنّ الأئمّة الأطهار عليهم السّلام هم المبينون والمبلّغون لوحي الله تعالىٰ.

إنه قد يتحدّث الشخص فلا يقدر على إسماع الآخرين صوته، فيأتى ثانٍ ويُعلم الآخرين بمؤدى كلام الأول بصوت عال، فيقال للثاني: ترجمان. كما هو حال الشخص الذي يقف إلىٰ جنب إمام الجماعة رافعاً صوته بالتكبير حال حركات الصّلاة. فكأنّه يرفع صوت إمام الجماعة ويوصله للمأمومين.

فحكم الأئمّة عليهم السّلام في إيصال الوحي، هو حكم هذا «المكبِّر» أو هو بحكم مكبّرات الصوت في زماننا.

وبتعبير أحد أساتذتنا الكرام رحمه الله: إنّ حلقوم الإمام عليه السّلام هو المكبِّر لوحي الله المسمع له، وإنّ كلام الله تعالىٰ يخرج من حلقوم ولسان الإمام عليه السّلام إلىٰ أسماع العالمين.

ومن هنا، ورد في بعض الروايات: «نحن لسان الله».[٢]

---

(١) مجمع البحرين ١ / ٢٨٧.

(٢) بصائر الدرجات: ٦١.

وَأركاناً لِتَوحيدِهِ

و «الأركان» جمع «رُكن»، وهو العمود الأصلي في البناء، وقد مرّ بيان ذلك وتوضيحه في شرح عبارة «أركان البلاد».

ويمكن شرح هذه الجملة على وجهين:

الوجه الأول: هو إنّ معرفة الله تعالىٰ قائمة بمعرفة الأئمّة عليهم السّلام، والإيمان والإقرار بإمامتهم.

الوجه الثاني: إنّ الأئمة هم الذين بيّنوا آيات معرفة الله ودلائل توحيده، فلولاهم لما عُرف الله ولولاهم لَما عُبد الله.

والوجهان، مستفادان من الروايات، وقد أوردنا آنفاً وبمناسبات متعدّدة طرفاً منها، وسنذكر هنا عدّة روايات في هذا الشأن، ولكن قبل ذلك نذكّر بروايتين عن رسول الله صلّى الله عليه وآله:

من الروايات الّتي تعتبر الأئمّة أركاناً

فلقد ورد في كتب الشيعة والسنّة كتابة إسم أمير المؤمنين عليه السّلام إلىٰ جنب الشهادتين على ساق عرش الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك قوله صلّى الله عليه وآله وهو يخبر عن معراجه:

«لمّا أُسري بي إلىٰ السّماء، إذا على العرش مكتوب: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله أيّدته بعلي»[1]

---

(١) الدرّ المنثور ٤ / ١٥٣؛ الخصائص الكبرى ١ / ٧؛ الرياض النضرة ٢ / ٢٢٧؛ الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١٣٨؛ المناقب، ابن المغازلي: ٣٩.

دلّ هذا الحديث على أنّ قوائم العرش وأركان توحيد الله وأسس شريعته ثلاثة: الإيمان بتوحيد الله، ورسالة النبي، وولاية علي

ومن أروع الروايات في الباب، ما أورده الشيخ الصدوق بثلاث أو أربع وسائط عن الإمام الجواد عليه السّلام عن آبائه عن سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السّلام قال:

«دخلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله وعنده أُبي بن كعب، فقال لي رسول الله صلّى الله عليه وآله: مرحباً بك يا أبا عبد الله ! يا زين السماوات والأرضين.

قال له أُبي: وكيف يكون ـ يا رسول الله ـ زين السماوات والأرضين أحد غيرك؟

قال: يا أُبي، والّذي بعثني بالحق نبيّاً، إنّ الحسين بن علي في السماء أكبر منه في الأرض، وإنّه لمكتوب عن يمين عرش الله عزّوجلّ: مصباح هدىً وسفينة نجاة...».[1]

الإقرار بوحدانيّة الله بالإقرار بولاية الأئمّة

ثم إنَّ الإقرار بوحدانيّة الله تعالىٰ مبتنٍ على الإقرار بولاية الأئمّة عليهم السّلام، والروايات في ذلك كثيرة، نكتفي بنقل رواية «سلسلة الذهب» المعروفة،

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السّلام ٢ / ٦٢، الحديث ٢٩؛ كمال الدين: ٢٦٥، الحديث ١١؛ بحار الأنوار ٣٦ / ٢٠٤ و٢٠٥ و٩١ / ١٨٤.

وهي من كلام الإمام الرّضا عليه السّلام قاله تلبية لطلب كبار علماء نيشابور، وقد جاء فيها:

«حدَّثني أبي موسى بن جعفر الكاظم، قال: حدّثني أبي جعفر بن محمّد الصادق، قال: حدّثني أبي محمّد بن علي الباقر: قال حدّثني أبي علي بن الحسين زين العابدين، قال: حدّثني أبي الحسين بن علي بن أبي طالب شهيد أرض كربلاء، قال: حدّثني أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شهيد أرض كوفة، قال: حدّثني أخي وابن عمّي محمّد رسول الله، قال: حدّثني جبرئيل، قال سمعت ربّ العزّة سبحانه وتعالى يقول: كلمة لا إله إلّا الله حصني، فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي».(١)

ثمّ قال عليه السّلام:

«بشروطها، وأنا من شروطها».(٢)

هذا، وقد جاء هذا المعنى في روايات العامّة أيضاً، كالحديث الذي رووه بأسانيدهم عن النبي الأكرم محمد صلّى الله عليه وآله، إنّه قال:

«لو أنّ عبداً عبَد الله بين الرّكن والمقام ألف عامٍ ثمّ ألف عام ولم يقل بمحبّتنا أهل البيت، لأكبّه الله على منخره في النار».(٣)

---

(١) كشف الغمّة ٣ / ١٠١؛ بحار الأنوار ٤٩ / ١٢٧، الحديث ٣.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السّلام ١ / ١٤٥، الحديث ٤؛ بحار الأنوار ٤٩ / ١٢٣، الحديث ٤.

(٣) راجع: تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٤٧١؛ المناقب، الخوارزمي: ٦٧ و ٦٨، الحديث ٤٠؛ ينابيع المودّة ١ / ٣٩٠، الحديث ٢.

لولا الأئمّة لم يُعرف الله ولم يُعبد

ومن جملة الروايات الواردة في هذا المعنى، إنّه عليه السّلام قال:

«لولانا ما عُرف الله».(١)

وفي رواية أخرى، قال:

«لولانا ما عُبد الله».(٢)

وَشُهَداءَ عَلى خَلقِهِ

كلمة «شهداء»: جمع «شاهد». يقول الراغب الإصفهاني:

«الشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة إمّا بالبصر أو بالبصيرة».(٣)

وكلمة «الخلق» في هذه العبارة مطلقة، وهم الأعم من المؤمنين وغيرالمؤمنين، وكذلك مورد الشهادة، فإنه أعمّ من النيّات والأعمال.

وبناءاً على هذا، فإنّ الله تعالىٰ قد رضي بالأئمّة عليهم السّلام شهداء على أعمال ونيّات كلّ الخلائق.

ذلك، لأنّ الله تعالىٰ عندما رضيهم «حججاً على بريّته»، كان لابدّ من إحاطتهم بكلّ شؤون «البريّة» ـ أي الخلق الذين تقام عليهم الحجّة في مقام الإحتجاج ـ وإلّا لزم نقض الغرض، أو الخُلف.

(١) بصائر الدرجات: ١٢٥، الحديث ٩؛ بحار الأنوار ٢٦ / ١٠٧، الحديث ١٠.

(٢) الكافي ١ / ١٩٣، الحديث ٦؛ التوحيد، الشيخ الصدوق: ١٥٢، الحديث ٩؛ بحار الأنوار ٢٦ / ٢٦٠، الحديث ٣٨.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٢٦٧.

هذا من جهة البرهان العقلي.

وأمّا من جهة الدليل القرآني، فإنّ «وشهداء على خلقه» إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ في القرآن المجيد:

﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاس...﴾[١]

فقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السّلام في تفسير هذه الآية:

«نحن الامّة الوسطى، ونحن شهداء الله على خلقه وحججه في أرضه...»[٢]

والروايات في هذا الباب، على عدّة أقسام:

١. روايات «نحن عين الله».[٣]

٢. روايات «نحن شهداء الله في خلقه».

ففي رواية يقول عليه السّلام:

«يابن أبي يعفور! إنّ الله تبارك وتعالى واحد متوحّد بالوحدانيّة، متفرّد بأمره، فخلق خلقاً ففرّدهم لذلك الأمر فنحن هم.

يابن أبي يعفور! فنحن حجج الله في عباده وشهداؤه في خلقه وأُمناؤه وخزّانه على علمه والدّاعون إلىٰ سبيله والقائمون بذلك، فمن أطاعنا فقد أطاع الله».[٤]

٣. روايات واردة في اصول الكافي: باب «إنّ الأئمّة شهداء الله».[٥]

(١) سورة البقرة (٢): الآية ١٤٣.

(٢) الكافي ١ / ١٩٠، الحديث ٢؛ بحار الأنوار ١٦ / ٣٥٧، الحديث ٤٨.

(٣) بصائر الدرجات: ٦١، الباب الثاني من الجزء الثاني.

(٤) بصائر الدرجات: ٨١، الحديث ٤؛ بحار الأنوار ٢٦ / ٢٤٧، الحديث ١٥.

(٥) الكافي ١ / ١٩٠ و ١٩١، الأحاديث ١ ـ ٥.

٤. روايات واردة في عرض الأعمال على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم والأئمّة الأطهار عليهم السّلام، وقد عقد في أصول الكافي باباً في هذا العنوان.[١]

٥. روايات إخبار الأئمّة عليهم السّلام بنوايا الأشخاص والوقائع الخاصّة بهم، وهي كثيرة.[٢]

فإذا ما وقع السؤال عن كيفيّة هذا الحضور والإحاطة، يكفي أن نعرف أنّ الإمام له نفس قدسيّة وهو مؤيّد بـ«روح القدس» كما ما بيَّناه سابقا، وهو ما أشارت إليه بعض الروايات، منها قوله عليه السّلام:

«إنّ الإمام مؤيَّد بروح القدس، وبينه وبين الله عمود من نور يرى فيه أعمال العباد».[٣]

بل، قد جاء في بعض الروايات:

«ما من شيءٍ ولا من آدمي ولا إنسي ولا جنّي ولا ملك في السماوات إلّا ونحن الحجج عليهم، وما خلق الله خلقاً إلّا وقد عرض ولايتنا عليه واحتجّ بنا عليه، فمؤمن بنا وكافر وجاحد حتّىٰ السماوات والأرض والجبال».[٤]

فمن هذه الرواية، نستفيد أنّ الأمر أعظم بكثير مما ذكرنا. والله العالم.

هذا، ونُنَوِّه هنا إلىٰ أنّ هذا البحث سيأتي أيضاً في شرحنا لعبارة: «وشهداء دار الفناء».

---

(١) الكافي ١ / ٢١٩ و ٢٢٠، الأحاديث ١ ـ ٦.

(٢) بصائر الدرجات: ٢٤٢ ـ ٢٥٠.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السّلام: ٢ / ١٩٣، الحديث ٢؛ الخصال: ٥٢٨، الحديث ٢؛ بحار الأنوار ٢٥ / ١١٧، الحديث ٢.

(٤) السرائر ٣ / ٥٧٥ و٥٧٦؛ بحار الأنوار ٢٧ / ٤٦، الحديث ٧.

وَأعلَاماً لِعِبادِهِ

والأعلام: جمع «عَلَم» بمعنى: العلامة والأثر.

قال الراغب الإصفهاني في المفردات:

«العَلَم: الأثر الذي يُعلم به الشئ، كعَلَم الطريق وعلم الجيش، وسمّي الجبل علماً لذلك، وجمعه أعلام...».(١)

وجاء في القرآن المجيد:

﴿وَ عَلاماتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُون﴾(٢)

وفي اصول الكافي، بابٌ بعنوان «باب أنَّ الأئمّة هم العلامات»(٣)

وبناءاً على هذا، فإنّ الأئمّة عليهم السّلام هم الأعلام الهادية للخلق إلى معرفة الله وطاعته وعبادته.

وهذا المعنى برهاني أيضاً، فإنّ مقتضى عدل الله ولطفه بالعباد أن يُقيم الأعلام في هذا العالم لهداية العباد، وتصحيح سيرهم وحركتهم نحو الكمال، كما مرَّ بنا في شرح عبارة «أعلام التقى».

ولذا، يقول عليه السّلام:

«الإمام عَلَم فيما بين الله عزّوجلّ وبين خلقه، فمن عرفه كان مؤمناً ومن أنكره كان كافراً».(٤)

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٤٤.

(٢) سورة النحل (١٦): الآية ١٦.

(٣) الكافي ١/٢٠٦ و ٢٠٧، الأحاديث ١ ـ ٣.

(٤) كمال الدين: ٤١٢، الحديث ٩؛ وسائل الشيعة ٢٨/ ٣٤٤، الحديث ١٨.

والكعبة أيضاً «عَلَم»، لذا يقول أمير المؤمنين عليه السّلام في حقّ البيت الحرام:
«جعله سبحانه وتعالى للإسلام عَلَماً».(١)

كما ويصدق هذا المعنى على القرآن المجيد، فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي».(٢)

وَمَنارَاً في بِلادِهِ

لأنّ «المنار» في لغة العرب، المكان المرتفع الذي توقد النار فيه ليهتدىٰ بها إلىٰ الطرق. وتشبيه الأئمّة عليهم السّلام بالمنار، إنّما هو من حيث إنّهم عليهم السّلام الأدلّاء إلىٰ الله بوجوداتهم، وبما يحملون من أنوار العلم، وتعاليمهم.

والمقصود، هو إنّ الأئمّة فقط، لهم مثل هذه الأهليّة لهداية الامّة، بكلّ معاني الكلمة.

هذا، وقد جاءت كلمة «عَلَم» وكلمة «منار» في سياق واحد في بعض الروايات. كما في قوله عليه السّلام:

«... نحن منارُ الهُدى، ونحن السّابقون، ونحنُ الآخرون، ونحن العلم المرفوع للخلق...».(٣)

---

(١) نهج البلاغة ١ / ٢٧.

(٢) بصائر الدرجات: ٦٣، باب ٣، الجزء الثاني.

(٣) بصائر الدرجات: ٨٣، الحديث ١٠؛ كمال الدين: ٢٠٦، الحديث ٢٠؛ بحار الأنوار ٢٦ / ٢٤٨، الحديث ١٨.

وَأَدِلّاءَ عَلى صِراطِهِ

لأنّ «أدلّاء» جمع «دليل»، فالله تعالىٰ قد رضي الأئمّة عليهم السّلام أدلّاء للخلق في سيرهم إلىٰ الله، لأنّ مثل هذه الدلالة مستعصية على غيرهم، بل مستحيلة بالنحو الصحيح والتامّ.

إذن، فهم عليهم السّلام فقط أدلّاء المسلمين على الطريق الصحيح الموصل إلىٰ الله تعالىٰ.

عَصَمَكُمُ اللّهُ مِنَ الزَّلَلِ وآمَنَكُمْ مِنَ الْفِتَنِ وطَهَّرَكُمْ مِنَ الدَّنَسِ وأَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وطَهَّرَكُمْ تَطْهِيراً

عصمة الأئمّة

وفي هذه الفقرة من الزيارة الشريفة، تصريح وتنصيص على عصمة الأئمّة عليهم السّلام، وإشارة إلى خصوص آية التطهير المباركة التي تعتبر من أولى أدلّة العصمة. كما أنّ العصمة هي الملاك للجُمل السّابقة:

«ورَضِيَكُمْ خُلَفَاءَ فِي أَرْضِهِ وحُجَجاً عَلَى بَرِيَّتِهِ وأَنْصَاراً لِدِينِهِ وحَفَظَةً لِسِرِّهِ وخَزَنَةً لِعِلْمِهِ ومُسْتَوْدَعاً لِحِكْمَتِهِ وتَرَاجِمَةً لِوَحْيِهِ وأَرْكَاناً لِتَوْحِيدِهِ وشُهَدَاءَ عَلَى خَلْقِهِ وأَعْلَاماً لِعِبَادِهِ ومَنَاراً فِي بِلَادِهِ وأَدِلَّاءَ عَلَى صِرَاطِهِ»

ولهذا، فلابدّ من أن يكون الأئمّة عليهم السّلام معصومين، وغير المعصوم لايكون خليفةً لله وحجّة ودليلاً عليه وخازناً لعلمه وحافظاً لسرّه وناصراً لدينه، وهذا المعنى مبرهن عليه عقلاً.

هذا، ولا يوجد معصومٌ غير محمد وآل محمد صلوات الله وسلامه عليهم في الإسلام.

ومن هنا، فإنَّ الله تعالىٰ قد رضيهم ولم يرض غيرهم، لأنَّ العصمة أمرٌ خفي لا يعلمه إلّا الله، ومن ثمَّ قلنا بأنَّ المناصب المذكورة، والمشروطة بالعصمة، إنما تكون بجعل الله تعالىٰ وتعيينه، فكلّ تلك المعاني بدأت بكلمة «رضيكم»، وكذلك أصل العصمة الموقوفة على إرادة الله تعالىٰ، ولذا أُسندت إليه، قال عليه السّلام: «عصمكم الله»

ثم إنّه بالتأمّل في هذه الفقرة من الزيارة، يظهر أنه قد نفي عن الأئمّة عليهم السّلام، أربعة أمور:

١ ـ «الزلل»، وهو جمع «زلّة»، بمعنى الزيغ بدون قصد،[١] ونفاها بقوله: «عصمكم».

٢ ـ «الفتن»، وهي جمع «فتنة» وهي الحيرة والضلال على أثر الجهل وقد نفاها بقوله: «آمنكم».[٢]

٣ ـ «الدنس»،[٣] ونفاها عنهم بقوله: «طهّركم».

٤ ـ «الرجس»،[٤] ونفاها عنهم بقوله: «أذهب».

---

(١) مجمع البحرين ٤ / ٥١٩.

(٢) المصدر ٣ / ٣٦١.

(٣) المصدر ٢ / ٥٩.

(٤) المصدر ٢ / ١٤٨.

فلاحظوا، إنَّ كلّ هذه المعاني قد حصلت بفعل الله تعالىٰ وإرادته في حقِّ المعصوم عليه السّلام. وحينئذٍ، لابدَّ من التوصّل إلى خصوصيّات كلّ واحدة من هذه الامور الأربعة والفعل الوارد لنفيها.

هذا، وقد بحثنا عن العصمة في ضمن كتبنا في الإمامة، وكذلك وضعنا فيها رسالةً مفردةً.

وهذا موجز الكلام عن هذا الموضوع في عدّة بحوث:

١ ـ العصمة لغةً.

٢ ـ العصمة إصطلاحاً.

٣ ـ أدلّة العصمة.

ومن جهة أخرى، ولأنّ هذه الفقرة من الزيارة تشير إلىٰ آية التطهير، سنبحث باختصار حول الآية وحديث الكساء، الوارد في ذيلها.

العصمة لغةً

جاء في لسان العرب:

«عصم: العصمة في كلام العرب: المنع. وعصمة الله عبده: أن يعصمه ممّا يوبقه، عصمه يعصمه عصماً: منعه ووقاه».[1]

فهذا اللغوي أخذ كلمة «عصم» بمعنى «منع».

وأمّا الراغب الإصفهاني في غريب القرآن، فقد جعل كلمة «عصم» بمعنى «مسك»، قال:

---

(١) لسان العرب ١٢ / ٤٠٣.

«العصم: الإمساك والاعتصام الاستمساك... وقوله: ﴿وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ﴾ والعصام ما يُعصم به أي يُشدّ، وعصمة الأنبياء حفظه إيّاهم...».[١]

ويبدو أنَّ كلمة «مسك» أخصّ من كلمة «منع».

وفي القرآن الكريم، وحكاية عن لسان إبن نوح، قال تعالىٰ:

﴿قالَ سَآوي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُني مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمِ﴾[٢]

فقد تكون كلمة «عصم» في هذا المورد، بمعنى «منع»، ولكن في آية اخرى نقرأ:

﴿وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَميعاً وَ لا تَفَرَّقُوا﴾[٣]

فالكلمة هنا ظاهرة في «المَسْك» و«التَّمسُّك».

ومن هنا، فإن بعض المفسرين ذكروا حديث الثقلين في ذيل هذه الآية المباركة. قال الطبرسي في مجمع البيان:

﴿وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أي: تمسّكوا به.

وقال الطبرسي رحمه الله بعد ذلك: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«أيّها الناس ! إنّي قد تركت فيكم حبلين؛ إن أخذتم بهما لن تضلّوا بعدي، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا علي الحوض»؛[٤]

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٣٦ـ٣٣٧.

(٢) سورة هود (١١): الآية ٤٣.

(٣) سورة آل عمران (٣): الآية ١٠٣.

(٤) تفسير مجمع البيان ٢ / ٣٥٦؛ تفسير جامع البيان ٤ / ٤٢؛ تفسير السمرقندي ١ / ٣٧٦؛ تفسير الواحدي ٢٢٥/١؛ تفسير الرازي ٢ / ١٥.

وفي رواية أخرى عن الصّادق عليه السّلام، قال:

«نحنُ حبلُ الله الذي قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَميعاً وَ لا تَفَرَّقُوا﴾ وولاية علي عليه السّلام البرّ، فمن إستمسك به كان مؤمناً ومن تركه خرج من الإيمان»؛[١]

أضف إلىٰ ذلك، إنَّ نفس حديث الثقلين قد جاء فيه لفظ «عصم»، حيث يقول صلّى الله عليه وآله:

«إنّي تارك فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلّوا مِنْ بعدي، كتاب الله وعترتي أهْلَ بَيْتِي».[٢]

ويمكن أن نعتبر كلمة «الحفظ» عنواناً جامعاً بين «المنع» و«المَسْك» وهذِهِ تدقيقات في المفهوم.

إذن، فالله سبحانه وتعالى قد حفظ الأئمّة عليهم السّلام من الزلل؛ وأنّ الله تعالىٰ قد آمنهم من الفتن.

والفتنة في اللغة، ما خالف ظاهرُهُ واقعَهُ، وأوقع الإنسان في الاشتباه.[٣]

ومن ثمَّ، قسّموا الفتنة إلىٰ بسيطة وعمياء.

ثم إنَّ مفهوم «الدنس» وإنْ كان قريباً جدّاً من مفهوم «الرجس» إلّا إنّ التفاوت بينهما موجودٌ، وإنْ كان دقيقاً.

---

(١) تفسير فرات الكوفي: ٩١، الحديث ٧٣.

(٢) مفتاح النجاة (مخطوط)، نقلاً عن كتاب «المتفق والمفترق»؛ كنز العمّال ١ / ١٨٧، الحديث ٩٥١، نقلاً عن «المتفق والمفترق». وهو للخطيب البغدادي، وقد حرِّف هذا الحديث في كتاب «المصنَّف ٧ / ١٧٦، الحديث ١» بحذف عبارة «وعترتي أهل بيتي».

(٣) راجع: النهاية في غريب الحديث ٣ / ٤١٠؛ معجم مقاييس اللغة ٤ / ٤٧٢.

وعلى كلّ حال، فكلاهما يعبِّر عمّا يضادّ الطهارة والنقاء.[١]

ومن الواضح أنَّ كلمة «الطهر» تستعمل في مورد الطّهارة بمعنى «الدفع» كما تستعمل فيها بمعنى «الرفع»، والإذهاب في الآية دفعي لارفعي، فإن الله عزّوجلّ طهّر أهل البيت من الدنس فلم يعرض عليهم أصلاً.

مضافاً إلىٰ إنَّ «عصمكم الله» لاتأتي بمعنى الرفع، لأنّ «الرفع» لا يتناسب مع «عصم»، وكذا الإذهاب، فإنه لا يتناسب مع «عصم» إذا كان بمعنى الرفع بعدالوجود.

العصمة إصطلاحاً

ثمّ إنَّ كلمات الأعلام في تعريف «العصمة» على أساس الأدلّة العقليّة والنقليّة، متقاربة، والتفاوت بينها بسيط.

فمثلاً يقول الشيخ المفيد رحمه الله:

«العِصْمَةُ لطفٌ يَفعَلُهُ الله بالمكلَّف بحيث يمنع منه وقوع المعصيَة وترك الطاعَة مع قدرته عليهما».[٢]

ويقول العلّامة الحلّي رحمه الله:

«العصمة، لطفٌ خفي يفعله الله تعالىٰ بالمكلّف بحيث لا يكون له داعٍ إلىٰ ترك الطاعة وإرتكاب المعصية مع قدرته على ذلك».[٣]

ففي الحقيقة، إنَّ العصمة التي يقول علماؤنا بضرورة وجودها في النبيّ

---

(١) راجع: لسان العرب ٦ / ٨٨ و٩٤؛ مجمع البحرين ٢ / ٥٩ و١٤٨.

(٢) النكت الاعتقاديّة: (فى ضمن مصنّفات الشيخ المفيد قدس سرّه) ١٠ / ٣٧.

(٣) شرح الباب الحادي عشر: ٨٩

والإمام لطف من الله وحالة معنويّة في المعصوم بدرجة تمنع عن اختيارٍ من صدور المعصية وترك الطاعة.

ولمّا كانت العصمة لطفاً إلهيّاً، فقد نسبت إلىٰ الله تعالىٰ في قوله عليه السّلام: «عصمكم الله».

هذا، وإنَّ في القرآن الكريم آيةً يبدو أنّها في نفس هذا المضمار، وهي قوله تعالىٰ:

﴿وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوك﴾(١)

وبناءاً على هذه الآية، فإنّ الحافظ لرسول الله صلّى الله عليه وآله هو فضل الله ولطفه، والرحمة الإلهيّة، وهذِهِ هي العصمة.

ثم إنّ جمعاً من المتأخرين من كبار العلماء، يَرَونَ أنّ أساس العصمة في المعصوم علمُهُ. وذلك، لأنّ المعصوم عالمٌ بقبح الذّنوب وآثارها السيّئة، فلذا لا تصدر منه. قال العلّامة الطباطبائي في تفسير الميزان حول العصمة:

«ظاهر الآية أنّ الأمر الّذي تتحقق به العصمة نوع من العلم يمنع صاحبه عن التلبّس بالمعصية والخطأ.

وبعبارة أخرى، علم مانع عن الضلال، كما إنّ سائر الأخلاق كالشجاعة والعفّة والسخاء كلّ منها صورة علميّة راسخة موجبة لتحقق آثارها، مانعة عن التلبّس بأضدادها، من آثار الجبن والتهور والخمود والشره والبخل والتبذير...».(٢)

---

(١) سورة النساء (٤): الآية ١١٣.

(٢) تفسير الميزان ٥ / ٧٨.

ويقول الشيخ الزرقاني المالكي في «شرح المواهب اللّدنيّة» في أحوال النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله:

«إنّه معصوم من الذنوب، بعد النبوّة وقبلها، كبيرها وصغيرها، وعمدها وسهوها على الأصحّ».

ثمّ ينقل عن الحافظ السبكي قوله:

«أجمعت الأمّة على عصمة الأنبياء في ما يتعلّق بالتبليغ وغيره، من الكبائر والصغائر الخسيسة، والمداومة على الصغائر. وفي صغائر لا تحط من رتبتهم خلاف...».(١)

دراسة حقيقة العصمة

وعند دراسة حقيقة العصمة لابدَّ من ملاحظة عدّة مطالب:

المطلب الأول: العصمةُ عن ماذا؟

بناءاً على ما ذكرناه حول عبارات الزيارة الجامعة، يظهر لنا إنّ العصمة ليست عن المعصية فقط، بل هي العصمة عن الخطأ والسّهو و الإشتباه والنسيان أيضاً، وذلك، لأن من جاز عليه شيئ ممّا ذكر لم يعتبر بقوله ولم يمكن جعله هادياً للأمّة، فمن نصب نبيّاً أو إماماً وفسّر آيةً من القرآن أو بيّن حكماً من الأحكام الشرعيّة أو أبلغ شيئاً من الأمور الدينيّة، وأمكن أن يكون ساهياً ومشتبهاً، فيفسّر آية بعكس معناها الواقعي أو يخطأ في بيان بعض الحقائق؛ فإنَّ هذا الشخص لا يمكن أن

---

(١) شرح المواهب اللدنيّة ٥ / ٣١٤.

يكون حجّة يحتجُّ به الله تعالىٰ على عباده ويؤاخذهم على عدم إعتماد أقواله وأفعاله وتعاليمه، بعنوان الرسالة أو الإمامة؛ بل للعباد حينئذ الإعتذار عن عدم المتابعة والإطاعة له.

فلو كان الأمر كذلك، لم تتمَّ حجّة الله تعالىٰ على الناس، ويتخلف مضمون الآيتين:

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ﴾،[١] ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.[٢]

لذا، فإنَّ حجّة الله على الناس، لابدَّ أن يكون معصوماً حتّىٰ عن السّهو والخطأ والإشتباه والنسيان، لتصحَّ مؤاخذة العبد يوم القيامة على تخلّفه عن متابعة هذا الحجّة وإمتثال أوامره ونواهيه وترك الإقتداء والتأسي به، وإلّا لزم نقض الغرض من إقامة الحجّة.

فالغرض من نصب الإمام هو هداية البشر وإيصالهم إلىٰ الحقيقة، لذا كانت إطاعته والإقتداء به واجباً بنحو مطلق والتأسّي به في كلّ الأحوال ضروريّاً.

فالإمام، منصوبٌ لبيان الأحكام الإلهيّة وحقائق القرآن الكريم، حتّىٰ المتشابهات من آياته ـ حيث قال: ﴿وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[٣]

فقد ورد عنهم:

«نَحنُ الرّاسِخُونَ فِي العِلمِ»؛[٤]

---

(١) سورة الأنعام (٦): الآية ١٤٩.

(٢) سورة النساء (٤): الآية ١٦٥.

(٣) سورة آل عمران (٣): الاية ٧.

(٤) بصائر الدرجات: ٢٢٤، الحديث ٥؛ الكافي ١ / ٢١٣، الحديث ١؛ بحار الأنوار ٢٣ / ١٩٩، الحديث ٣١.

وفي هذه الحالة، لابدَّ أن يكون معصوماً من كلِّ الجهات المنافية، فـإنّه لو احتملنا في حقّه الإشتباه في تفسير وتأويل آية أو بيان حكم، لم يجز لنا الأخذ بقوله، فيلزم التناقض أو نقض الغرض.

كما إنَّ الإمام هو حجّة الله على الخلق، فلو لم يكن معصوماً عـن الخـطأ، السهو، والنسيان، لم يمكن لله الإحتجاج بأقواله وأفعاله على الناس، وهذا نقض للغرض، وتناقض.

وأيضاً، يعتبر في النبي و الإمام نزاهته ممّا يوجب تنفّر الناس منه، ولا شك في أنّ الخطأ والإشتباه والسهو، يُسقطه من أعين الناس، فلا يُـعتنىٰ بأقـواله ولا يُقتدى بأفعاله.

ولتوضيح هذا المعنى نضرب مثلاً:

لو بَنىٰ أهل بلدٍ مسجداً لهـم، وطـلبوا مـن الحـوزة العـلميّة إرسـال عـالمٍ يـؤمّ النــاس فـي المسـجد، ويـبيّن لهـم الأحكـام الشـرعيّة، ويـعلّمهم مـعالم دينهم،فأرسلت الحوزة العلميّة عالماً إلىٰ ذلك البلد، فوقع السّهو من هذا الإمام في صلاته في اليوم الأوّل من وصوله، فإن الناس قد يعذرونه بحجّة إنه قد وصل توّاً من سفره وأنه مرهق، ولو سألوا منه مسألة فلم يحر جواباً أو أجاب خطأ، فقد يعذرونه بالنسيان.

ولكن لو تكرر منه ذلك ثانيةً و ثالثةً، فلن يبقى الناس مكتوفي الأيدى، وإنما سيكتبون إلىٰ أولي الأمر في الحوزة العلميّة، يطلبون منهم استدعاء هذا الشخص واستبداله بغيره.

ولاشك أنّ هذا التصرّف منهم طبيعي ومقبول.

وكمثال آخرَ أوضح من الأول:

لو أنَّ طبيباً علّق يافطة على مطبّه بأنه حكيم عُيون، فراجعه أحدهم، فحاول معالجته، ولكن ليس فقط لم ينجح علاجه وإنما تسبب في عماه وفقدان بصره، ثمّ تكرّر ذلك بالنسبة إلى المريض الثاني، ففي هذه الحالة لا يعاتب أهل ذلك البلد إذا ما اجتمعوا حول محلّ طبابته وثارت ثائرتهم ضدّه وأجبروه على تعطيل المكان.

وبعد هذين المثالين نقول إنّه لا يجوز على الإمام وخليفة الله والحجّة الإلهيّة على الخلق أنْ يخطأ أو يسهو و لو مرّةً واحدة.

فالحاصل، إنّ الإمام، وبحكم العقل يجب أن يكون معصوماً عن الخطأ والنسيان والسهو، والأدلّة العقليّة والنقليّة على ذلك كثيرة، وبهذا صرّح كبار العلماء قديماً وحديثاً، ولا غلوّ في ذلك.

مضافاً إلىٰ ذلك، فإنّ بعض العلماء إشترطوا خلوّه من «منافيات المروءة» أيضاً. يقول المرحوم المظفر:

«بل يجب أن يكون منزّهاً حتّىٰ عمّا ينافي المروءة، كالتبذّل بين الناس، من أكل في الطريق أو ضحك عال، وكلّ عمل يستهجن فعله عند العرف العام».(١)

المطلب الثاني: الإعتقاد بأنَّ النبي والإمام معصومان منذ الولادة.

ويكفينا لدرك هذا المعنى أن نعلم بأنَّ العصمة شرطٌ في الحجيّة، وأنّ الله تعالىٰ يحتجّ على الناس بالنبي والإمام.

فمثلاً، كان عيسى على نبيّنا وآله وعليه السلام نبيّاً وهو في المَهدِ، وحينئذٍ، لابدَّ من الإذعان بتوفّر هذا الشرط فيه منذ الولادة.

---

(١) عقائد الإماميّة: ٥٤؛ كتاب العصمة: ١٣.

يقول تعالىٰ في كتابه المجيد:

﴿فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَني نَبِيًّا﴾(١)

المطلب الثالث: هل إنّ العصمة إكتسابٌ أم إعطاء؟

بناءاً على تعبير «يفعله» الذي جاء في كلام الأعاظم كالشيخ المفيد رحمه الله حيث قال:

«العصمة لطفٌ يفعله الله تعالىٰ بالمكلَّف».(٢)

وبالنظر لما جاء في قوله تعالىٰ:

﴿وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوك﴾(٣)

يتّضح لنا بأنّ العصمة إعطائيّةٌ، وهذا هو ظاهر الأدلّة الاخرى أيضاً.

وأمّا بناءاً على القول الآخر الذي يذهب إلىٰ أنّ منشأ العصمة هو العلم، فلابدَّ أن نرى ما هو المقصود من هذا العلم؟

هل هو العلم الحضوري أم العلم الحصولي الذي هو اكتسابي؟

وهل يمكن للإنسان أن يصل إلىٰ كلِّ علم بالإكتساب؟

فعلىٰ القائلين بهذه النظريّة أنْ يثبتوا بأنّ عيسى عليه السّلام ـ مثلاً ! ـ كان يعلم بقبح الذنوب والمعاصي وإنه كان مختاراً في عدم ارتكابه لها، عندما كان نبياً في المهد. هذا أوّلاً.

---

(١) سورة مريم (١٩): الأيتان ٢٩ و ٣٠.

(٢) النكت الإعتقاديّة: ٣٧.

(٣) سورة النساء (٤): الآية ١١٣.

وثانياً: أليس ممكناً إجتماع العلم مع السّهو؟

فالقائلون بأن العلم هو المنشأ للعصمة، وفي نفس الوقت يقولون بأن المعصوم لابدَّ أن يكون معصوماً عن السّهو والنسيان، عليهم أن يبيّنوا كيفيّة الجمع بين هذين الأمرين.

أجل، إنَّ العلم لا يجتمع مع الجهل، لكنّه يجتمع مع السّهو، ألا يسهو العالم؟

والظاهر إنّ القائلين بهذه النظريّة، إنّما قالوا بها لعدم قدرتهم على الجمع بين العصمة والإختيار، لأنَّ علماءنا قالوا في تعريف العصمة:

«... بحيث يمتنع منه وقوع المعصية وترك الطاعة مع قدرته عليهما... ولا تنافي العصمة القدرة».[1]

المطلب الرابع: وبناءاً على هذه التعريفات، تبقى شبهة «تنافي العصمة مع القدرة»، فكيف يكون للمعصوم القدرة على إرتكاب المعصية، والحال أنَّ الله هو الذي يفعل ذلك به، كما قالوا «يفعله الله»، أي إنَّ الله هو الذي جعله معصوماً، فإذا كانت بجعل من الله، فكيف يكون مختاراً؟

ومن هنا، فإنّ بعض علماء أهل السنّة يأخذون علينا في هذا ويذكرون أنَّ القول بأن العصمة حالة يفعلها الله بالعبد لا يجتمع مع إنكار الجبر، والقول بأن العصمة بفعل الله لا يجتمع مع التصريح بالقدرة وعدم سلب الاختيار في تعريف العصمة.

ويبدو أنَّ الشيخ المفيد، السيد المرتضى، الخواجه نصير الدين الطوسي، العلّامة الحلّي رحمهم الله وغيرهم من أكابرنا الذين يصرحون بعدم سلب القدرة

---

(١) راجع: النكت الإعتقاديّة: ٣٧؛ تجريد الإعتقاد: ٢٢٢؛ كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد: ٤٩٤؛ شرح الباب الحادي عشر: ٨٩. للتحقيق الأكثر في هذا المجال راجع كتاب «العصمة» لمؤلف هذا الكتاب ودلائل الصدق: ٧٥٢ ـ ٧٥٥، باب عصمة الأنبياء والإمام.

والإختيار عن المعصوم، قد حلّوا هذه الشبهة بدون رفع اليد عن أنّه لا جبر ولا تفويض بل أمرٌ بين الأمرين.

القول بالعصمة لايستلزم القول بالجبر

وقد ذكروا وجوهاً لحلِّ هذه الشبهة. منها:

إنَّ الله تعالىٰ كان يعلم بأن هذه الذوات المقدّسة ـ المعصومين ـ مهما طالت أعمارهم في هذا العالم، فإنّهم لن يرتكبوا مخالفة أو ذنباً، لذا عَصَمَهم وطهَّرهم من كلّ رجس ودَنَس.

ولهذا نظائر في القرآن الكريم والروايات. فمثلاً ورد في معنى قوله تعالىٰ:

﴿وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُون﴾[1]

حيث جاءت كلمة «جعل» وكلمة «لمّا صبروا» بصيغة الماضي، وعندما يُسأل عن «صبرهم» متى كان؟ توجد عدة أقوال في الجواب، ولعلَّ أفضلها ما جاء في تفسير القمّي:

«قال: كان في علم الله أنَّهم يَصبرون على ما يُصيبهم فَجَعَلَهُم أئمَّةً».[2]

المطلب الخامس: هل للعصمة مراتب أمْ لا؟

وبعبارة أخرى، هل إنَّ العصمة حقيقةٌ مشككّة أم لا؟

نظراً إلى رأي العلماء في إنَّ حقيقة العصمة: هي اللّطف الإلهي، وإنَّ

(١) سورة السجدة (٣٢): الآية ٢٤.

(٢) تفسير القمي ٢ / ١٧٠.

المعصوم ـ بلطف الله ـ تحصل فيه حالة ينتفي فيها وجودُ الداعي إلىٰ فعل الحرام وترك الواجب، ولا يقع منه السّهو والنسيان. فإنه لا يمكننا أن نتصوّر التشكيكيّة في العصمة والقول بتعدّد مراتبها.

ولا يخفى أنَّ بين النبوّة والإمامة وبين العصمة، عموم مطلق، فكلّ نبي وإمام معصوم، وليس كلُّ معصومٍ بنبي أو إمام، وعليه، فمن نصب من قبل الله تعالىٰ لقيادة الامّة وجعله حجةً بينه وبين الخلق وأوجب عليهم طاعته واتّباعه على الإطلاق، فإنه يستحيل أنْ لايكون معصوماً.

وأمّا فيما يرتبط بمولاتنا الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها، فإنّ لها الولاية الكبرىٰ، ولكنّها ليست إماماً. وقد ذهب البعض إلىٰ أنَّ سلمان المحمدي معصوم أيضاً، ولكن لا في حدِّ عصمة الأئمّة عليهم الصّلاة والسّلام.

ولكن على هؤلاء أولاً أن يثبتوا تشكيكيّة العصمة.

ولا يبعد أن يكون مرادهم من عصمته، مرتبة عالية من العدالة تتلو العصمة في درجتها، إنطلاقاً من أنَّ إيمان سلمان كان أعلى رُتب الإيمان.

وعليه، سيكون البحث لفظياً، والله العالم.

حول آية التطهير

لقد أشير في هذه الفقرة من الزيارة الجامعة إلىٰ آية التطهير كما ذكرنا، ومن هُنا إرتأينا ضرورة البحث هنا بإيجاز عن هذه الآية.

إنَّ عصمة الأئمّة عليهم السّلام عليها أدلّة كثيرة في القرآن الكريم، والأحاديث الصّحيحة، فهي حقيقة إسلاميّة، ومن الناس من يدّعي في هذه الأيّام

أنّ مسألة عصمة الأئمّة لم تكن مطروحةً في القرون الأولى.

وللأسف، فإنّ هؤلاء يتدخّلون في أمور ليست من اختصاصهم، فهم يوقعون أنفسهم فيما يؤاخذون عليه في الدنيا والآخرة، كما إنّهم يتسببون في وقوع الآخرين في مثل هذه المآزق.

ولقد أثبتنا في مباحث الإمامة والولاية، عصمة الأنبياء في القرآن الكريم؛ وإنْ كانت بعض الآيات الكريمة توهم بعدم العصمة.

ومن الأدلّة على عصمة الأئمّة عليهم السّلام، آية التطهير، والتي أشير إليها في هذه الفقرة من الزيارة.[١]

يقول تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿إِنَّما يُريدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهيرا﴾[٢]

ولنوضّح معاني مفردات الألفاظ الواردة في الآية: «إنّما»، «يُريد»، «ليذهب»، «الرجس»، فنقول:

إنَّ «إنّما» سواءً كانت مركبة أو بسيطة، موضوعة وبتصريح أهل اللغة لإفادة الحصر، إلّا إذا وجدت قرينة صارفة عن ذلك.

يقول إبن منظور في لسان العرب:

«إذا اضيفت» إنَّ «إلىٰ» ما «فإنها تدلُّ على التعيين، مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكين﴾[٣]، فإنّها تدل على إثبات الحكم لهؤلاء ونفيه عن غيرهم»[٤]

---

(١) قد نشر للمؤلف ثلاثة بحوث في مجال آية التطهير.

(٢) سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٣٣.

(٣) سورة التوبة (٩): الآية ٦٠.

(٤) لسان العرب ١٣ / ٣٢؛ صحاح اللغة ٥ / ٢٠٧٣؛ القاموس المحيط ٤ / ١٩٨.

ولكنّ الفخر الرازي، أنكر دلالة «إنّما» على الحصر في آية الولاية وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُه﴾[1] قائلاً:

«ولا نسلِّم أنَّ الكلمة» إنّما «للحصر، والدّليل عليه قوله: ﴿إِنَّما مَثَلُ الْـحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماء﴾.[2] ولا شك أنَّ الحياة الدنيا لها أمثال أخرى سوى هذا المثل. وقال: ﴿إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهو﴾[3] ولا شك أنّ اللعب واللّهو قد يحصل في غيرها».[4]

وفي مسألة مفهوم الحصر في كتب علم الاصول طرح علماؤنا كلام الفخر الرازي على طاولة البحث، وأجابوا عنه بالتفصيل، كما قد ردّ عليه في الكتب الكلاميّة والتفسير أيضاً.

هل إنّ الإرادة تكوينيّة أم تشريعيّة؟

والمراد من كلمة «يُريد» هنا هو الإرادة التكوينيّة لله تعالىٰ، إذ لو كانت تشريعيّة، لما كانت إمتيازاً لأهل البيت عليهم السّلام.

ولذا، فإنّ إبن تيميّة يُصرُّ على أنَّ المراد هو الإرادة التشريعيّة في الآية، لينفي مدّعىٰ شيعة أهل البيت ـ وهو عصمة أهل البيت عليهم السّلام ـ بإنكار دلالة الآية على ذلك.[5]

---

(١) سورة المائدة (٥): الآية ١٥٥.

(٢) سورة يونس (١٠): الآية ٢٤.

(٣) سورة محمد صلّى الله عليه وآله (٤٧): الآية ٣٦.

(٤) تفسير الرازي ١٢ / ٣٠.

(٥) منهاج السنّة ٧/١٠٦ ـ ١١٠.

وقد أُجيب عن هذه الشبهة في محلّه.[١]

وأمّا كلمة «ليذهب» فهي بمعنى الدفع لا الرّفع.

وإنّ «الرّجس» هو الأعم من النقائص والقذارات الماديّة والمعنويّة، المحسوسة وغير المحسوسة.

وبالإلتفات إلىٰ هذه الخصوصيّات المأخوذة في الآية المباركة، تكون الآية دالّة على عصمة أهل البيت عليهم السّلام.

ومن جهة ثانية، فإنّ الأفعال «يُريد» و«ليذهب» في الآية الكريمة، مستندة إلىٰ الله تعالىٰ، كما ورد في الزيارة الجامعة «عصمكم» حيث أُسند الإعصام إلىٰ الله تعالىٰ.

كيفيّة دلالة الآية على العصمة

ويتّضح ـ ممّا ذكرناه في بيان معنى الآية المباركة ـ كيفيّة دلالتها على عصمة أهل البيت الذين خوطبوا بها عليهم الصّلاة والسّلام، وذلك يتلخّص في أنّ الله قد أذهب عن أهل البيت الرّجس بجميع مصاديقه بإرادته التكوينيّة التي لاتتخلّف وطهّرهم تطهيراً.

من هم أهل البيت؟

ومن هم أهلُ البيت الوارد ذكرهم في الآية؟

والجواب: إنّه ليس المراد من «أهل البيت» في هذه الآية إلّا الخمسة الطيّبة: رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين، عليهم الصّلاة والسّلام.

---

(١) راجع: شرح منهاج الكرامة ٢ / ٢٦٠ ـ ٢٦٧.

والقول باختصاص الآية بأزواج رسول الله صلّى الله عليه وآله باطل، وكذا القول بأنّ المراد هم الخمسة الطاهرة والأزواج معاً.

وذلك، لأنّ رسول الله قد فسّر الآية المباركة وعيّن المراد منها، كما في الأحاديث الصّحيحة المتّفق عليها، فكان على جميع المسلمين الأخذ بما قال، كما أمر الله سبحانه بقوله: ﴿مٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.(١) فلماذا يخالف بعض النّاس هذه السنّة النبويّة الثابتة، وهم يسمّون أنفسهم بأهل السنّة؟ إن كان المقصود من «السنّة» التي هم أهلها والحافظون لها سنّة النبيّ الأكرم لاغيرها؟

نعم، الأحاديث القطعيّة في المقام كثيرة...

وكنموذج لهذا التفسير النبوي للآية، لاحظوا ما جاء في مسند أحمد:

عن عطاء بن أبي رباح، قال:

«حدّثني من سمع أمّ سلمة تذكر أنّ النبي صلّى الله عليه وآله كان في بيتها، فأتته فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فدخلت بها عليه، فقال لها: ادعي زوجك وابنيك.

قالت: فجاء علي والحسين والحسن، فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له على دكان تحته كساء له خيبري. قالت: وأنا أصلي في الحجرة، فأنزل الله عزّوجلّ هذه الآية: ﴿إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.(٢)

قالت: فأخذ فضل الكساء فغشّاهم به، ثمّ أخرج يده فألوى بها إلىٰ السماء، ثمّ قال:

---

(١) سورة الحشر: آيه ٧.

(٢) سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٣٣.

اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

قالت: فأدخلت رأسي البيت فقلت: وأنا معكم يا رسول الله !

قال: إنّك إلىٰ خير، إنّك إلىٰ خير».[1]

وجاء في صحيح مسلم: عن صفيّة بنت شيبة، قالت:

«قالت عائشة: خرج النبي صلّى الله عليه وآله غداة وعليه مرط من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثمّ جاء الحسين فدخل معه، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها، ثمّ قال: ﴿**إِنَّما يُريدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً**﴾»[2]

فإذا كان النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله ـ كما ورد بسند صحيح ـ قد عيَّن المراد من «أهل البيت» في الآية الكريمة، فلماذا المكابرة مع رسول الله؟

ونقرأ في آية كريمة أخرى:

﴿**قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**﴾[3]

وقد نُقل بأسانيد صحيحة في كتب أهل السنّة أنَّ النبي صلّى الله عليه وآله قد عيَّن المراد من القربى وهم علي وفاطمة وحسن وحسين عليهم السّلام. ومن ذلك ما روي عن ابن عباس قال:

«لمّا نزلت ﴿**قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**﴾ قالوا: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الّذين وجبت علينا مودّتهم؟

---

(١) المسند، أحمد بن حنبل ٦ / ٢٩٢.

(٢) صحيح مسلم ٧ / ١٣٠؛ تاريخ مدينة دمشق ١٣ / ٢٠٢؛ السنن الكبرى ٢ / ١٤٩ ومصادر أخرى.

(٣) سورة الشورى (٤٢): الاية ٢٣.

قال: علي وفاطمة وابناهما». [١]

هذا، ولقد فسَّر رسول الله صلّى الله عليه وآله آية المباهلة تفسيراً عمليّاً.

فعندما نزل قوله تعالىٰ:

﴿فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُم...﴾ [٢]

خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله وعلي وفاطمة وحسن وحسين عليهم السّلام للمباهلة مع النصارى، وهذا تفسير عملي للآية المباركة.

فلماذا لم يقبل أهل السنّة هذه السنّة الواصلة إليهم بسند صحيح وقد ذكروه في كتبهم؟

وفي رواية أخرى، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال:

«أمَرَ معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسبّ أبا تراب؟

فقال: أمّا ما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله صلّى الله عليه وآله فلن أسبّه؛ لأن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إلي من حمر النعم. سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول له وخلّفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله ! خلّفتني مع النساء والصبيان؟

فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبوّة بعدي؟

وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطينّ الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله.

---

(١) المعجم الكبير ٣/ ٤٧، الحديث ٢٦٤١؛ مجمع الزوائد ٧/ ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران (٣): الآية ٦١.

قال: فتطاولنا لها، فقال: أُدعوا لي عليّاً.

فأُتي به أرمد، فبصق في عينه ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه.

ولمّا نزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُم﴾ الآية، دعا رسول الله صلّى الله عليه وآله عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: اللهم هؤلاء أهلي».[(١)]

فرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، عندما نزلت آية التطهير، قد عيّن «أهل البيت» قولاً وفعلاً، وشخّصهم بأشخاصهم، فهل بعد ذلك مجالٌ للإنكار والمكابرة؟

نعم، إنّه عكرمة البربري الخارجي ـ الذي قال أهلُ السنّة في حقّه أنه كذّاب وجرّحوه وطعنوا فيه[(٢)] ـ كان يدور في الأسواق ويقول: لا والله !! ليس كما تقولون، وإنّما نزلت آية التطهير في نساء النبي فقط !![(٣)]

ومنه يظهر أنّ المعروف عند المسلمين في ذلك الوقت هو أنّ آية التطهير نزلت في حقّ أهل البيت خاصّة، فكان عكرمة يخالف عامّة المسلمين ويدّعي إنّها في نساء النبي خاصّة !!

هذا الخارجي البربري الذي حضر عند ابن عباس مدّةً، ثمّ كذَب على إبن عباس، ونسب إليه ما لم يَقُله، فعاقبه علي بن عبد الله بن عباس وربطه بالحبل بباب بيت الخلاء، هل يكون كلامُه حجّة؟!

ومن هنا، كان حديث الكساء المذكور هو الخبر المشهور روايةً بين أهل

---

(١) صحيح مسلم ٧ / ١٢٠ و ١٢١؛ سنن الترمذي ٥ / ٣٠١، الحديث ٣٨٠٨؛ فتح الباري ٧ / ٦٠؛ السنن الكبرى ٥ / ١٠٧.

(٢) راجع: تاريخ مدينة دمشق ٤١ / ١٠٦؛ تهذيب الكمال ٢٠ / ٢٨٦؛ سير أعلام النبلاء ٥ / ٢٨.

(٣) راجع: تفسير الثعلبي ٨ / ٣٦؛ تفسير إبن كثير ٣ / ٤٩١؛ الدرّ المنثور ٥ / ١٩٨؛ فتح القدير ٤ / ٢٧٩.

السنّة بتفسير الآية، وبأسانيد صحيحة ومعتبرة، كما في صحيح مسلم، مسند أحمد، تفسير الطبري وغيرها من مصادرهم، حيث أنَّ النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم قد عيّن أهل البيت عمليّاً، ثمّ قال صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله:

«اللّهمّ هؤلاء أهلُ بَيتي».[١]

ومن جهة أخرى، فقد نصَّ غير واحدٍ من كبار علماء أهل السنّة، كأبي جعفر الطحاوي ـ وهو فقيه محدّث جليل القدر عندهم ـ وتقي الدين المقريزى، على هذه الحقيقة، وقالوا: إنّ المراد من الآية هم أهل البيت فقط.[٢]

فها هو الطحاوي في كتابه «مشكل الآثار»، بعد نقل روايات حول اختصاص آية التطهير بالنبي وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين وخروج أمِّ سلمة عن عنوان أهل البيت، يقول:

«فإن قال قائل: فإنّ كتاب الله تعالىٰ يدلّ على أنّ أزواج النبي هم المقصودون بتلك الآية، لأنّه قال قبلها في السورة الّتي هي فيها: ﴿يا أيُّها النَّبِي قُل لِأزْواجِكَ...﴾ فكان ذلك كلّه يؤذن به، لأنه على خطاب النساء لا على خطاب الرجال، ثمّ قال: ﴿إنَّما يُريدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْس﴾.

فكان جوابنا له: إنّ الذي تلاه إلىٰ آخر ما قبل قوله: ﴿إنَّما يُريدُ اللّهُ﴾... خطاب لأزواجه، ثمّ أعقب ذلك بخطاب لأهله بقوله تعالىٰ: ﴿إنَّما يُريدُ اللّهُ﴾

---

(١) صحيح مسلم ١٢١/٧؛ مسند احمد بن حنبل ١٠٧/٤ و ٢٩٢/٦؛ سنن الترمذى ٣٢٨/٥؛ السنن الكبرى، البيهقي ١٥٠/٢؛ السنن الكبرى، النسائي ١١٣/٥؛ تفسير جامع البيان ٩/٢٢ ـ ١٠، الحديث ٢١٧٣٠؛ صحيح ابن حبّان ٤٣٣/١٥؛ المعجم الكبير ٢٨١/٢٣ و ٣٣٣/٢٣؛ المعجم الأوسط ٣١٩/٧؛ المعجم الصغير ١٣٥/١؛ المستدرك على الصحيحين ٤١٦/٢؛ مجمع الزوائد ١٦٦/٩ ـ ١٦٩؛ الدرّ المنثور ١٩٩/٥.

(٢) إمتاع الأسماع ٥ / ٣٨٣ ـ ٣٨٨.

الآية، فجاء به على خطاب الرجال، لأنّه قال فيه: ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُم﴾ وهكذا خطاب الرجال، وما قبله فجاء به بالنون وكذلك خطاب النساء.

فعقلنا أنّ قوله: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ﴾، خطاب لمن أراده من الرجال بذلك، ليعلمهم تشريفه لهم ورفعه لمقدارهم أن جعل نساءهم ممّن قد وصفه لما وصفه به ممّا في الآيات المتلوة قبل الّذي خاطبهم به تعالىٰ.

وممّا دلّ على ذلك أيضاً ما قد حدّثنا... عن أنس: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان إذا خرج إلىٰ صلاة الفجر يقول: الصَّلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ﴾ الآية، وما قد حدّثنا.... أبو الحمراء، قال: صحبت رسول الله صلّى الله عليه وآله... في هذا أيضاً دليل على أنّ هذه الآية فيهم».[١]

ومع إحترامنا الخاص لامّ سلمة، لكنّها ليست مشمولة بالآية.[٢]

أفبعد كلّ هذا، هل يمكن أن تشمل آية التطهير عائشةَ وحفصةَ بعد ورود ما ورد في حقّهما في سورة التحريم، والذي وضّحناه في محلّه؟![٣]

هذا، وقد اُلّفت كتبٌ خاصّة كثيرة حول آية التطهير وحديث الكساء وقدّمت تحقيقات رشيقة في بعض الموسوعات، أثبتت ليس فقط بطلان القول باختصاص الآية بنساء النبي، وإنّما أبطلت حتّىٰ إشتراكهن مع أهل البيت فيها.

---

(١) مشكل الآثار ١ / ٣٣٧ ـ ٣٣٩.

(٢) راجع: الدرّ المنثور ٥ / ١٩٨؛ تفسير إبن كثير ٣ / ٤٩٣؛ المعجم الكبير ٣ / ٥٢ و ٥٣، حديث ٢٦٦٢ و ٢٦٦٤؛ تاريخ مدينة دمشق ١٤ / ١٤٠ و ١٤١ و ١٤٥؛ شواهد التنزيل ٢ / ٦٢، الحديث ٦٨٢ و ٦٨٣؛ مشكل الآثار ١ / ٣٣٦.

(٣) راجع: تشنيد المراجعات ٤ / ٣٧.

والحاصل: إنّ هذا الحديث الشّريف ـ الصحّيح سنداً عند الفريقين والواضح دلالةً ـ يثبت اختصاص آية التطهير بأهل البيت عليهم السّلام، وليس للمخالفين إلّا التمسّك بالسّياق. حيث يقولون: إنَّ آية التطهير قد وردت في ضمن الآيات المتحدّثة مع نساء النبي صلّى الله عليه وآله.

ويمكن الإجابة عن ذلك بعدّة وجوه:

الأوّل: إنَّ السياق قرينة عُرفية في الموارد التي لم يرد فيها الدليل، فنرجع إلىٰ السياق لنعرف معنى الكلام في حال عدم الدليل؛ وأمّا إذا قام الدليل في موردٍ على المعنى المقصود، لم يكن السياق حينئذٍ قرينة على المعنى المخالف لمضمون الدليل.

الثاني: إنّ قبول هذا السياق هو أوّل الكلام، كما ذكر غيرواحدٍ من علماء أهل السنّة، قالوا: لأنَّ الضمائر الموجودة في الآيات، ضمائر تأنيث، وعندما نصل إلىٰ هذه الآية نجد إنّ الضمير للتذكير، فأين السياق إذن؟

يقول ابن حجر المكّي الشّافعي في الصواعق المحرقة: «الفصل الأول في الآيات الواردة فيهم.

الآية الأولى، قال الله تعالىٰ: ﴿**إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ وأكثر المفسّرين علىأنّها نزلت علي علي وفاطمة والحسن والحسين، لتذكير ضمير «عنكم» وما بعده»[١]

وكذا قال الحافظ أبوجعفر الطّحاوي وغيره

وخير شاهد على عدم السياقية، هو أننا إذا رفعنا آية التطهير من بين تلك

---

(١) الصواعق المحرقة ٢ / ٤٢١؛ راجع: ينابيع المودّة ٢ / ٤٢٩.

الآيات في خطاب نساء النبي، لم يحصل أي خلل في نظم الآيات ويبقى الإرتباط بين الآيات المتناولة لنساء النبي محفوظاً.

الثالثة: أننا طرحنا في محلّه بحثاً كبروياً في أنَّ ترتيب سور القرآن الكريم وآياته الشريفة، بهذا النحو الموجود، هل كان في زمن رسول الله صلّى الله عليه وآله وبأمر منه أم لا؟

فهذا المطلب لابدّ من إثباته.

وعليه، فمجرَّد أن يقال: إنَّ آية التطهير وقعت بين الآيات المتعلّقة بنساء النبي صلّى الله عليه وآله، ولذا، فإن المراد منها هو نساء النبي !! مثل هذا الكلام لا يمكن قبوله أصلاً. وكذلك القول بمشاركتهنّ لأهل البيت في الآية المباركة، بدعوى أنّه مقتضى الجمع بين السياق و الحديث الصحيح الوارد في اختصاصها بأهل البيت،[١] فإنّه قول باطل، لأنّه على خلاف السنّة النبويّة المعتمدة كما عرفت.

ومن جهة أخرى، فإنّ التحقيق تكرر قصة حديث الكساء، وأنها لم تكن لمرّة واحدة، لأنّ الأحاديث الواردة فيها مختلفة وكلّها بأسانيد صحيحة، و لا يمكن الجمع بينها والقول بأنّها جميعاً ناظرة إلىٰ حادثة واحدة.

وهذا الأمر ليس عجيباً من رسول الله صلّى الله عليه وآله، فإنه كان يُكثر من الوصيّة بأهل بيته عليهم السّلام وبأنحاء مختلفة، وقد تكررت منه بعض المواقف، لبيان الأهميّة.

وكمثال لذلك، فإن رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقبل يوم غدير خُم، قال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»؛

---

(١) تفسير إبن كثير ٣ / ٤٩٢.

يقول بُريدة:

«غزوت مع علي عليه السّلام اليمن، فرأيت منه جفوةً، فلمّا قدمت على رسول الله صلّى الله عليه وآله ذكرت عليّاً، فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله صلّى الله عليه وآله يتغيّر، فقال: يا بريدة ! ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟

قلت: بلى يا رسول الله !

قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه».(١)

فالبعض يُشكل علينا ويقول: كيف ترون حديث الغدير عن فُلانٍ من الصّحابة، والحال أنه كان قد مات قبل حجّة الوداع؟

ونقول في الجواب: قد ورد بسند صحيح عن طريق الصحّابي أنّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، ثمّ ثبت موته بعد واقعة بدر، ممّا يدلّ على تكرّر صدور هذا الكلام منه صلّى الله عليه و آله.

ومن جملة المواطن التي وردت فيها هذه العبارة أيضاً، قضية المؤاخاة التي وقعت أوائل أيّام الهجرة.

ففي هذه القضيّة قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لعلي عليه السلام:

«ما يبكيك يا أبا الحسن؟

قال: آخيت بين المهاجرين والأنصار يا رسول اللّه، وأنا واقف تراني وتعرف مكاني ولم تؤاخ بيني وبين أحد. قال: إنّما ادّخرتك لنفسي، أ لا يسرّك أن تكون أخا نبيّك؟

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥ / ٣٤٧؛ المستدرك على الصحيحين ٣ / ١١٠؛ المناقب، الخوارزمي: ١٣٤؛ ينابيع المودّة ١ / ١٠٦؛ كشف الغمّة: ٢٩٢ ـ ٢٩٣؛ البداية والنهاية ٥ / ٢٢٨ و٧ / ٣٧٩؛ تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ١٨٧؛ خصائص أمير المؤمنين، النسائي: ٩٤ ـ ٩٥؛ تحفة الأحوذي ١٠ / ١٤٧، بحار الأنوار ٣٧ / ١٨٧، الحديث ٧٠و ٢١٩، الحديث ٨٨

قال: بلى يا رسول اللّه، أنّى لي بذلك.

فأخذ بيده وأرقاه المنبر، فقال: اللّهمّ هذا منّي وأنا منه، ألا إنّه منّي بمنزلة هارون من موسى، ألا من كنت مولاه فهذا علي مولاه...»[١]

إذن، فقول رسول الله صلى اله عليه وآله «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» لم يكن لمرّة واحدة، ولكنّ واقعة الغدير اشتهرت أكثر من بقيّة الموارد.

والنموذج الآخر، هو حديث الثقلين، المتواتر بين المسلمين، حيث قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«إنّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً».[٢]

فهذا الحديث أيضاً قد سُمع مراراً من لسان رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وعلى الإجمال، فحديث الكساء الشريف قد تكرر أكثر من مرّة، بناءاً على التحقيق الذي ورد في كتب أهل السنّة ومصادرهم المعتبرة؛ كما إنّ آية التطهير تكرّر نزولها.

وكذا، ثبت أن النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله قال مراراً وفي موارد مختلفة:

«اللهم هؤلاء أهل بيتي».

---

(١) العمدة: ١٦٩ و ١٧٠، الحديث ٢٦٢؛ غاية المرام: ١١٢؛ الطرائف: ١٤٩، الحديث ٢٢٤؛ مجمع الزوائد ١١١/٩، لقد جاء بعض هذا الحديث في: كشف اليقين: ٢٠٧ و ٢٠٨؛ المناقب، إبن المغازلي: ٩٩ و ١٠٠؛ كشف الغمّة ١ / ٣٣٥؛ بحار الأنوار ١٨٦/٣٧ و ١٨٧.

(٢) بحثنا عن هذا الحديث سنداً ودلالةً بالتفصيل في ثلاثة أجزاء من كتابنا الكبير نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار وقد تكرّر ذكره في هذا الكتاب لأهميّته البالغة من جهات مختلفة.

فلا استبعاد لتكرار صدور مثل هذه الكلمات من رسول الله صلّى الله عليه وآله، بل إنَّ عدّة من كبار علماء أهل السنّة قد صرّحوا في كتبهم بتكرر وقوع حادثة حديث الكساء، مع أننا لانحتاج إلىٰ توافقهم معنا في شئ من المسائل بعد قيام الدليل.

والخلاصة، هي إنَّ الروايات المعتبرة لحديث الكساء غير قابلة للجمع، فلا مناص من القول بتكرّر الواقعة.

حديث الكساء عن فاطمة الزهراء

ومن جملة موارد الحديث هو الخبر الوارد في اجتماعهم تحت الكساء في بيت الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزّهراء عليها السّلام، الذي يقرأ في مجالس المؤمنين منذ قديم الأيّام تبرّكاً به.

قال المحدّث الثقة الشيخ عبد الله البحراني:

«رأيت بخطّ الشيخ الجليل السيّد هاشم، عن شيخه السيّد ماجد البحراني عن الحسن بن زين الدين الشهيد الثاني، عن شيخه المقدّس الأردبيلي، عن شيخه علي بن عبد العالي الكركي، عن الشيخ علي بن هلال الجزائري، عن الشيخ أحمد بن فهد الحلّي، عن الشيخ علي بن الخازن الحائري، عن الشيخ ضياء الدين علي بن الشهيد الأول، عن أبيه، عن فخر المحقّقين، عن شيخه ووالده العلّامة الحلّي، عن شيخه المحقّق، ابن نما الحلّي، عن شيخه محمّد بن إدريس الحلّي، عن ابن حمزة الطوسي صاحب «ثاقب المناقب» عن الشيخ الجليل محمّد بن شهر آشوب، عن الطبرسي صاحب «الاحتجاج» عن شيخه الجليل الحسن بن محمّد ابن الحسن الطوسي، عن أبيه شيخ الطائفة، عن شيخه المفيد، عن شيخه

ابن قولويه القمّي، عن شيخه الكليني، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم ابن هاشم، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر البزنطي، عن قاسم بن يحيى الجلّاء الكوفي، عن أبي بصير، عن أبان بن تغلب البكري، عن جابر بن يزيد الجعفي، عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري، عن فاطمة الزهراء بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم».(١)

وهذا سند حديث الكساء عن فاطمة الزهراء عليها السّلام في كتاب «عوالم العلوم» للشيخ البحراني المتوفى سنة ١١٠٧. وورد قطعة منه في كتاب «الغرر و الدرر» للشيخ الديلمي المتوفّى سنة ٨٤١.

وقد أورد آية الله السيّد المرعشي رواية حديث الكساء عن الصدّيقة الطاهرة في تعاليق كتاب «إحقاق الحق» حيث قال:

«أنقلها من رسالة العالم الجليل الحجّة الزاهد الحاج الشيخ محمد تقي ابن الحاج الشيخ محمد باقر اليزدي البافقي نزيل قم».(٢)

ثم يقول: وقد نُقل هذا الحديث مسنداً في كتاب «عوالم العلوم» وهو من الكتب المعتبرة التي لم تطبع وتنشر لحد الآن.

ويضيف قائلاً:

«ثمّ طلبت من الفاضل الجليل الحجّة الشيخ محمد الصّدوقي اليزدي أن يستكتب من نسخ «العوالم» سند الحديث ومتنه».

ثم يقول بعد ذلك:

---

(١) عوالم العلوم، حياة الزهراء عليها السّلام ٢ / ٩٣٠.

(٢) شرح إحقاق الحق ٢ / ٥٣٣.

«وممن نقل المتن العلّامة الجليل الثقة الثبت شيخنا فخر الدين محمد علي الطريحي... وممّن يوجد في كلماته هذا المتن العلّامة الجليل الديلمي صاحب الإرشاد في كتابه الغرر والدرر، فيوجد فيه ما يقرب من نصف الخبر».

ثم يقول السيّد المرعشي:

«وكذا الحسين العلوي الدمشقي الحنفي من أسرة نقباء الشّام، وقد رأيته بخطّه».(١)

ولا يخفى أنّ هذا القدر كافٍ للوثوق بوقوع القضيّة وصدور الخبر، فلا مجال للمناقشة في السّند ولا في المتن ولا في دلالته.

فلا يقال في ناحية السند، إنّ الشيخ البحراني رحمه الله يقول: رأيت بخطّ... فمن يضمن بصحّة تشخيصه بأنّ ذلك الخطّ هو خط السيّد هاشم البحراني رحمه الله؟

إنَّ الشيخ عبد الله البحراني صاحب «عوالم العلوم» يشهد بأنَّ هذا هو خط السيّد هاشم البحراني، والشيخ ثقةٌ معتَمدٌ، ويقول: أنقله عن خط السيد هاشم.

فلو لم نعتمد على مثل هذه الشهادة، يلزم التشكيك بكلّ النسخ الخطيّة التي شهد عليها كبار علمائنا، كالشيخ البهائي والعلامة المجلسي وآخرين، حيث جاءت شهاداتهم على كتب الشيخ الصدوق و الشيخ الطوسي، وكتب أخرى غيرها فكانت دليلاً على ثبوت تلك الكتب ونسبتها إلى مصنّفيها.

ففي مكتبة السيد المرعشي في قم مجلّد بخطّه من كتاب «التبيان في تفسير القرآن» للشيخ الطوسي فهل من الجائز لغير أهل الاختصاص التشكيك في صحّة النسبة؟

---

(١) شرح إحقاق الحق ٢ / ٥٥٧ و ٥٥٨.

أبداً، لا تصح الخدشة بهذا النحو، فإنه لا يستقّر حينئذ حجرٌ على حجر، إلّا إذا ما أنكرنا وثاقة الشهود رأساً، والعياذ بالله.

ولا يقال إنّ هذا السند المنسوب إلىٰ السيد هاشم البحراني قدس سره، لم يُذكر في كتب السيد هاشم مثل كتاب «تفسير البرهان» وكتاب «غاية المرام» إذن، فالسند غير صحيح (!!)

كما لا يقال إنّ الكثير من كبار محدِّثي الشيعة الذين وردت أسماؤهم، في سلسلة السند، كالشيخ الكليني، الشيخ المفيد، الشيخ الطوسي، ابن شهر آشوب، والطبرسي رحمهم الله، لم يذكروا «حديث الكساء» في كتبهم.

أقول:

إذا لم يذكر المرحوم الكليني ـ مثلاً ـ حديث الكساء بهذا المتن المعروف، في كتابه الكافي، فهل يعني هذا أنّ الحديث غير صحيح؟!

أفهل كان الكليني ملتزماً بنقل كلّ علومه في الكافي ليقال: إنَّ ما نُقل في غير «الكافي» من أقوال الكليني، فهو كذب؟!

إذن، لا صرفُ الوجود دليلٌ على الصحة، ولا صرف عدم الوجود دليل على البطلان وعدم الصحة، وإنّما المهم هو النقل عن الثقات وصحّة سلسلة السند إليه.

وكذا الكلام في الشيخ المفيد، الشيخ الطوسي، والعلّامة الحلّي فيما لو وقعوا في سند حديثٍ من الأحاديث ولم يذكروا ذاك الحديث في أيٍ من كتبهم الفقهيّة والاصوليّة والروائيّة.

والحاصل، إنّ هذا الحديث معتبر ولو لم يرد في أيّ كتاب من الكتب المعروفة للفريقين، وحتّى في الكتب المهتمّة بجمع الأحاديث المنسوبة إلىٰ أهل البيت عليهم السّلام، مثل كتاب بحار الأنوار للعلّامة المجلسي.

ونحن نبيِّنُ أمراً كبروياً يكون مورداً للإستفادة دائماً، وهو:

إنَّ الأمر العدمي لا يعتبر أبداً دليلاً على الأمر العدمي، ولا يصح الاستدلال على العدم بالعدم، فلايقال للشخص: لست فقيهاً، لأنك لم تؤلّف كتاباً في الفقه ! فعدم تأليفك في الفقه دليلٌ على عدم فقاهتك.

إنّ مثل هذا الإستدلال باطل، لأنَّ عدم الكتابة في الفقه، ليس دليلاً على عدم الفقاهة أبداً، بل هو لازم أعمّ.

نموذج آخر: يقول البعض: إذا كانت الإمامة مهمة إلىٰ هـذه الدرجـة التـي تدّعون، فلماذا لم تُذكر في القرآن الكريم، ولم يصرَّح فيه باسم أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليهما السلام؟

إذن، فإمامة علي بن أبي طالب، باطلة !!

نقول في مقام الجواب: إنّ القرآن الكريم لم يذكر إلّا أسماء بعض الأنـبياء فقط، فهل إنّ نبوّة من لم تذكر أسماؤهم، باطلة؟

فبأي منطق يكون الأمر العدمي دليلاً على العدم؟!

ونموذج آخر؛ ما قيل: متى وأين قال الإمام الصّادق عليه السّلام، في كلامه وخطبه: «واللّعنُ الدائمُ على أعدائهم أجمعين؟»

فمادام الإمام الصّادق عليه السّلام لم يقل ذلك، لا يجوز لعن الأعداء فـي الخطب، لأنه عليه السّلام لم يلعن أحداً !!

أفهل يكون الأمر العدمي دليلاً على العدم؟

ألا يحتمل أن الإمام الصّادق عليه السّلام كان في حال التقيّة؟

ألا تحتملون أنّه عليه السّلام قال ذلك ولم يَصِلنا؟[١]

إذن، فهذه كبرى كليّة، وهي إنَّ الأمر العدمي لا يكون دليلاً على العدم.

والآن، وعوداً إلىٰ صلب الموضوع نقول: لو قيل: إنَّ كبار علماء الفريقين لم يرووا قضية حديث الكساء، بالمتن الموجود بأيدينا، فالجواب:

من قال إنّ علماء الفريقين لم يرووا ذلك؟ ومن المحتمل جدّاً أن تصل إلىٰ أيدينا في مستقبل الأيام كتب لم تكن قد وصلتنا لسبب من الأسباب، أو تطبع وقد كانت مخطوطة ولم تنشر لحدِّ الآن.

أين كتاب «مدينة العلم» للشيخ الصدوق، من كتب أصحابنا؟

و أين كتاب «الأحداث» لأبي الحسن المدائني، من كتب غيرنا؟

أين مئات الكتب من هذا القبيل؟

ولماذا حالوا دون وصول هذه الكتب إلينا؟!

ولماذا لم تصل بعض فصول «تاريخ البلاذري» إلىٰ أيدينا، إلّا في السنوات الأخيرة؟

ولماذا لم يطبع وينشر «تاريخ ابن عساكر» إلّا أخيراً، مع إنّه محشوٌ بالأباطيل؟

وعندما طبَعَ أهل السُنَّة كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد، ونشروه، لم ينشروا المجلد الخاص بالحسنين عليهما السلام، لماذا؟!

---

(١) جاء في رواية:

«سمعنا أبا عبد الله عليه السّلام وهو يلعن في دبر كلّ مكتوبة أربعة من الرجال وأربعاً من النساء.

بحار الأنوار ٣٠. ٣٩٧، الحديث ١٧٠ نقلاً عن» التهذيب ٢ / ٣٢١، الباب ١٥، الحديث ١ . للتحقيق راجع الكافي ٣ / ٣٤٢، الحديث ١٠؛ تفسير العيّاشي ١ / ٣٨٧، الحديث ١٤٠؛ رجال الكشّي: ١٣٥؛ الخرائج والجرائح ١ / ٢٩٢؛ بحار الأنوار ٢٧ / ٢٩ و ٣٠ / ٣٨٣ و ٣٨٤ و ٤٧ / ٣٢٣، الحديث ١٧.

إذن، فمن أين نتيقن أنَّ حديث الكساء غير موجود في تلك الكتب التي لم تصل إلىٰ أيدينا؟

فبأي دليل يقال ببطلان قضيّة حديث الكساء في بيت الزّهراء الطّاهرة عليها السّلام، و أنّها فاقدة للمصدر و لا أصل لها؟

هذا، فضلاً عن الكتب الكثيرة التي أتلِفَت فلم يبق لها عين ولا أثر، خاصّةً في أحوال الرّسول وأهل بيته، وحوادث صدر الإسلام!! ولذا، فإنَّ نفي أو إثبات الأمور بهذه الطريقة باطلٌ.

وقد يقال: إنّ المحدّث الشيخ عباس القمّي رحمه الله لم يذكر حديث الكساء عن الزهراء في كتابه المعروف «مفاتيح الجنان»، بل لقد ذكر في كتابه «منتهى الآمال» بأنّه لم يجد هذا الحديث في الكتب المعروفة وأصول الحديث ومجاميع المحدّثين المعتمدة، وأنّه يمكن القول بأن حديث الكساء عن الزّهراء عليها السّلام مما انفرد به كتاب المنتخب للطّريحي.

ولكن الجواب:

أوّلاً: إنّما قال هذا قبل أنْ يطّلع على وجود الخبر في كتاب «عوالم العلوم» وإلّا لاعتمد على روايته وأدرج الحديث في كتاب المفاتيح.

وثانياً: إنه قد وضع حديث الكساء في الطبعة الثانية التي كانت على حياته وتحت إشرافه، كما أخبرنا بذلك نجله العالم الجليل الشيخ محسن رحمه الله، ولولا ثبوته عنده لَما أضافه، ولاسيّما مع تنصيصه على المنع من إضافة شئ إلى كتابه من بعده.

وهذا تمام الكلام على سند حديث الكساء في دار الزّهراء الطاهرة.

وأمّا بالنسبة إلى متن هذا الحديث و مفاده:

فقد اشتمل هذا اللفظ على ما ليس في غيره من ألفاظ حديث الكساء، والمهمّ من ذلك هو ما ورد فيه عن الله سبحانه من قوله:

«ما خلقت سماءً مبنيّةً ولا أرضاً مدحيّةً ولا قمراً منيراً ولا شمساً مضيئةً ولا فلكاً يدور ولا بحراً يجري ولا فلكاً يسري، إلّا لأجلكم و محبّتكم».

فربما يتوهّم بعض الغافلين عن أنّ هذه الجُمل غلوٌّ، فالحديث بالتالي غير صحيح.

ولكنّ الأحاديث الواردة في كتب الفريقين بهذه المضامين كثيرة، وقد أوردنا جملةً منها عن الكتب المعروفة في هذا الكتاب بالمناسبة.

وبعد، فإنّه لا ريب في ترتب الثواب على قراءة هذا الحديث على أساس قاعدة أخبار «من بلغ» التي عمل بها الفقهاء وأفتوا بناءً عليها في كثير من الموارد.

وعلى كلّ حالٍ، فقد قامت السّيرة عند أهل الولاء لأهل البيت عليهم السّلام بقراءة هذا الحديث في مجالسهم والتّبرك به و التّوسل به إلى الله في حوائجهم.

حال الأئمّة عليهم السّلام في قبال المقامات الموهوبة

فَعَظَّمْتُمْ جَلَالَهُ، وأَكْبَرْتُمْ شَأْنَهُ، ومَجَّدْتُمْ كَرَمَهُ، وأَدْمَنْتُمْ ذِكْرَهُ، ووَكَّدْتُمْ مِيثَاقَهُ، وأَحْكَمْتُمْ عَقْدَ طَاعَتِهِ، ونَصَحْتُمْ لَهُ فِي السِّرِّ والْعَلَانِيَةِ، ودَعَوْتُمْ إِلَى سَبِيلِهِ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وبَذَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي مَرْضَاتِهِ، وصَبَرْتُمْ عَلَى مَا أَصَابَكُمْ فِي جَنْبِهِ، وأَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ، وآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ، وأَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، ونَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ،

وجَاهَدْتُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ، حَتَّى أَعْـلَنْتُمْ دَعْوَتَهُ وبَيَّنْتُمْ فَـرَائِـضَهُ وأَقَـمْتُمْ حُـدُودَهُ ونَشَرْتُمْ شَرَائِعَ أَحْكَـامِهِ، وسَـنَنْتُمْ سُـنَّتَهُ، وصِرْتُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ إِلَى الرِّضَا، وسَلَّمْتُمْ لَهُ الْقَضَاءَ وصَدَّقْتُمْ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ مَضَى؛

المقدمة

إنّ الله تعالىٰ منح الأئمّة الأطهار عليهم السّلام تفضّلاً منه عليهم كلَّ تلك المقامات والمنازل التي مرَّ ذكرها في فقرات الزيارة السّابقة، وهذا المقطع من الزيارة يتعرّض ـ بفاء التفريع ـ لبيان كيفية شكر الأئمّة عليهم السّلام لله تعالىٰ على تلك النعم والعطايا الإلهيّةَ.

ويمكن البحث عن مفاهيم هذا المقطع من جهتين:

١ ـ المدلول الكلّي للمقطع.

٢ ـ النقاط التي تتضمنها كلُّ جملة من جُمَلِهِ.

ما تفيده الفقرة من حيث المجموع

إنَّ المقامات الجليلة و المناصب العظيمة المذكورة هنا قد جاءت بصيغة الفعل الماضي، للدلالة على تحقّقها على وجه اليقين من الله تعالىٰ للأئمّة الأطهار عليهم السّلام، كلُّها أفعالٌ مستندة إلىٰ الباري عزّوجلّ: «إجتباكم، إختاركم، إصطفاكم، هداكم...» للدلالة على أنّها من الله.

فماذا ينبغي على الأئمّة أن يفعلوا لشكر هذه النعم؟ وماذا فعلوا عليهم السّلام؟ لو أنّ أحد أفراد البشر أُعطي مقاماً دنيوياً، كيف يتصرّف؟!!

يقول تعالىٰ في كتابه الكريم:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى﴾[١]

وهذا هو مقتضى طبع الإنسان، يطغى إذا ما حصل على مقام. وللطغيان مراتب، وهي بالترتيب:

١ ـ الغرور.

٢ ـ الإستغناء عن ولي نعمته والمتفضّل عليه، والتنكر له.

٣ ـ والمرتبة الأعلىٰ، الندّية لولي النعمة، بأن يرى نفسه في عرض ولي نعمته.

٤ ـ وقد يصل الأمر أحياناً إلىٰ الانقلاب على ولي النعمة ومحاربته علناً لإفنائه.

والأئمّة الأطهار عليهم السّلام، بشرٌ، لكنّهم يختلفون عن سائر البشر. لأنّ الله تعالىٰ أعطى الأئمّة كلّ تلك المقامات وجعلهم في تلك المنزلة السامية التي لا تتيسّر لأحد من البشر غيرهم، ومع ذلك، فليس فقط لم تتغيّر أحوالهم نحو الطغيان، بل كان خضوعهم وخشوعهم لله يزداد ويتضاعف كلّما سَمت مقاماتهم أكثر فأكثر.

فكأنّما هي علاقة طرديّة بين الله تعالىٰ وبين الأئمّة عليهم السّلام. فكلّما إزداد عطاء الله وكثرت مقاماتهم وسمت منازلهم، كلّما إزداد إستصغارهم لأنفسهم في قبال ولي نعمتهم، وزاد خضوعهم وتذلّلهم له.

وكذلك العكس صحيح، فكلّما إزداد خضوعهم وتذللهم لله، كلّما رفع الله مقاماتهم وزادهم وجاهةً وسموّاً وعزّة.

---

(١) سورة العلق (٩٦): الآيتان ٦ و٧.

ومن هنا قلنا سابقاً، وإستناداً إلىٰ الروايات: إنَّ الأئمّة عليهم السّلام إذا ما وصلوا إلىٰ مرتبة عالية ومقام شامخ، فإن ذلك عن طريق العبودية لله، وكذا من تربى في مدرسة أهل البيت عليهم السّلام ونال مرتبةً معينة.

والحقيقة، إنَّ رابطة العبوديّة والطاعة بين العبد ومولاه، على ثلاثة أنحاء:

١ ـ تارة، تكون طاعة العبد وعبادته بحدٍّ لا تتعدّى عدم التمرّد على الأوامر والنواهي. وهذا المقدار من الطاعة والعبوديّة جيّد جدّاً، ويوصف مثل هذا الإنسان بأنه عامل بالواجبات، تارك للمحرّمات وهذه هي التقوى.

٢ ـ وتارة، يكون العبد بمرتبة تتعدى عدم التمرّد على الواجبات والمحرّمات، بل يحاول العبد عدم مخالفة المولى في المندوبات والمكروهات وسائر ما لا يؤاخذه على مخالفته. ورتبة هذا العبد ـ بطبيعة الحال ـ أعلى من رتبة السابق، وهو أكثر قرباً إلىٰ المولى من الأول.

٣ ـ وتارة، يحبُّ العبد مولاه و تشتدّ علقته به، فتصل إلى درجةٍ هي أعلى من المرتبتين السّابقتين، فيحصل له به الأنس و القرب منه بحيث يطّلع على كلّ مايحبّ و يكره، فيفعل ما يحبّ ويترك ما يكره قبل أن يصدر الأمر والنهي من المولى.

وكمثال تقريبي لهذا المعنى: عادة ما يكون في بيت مرجع التقليد عدة أشخاص يعملون ويخدمون، وكلّهم محبّبون عنده وأعزّاء، ولكن قد يتّفق أن يكون أحدهم مقدّماً على غيره و مقرّباً عنده أكثر من الآخرين. وهذا إنّما ينشأ عن معرفة هذا الشخص الموظف أو الخادم بروحيّات المرجع ومطلّعاً على تطلّعاته وما يحبُّ ويكره، فهو يعلم ما هو المناسب لحال المرجع في الساعة الكذائيّة، فيسرع بإحضاره إليه قبل أن يطلب.

والأئمّة عليهم السّلام، ليسوا مطيعين لله تعالىٰ في أوامره ونواهيه فحسب، ولا هم غير تاركين للأولى فحسب، بل هم مسارعون إلىٰ فعل كلِّ ما يوجب محبّة الله ورضاه، حتّىٰ وإن لم يصدر حكمٌ بشأنه. كما إنّهم يتجنّبون كلَّ ما يمكن أن يُسخط الربَّ ولا يرضاه أو يُغضِبُه، وإن لم يصدر النهي فيه.

ولذا فهم عليهم السّلام أقرب إلىٰ الله من سائر خلقه، وأعزّهم عنده.

ولكن علاقة الأئمّة عليهم السّلام بالله تعالىٰ، غير قابلة للدرك من قبلنا، فهي فوق حدِّ تصورنا، وما ذكرناه إنّما هو لتقريب المطلب إلىٰ الأذهان.

فالأئمّة عليهم السّلام قد وصلوا ـ على أثر العبوديّة الحقّة ـ إلىٰ مرتبة صار فعلهم وتركهم فيها دليلاً على إرادة الله تعالىٰ، وقد أُشير إلىٰ هذه الحقيقة في الروايات الشريفة وفي بعض مقاطع الزيارة الجامعة.

يقول تعالىٰ في كتابه المجيد في هذا المضمار:

﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون﴾[١]

ونقرأ في زيارة الإمام صاحب الزمان عليه السّلام:

«السلام عليك يا... دليل إرادته»[٢]

والحاصل، إنَّ الجامع بين كلِّ عبارات هذا المقطع هو الخشوع والخضوع بين يدي الله تعالىٰ وشكر تلك النعم الإلهيّة والمقامات الربانيّة، على إختلاف ألفاظ العبارات.

---

(١) سورة الأنبياء (٢١): الآيتان ٢٦ و٢٧.

(٢) الإحتجاج ٢ / ٣١٦؛ المزار، محمد بن المشهدي: ٥٦٩؛ بحار الأنوار ٥٣ / ١٧١، الحديث ٥.

فَعَظَّمتُم جَلالَهُ

قال الراغب الإصفهاني في هذه الكلمة:

«الجلالة: عظم القدر، والجلال ـ بغير الهاء ـ التناهي في ذلك، وخصّ بوصف الله تعالىٰ فقيل: ﴿ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ﴾[1] ولم يستعمل في غيره».[2]

وجاء في مجمع البحرين:

««الجليل» من أسمائه تعالىٰ، وهو راجع إلىٰ كمال الصفات، كما إنّ «الكبير» راجع إلىٰ كمال الذات، و«العظيم» راجع إلىٰ كمال الذات والصفات».[3]

وكما قلنا سابقاً؛ فإن جملة «إصطفاكم بعلمه» وما بعدها، إشارةٌ إلىٰ المقامات الإلهيّة المعطاة للأئمّة عليهم السّلام، كالعلم، القدرة، الهداية، الحكمة، الطهارة و....

وفي هذا المقطع بيانٌ لخشوع وخضوع وتذلّل الأئمّة عليهم السّلام في قبال جامعيّة الحق تعالىٰ لتلك الصفات بشأنها المطلق الكامل اللّامتناهي، وإنّ كلَّ ما عندهم عليهم السّلام هو من الله تعالىٰ الذي عنده كلّ صفات الكمال و في أعلى المراتب.

إنَّ العباد كلّهم، يعظّمون الله تعالىٰ، و يتصاغرون أمام جلاله، و لكنّ كلَّ واحدٍ منهم يفعل ذلك بما يتناسب مع مقدار معرفته بالله تعالىٰ، فأين تعظيمنا لله من تعظيم الأئمّة عليهم السّلام؟

---

(١) سورة الرحمن (٥٥): الآية ٢٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٩٤ـ ٩٥.

(٣) مجمع البحرين ١ / ٣٨٩.

وأكبَرتُم شأنَهُ

يقول الراغب الإصفهاني:

«أكبرت الشيئ: رأيته كبيراً، قال: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَه﴾[١]

والتكبير يقال لذلك ولتعظيم الله تعالىٰ بقولهم: الله أكبر...»[٢]

وما هو الشأن؟

يقول الراغب الإصفهاني:

«الشأن: الحال والأمر الذي يتّفق ويصلح، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ في شَأْن﴾[٣]»[٤]

و قد ورد في تفسير الآية:

عن أمير المؤمنين عليه السّلام في خطبةٍ مرويّة في الكافي والقمّي قال:

«يحيي ويميت ويرزق ويزيد وينقص»

وفي المجمع عن النبي صلّى الله عليه وآله في هذه الآية قال:

«من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرّج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين»

قيل: هو ردّ لقول اليهود، إنّ الله لا يقضي يوم السبت شيئاً أو إنّه قد فرغ من الأمر.[٥]

فالأئمّة عليهم السّلام يعرفون شأن الله، يعني قدرته على الامور كلّها، وأنّ كلّ ما عند العباد فهو منه تعالىٰ، وأنّه جلّ وعلا غني على الإطلاق، وأنّ عظمته هذه لا توصف ولا تدرك، يعلمون ذلك فيتصاغرون ويتواضعون قباله.

---

(١) سورة يوسف (١٢): الآية ٣١.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٤٢٢.

(٣) سورة الرحمن (٥٥): الآية ٢٩.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ٢٧١.

(٥) تفسير الصافي ٥ / ١١٠.

وَمَجَّدتُم كَرَمَهُ

قال الراغب الإصفهاني في «المفردات في غريب القرآن»:

«المجد: السّعة في الكرم والجلال... وقولهم في صفة الله تعالىٰ: المجيد أي يجري السعة في بذل الفضل المختصّ به. وقوله في صفة القرآن: ﴿ق * وَالْقُرْآنِ الْمَجِيد﴾،[١] فوصفه بذلك لكثرة ما يتضمّن من المكارم الدّنيويّة والأخرويّة... والتمجيد من العبد لله بالقول وذكر الصفات الحسنة، ومن الله للعبد بإعطائه الفضل»[٢]

ثمّ يفسّر «كرم» ويقول:

«إذا وُصف الله تعالىٰ به فهو اسمٌ لإحسانه وإنعامه المتظاهر».[٣]

وعلى هذا، سيكون معنى هذه العبارة: إنَّ الأئمّة عليهم السّلام يعرفون سعة إحسان الله وكثرة نعمه، فهم واقفون تماماً على هذا المعنى، ولذا، فهم يشكرونه على ذلك ويتخضّعون ويتذلّلون له بأعلى مراتب التذلّل والخضوع.

وَأَدَمتُم ذِكرَهُ

إنّ الأئمّة عليهم السّلام دائموا الذكر، فهم مدمنون على ذكر الله تعالىٰ.

معنى الذكر

والذكر ما يقابل الغفلة والنسيان.

قال في مجمع البحرين:

---

(١) سورة ق (٥٠): الآيتان ١ و٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٤٦٣ و٤٦٤.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٤٢٨.

«الذكر بالكسر: نقيض النسيان».[١]

وأمّا الراغب الإصفهاني، فيقول في المفردات:

«الذكر ذكران، ذكرٌ بالقلب وذكرٌ باللسان، وكلٌّ واحدٍ منها ضربان، ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان، بل عَن إدامة الحفظ»[٢]

فالأفضل أن نقول: الذكر: عدم الغفلة

هذا، وقد أشرنا في شرحنا لعبارة «وأهل الذكر» جانباً من ذكر الأئمّة عليهم سلام الله تعالىٰ، ولكنَّ جملة «وأدمتم ذكره» جاءت لبيان دوام ذكر الأئمّة عليهم السّلام وديمومته.

بيان دوام الذكر

نعم، فأئمّتنا هم العاملون بالآيات الواردة في باب الذكر، وهم المصاديق التامة لـ«أهل الذكر» ومن كلِّ الجهات.

فمن جهة كثرة الذكر، يقول تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثيراً﴾.[٣]

ومن جهة حالات الذكر، يقول تعالىٰ:

﴿الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِهِمْ﴾.[٤]

ومن جهة الظهور والخفاء، يقول تعالىٰ:

---

(١) مجمع البحرين ٢ / ٩٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ١٧٩.

(٣) سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٤١.

(٤) سورة آل عمران (٣): الآية ١٩١.

﴿وَ اذْكُرْ رَبَّكَ في نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خيفَةً﴾.[1]

ومن جهة الأزمنة، يقول تعالىٰ:

﴿وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصيلا﴾[2]

وإن كان الواجب سائر على المؤمنين أيضاً أن يكونوا دائمي الذكر بتمام معانيه.

وعن أبي بصير عن الإمام الصّادق عليه السّلام، قال:

«إن سمعت الأذان وأنت على الخلاء، فقل مثل ما يقول المؤذن ولا تَدَع ذكر الله عزّوجلّ في تلك الحال، لأنّ ذكر الله حسن على كلّ حال.

ثمّ قال عليه السّلام: لما ناجى الله عزّوجلّ موسى بن عمران عليه السّلام قال موسى: يا ربّ أبعيد أنت منّي فأناديك؟ أم قريب فأناجيك؟

فأوحى الله عزّوجلّ إليه: يا موسى أنا جليس من ذكرني.

فقال موسى عليه السّلام: يا ربّ ! إنّي أكون في حال أجلّك أن أذكرك فيها.

قال يا موسى: اذكرني على كلّ حال !».[3]

وقال عليه السّلام أيضاً:

«لا بأس بذكر الله وأنت تبول، فإنّ ذكر الله عزّوجلّ حسنٌ على كلّ حال، فلا تسأم من ذكر الله».[4]

ولكنَّ للذاكر شروطاً وآداباً، فإنّ ذكر الله ينبغي أن يكون بنحوٍ يستتبع ذكرَ الله تعالىٰ للذاكر. قال تعالىٰ في سورة البقرة:

---

(١) سورة الأعراف (٧): الآية ٢٠٥.

(٢) سورة الإنسان (٧٦): الآية ٢٥.

(٣) علل الشرائع ١ / ٢٨٤، الحديث ١؛ بحار الأنوار ٨١ / ١٧٥، الحديث ٦.

(٤) الكافي ٢ / ٤٩٧، الحديث ٦.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.[١]

وأن يكون الذكر مستتبعاً للاطمئنان والاستقرار النفسي. يقول تعالىٰ:

﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب﴾[٢]

آثار دوام الذكر

وما هي آثار كلٍّ واحد من الأذكار؟

فهل إنّ المراد من أنّ الأئمّة دائموا الذكر، هو قولهم دائماً «سبحان الله والحمد لله»؟

أم إنَّ المراد هو أنَّ هؤلاء الكرام لم يغفلوا ولو للحظة واحدة عن الله تعالىٰ، وفي كلّ أحوالهم وساعاتهم؟

ترى، أيكون الإنسان ذاكراً لله تعالىٰ، وهو ساكت؟

أيكون الإنسان ذاكراً لله تعالىٰ حتّىٰ لو كان يتكلم مع الآخرين؟

أيكون الإنسان ذاكراً حتّىٰ لو انشغل بشغل من مشاغل الدنيا ومتطلباتها؟

نعم، يمكن ذلك، ولكن لأي طائفة من البشر؟

يمكن ذلك للذاكرين حقيقةً، اولئك الذين لا يغفلون عن الله تعالىٰ حتّىٰ لأقلِّ من لحظة وفي كلِّ أحوالهم.

فالمصداق الأتمّ لـ «ذكر الله حَسَنٌ على كلِّ حال» هم الأئمّة عليهم السّلام، وبذلك فقط لا يكون الإنسان منفصلاً وبعيداً عن الله تعالىٰ.

---

(١) سورة البقرة (٢): الآية ١٥٢.

(٢) سورة الرعد (١٣): الآية ٢٨.

يقول تعالىٰ في الحديث القدسي:

«أنا جَليسُ مَن ذَكرَني».[١]

فمن لا يغفل عن الله تعالىٰ أبداً، هو في محضر الله جلَّ وعلا، فكيف يكون منفصلاً عنه وبعيداً منه وهو في محضر قدسه؟

فكلّ وجود الأئمّة عليهم السّلام، سكوتهم، نطقهم، إنشغالهم بالامور الحياتية العادية، وكلّ حالاتهم هي ذكرُ الله تعالىٰ، لماذا؟ لعدم غفلتهم عن الله.

فالذكر بمعنى عدم الغفلة، لذا فهم دائماً ذاكرون، في الظاهر والباطن، وهم مع الله دائماً، وعنده. وهذا هو ما يقوله الراوي:

«قال لي أبو عبد الله عليه السّلام: ألا اُحدّثك بأشدّ ما فرض الله عزّوجلّ على خلقه؟

قلت: بلى.

قال: إنصاف الناس من نفسك ومواساتك لأخيك وذكر الله في كلّ موطن. أما إنّي لا أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذلك، ولكن ذكر الله في كلّ موطن إذا هجمت عليّ طاعة أو معصية».[٢]

فالمهم هنا، هو أن يكون الذكر مؤثراً في وجود الإنسان وسلوكه، بنحو يجعله مع الله دائماً وفي كلّ أحواله، فمهما واجه من اُمور ـ إلهيةً كانت أو شيطانية ـ لابدَّ أن يتصرّف بما يُرضي الله، ففي الإطاعات، عليه أن يسارع إليها ولا يتوانى، وفي المعاصي عليه أن يستحضر الله ويعصي الشيطان ولا يستجيب لإغراءاته.

---

(١) الكافي ٤٩٦/٢، كتاب التوحيد: ١٨٢، علل الشرائع ٢٨٤/١.

(٢) معاني الأخبار: ١٩٣، الحديث ٣؛ بحار الأنوار ٩٠/ ١٥٤ و١٥٥، الحديث ١٧.

وإذا ما ابتُلي بمفرق طريقين في حياته، أحدهما يؤدي إلىٰ طاعة الله والثاني إلىٰ طاعة الشيطان، فسيكون ذكرُ الله سبيل نجاته.

وأساساً، متى يطمع الشيطان بالإنسان ويحاول إغوائه؟

إنه يطمع فيه حينما يجده غافلاً عن ذكر ربّه وغير مجالس له، فالغفلة عن الله تعالىٰ تساوي مجالسة الشيطان والسقوط في شباكه.

وهذا هو معنى قوله تعالىٰ:

﴿وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرين﴾[1]

والحقيقة، هي إن الشيطان يبذل كلَّ جهده من أجل إغفال الإنسان عن ذكر ربّه. يقول تعالىٰ:

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّه﴾[2]

فالأئمّة الأطهار عليهم السّلام، دائمو الذكر بكلّ ما للكلمة من معنى، فلا يدانيهم أحد في «الدوام» ولا في «الذكر»، وكلّ من وصل إلىٰ مرتبة من المراتب عن هذا الطريق، فهو تابع لهم ومستفيد منهم، لأن حقيقة الذكر إنّما هي عندهم، بل إنّ ذكرهم هو ذكر الله، ولذا يقول الإمام الصّادق عليه السّلام:

«ما اجتمع في مجلس قومٌ لم يذكروا الله عزّوجلّ ولم يذكرونا إلّا كان ذلك المجلس حسرةً عليهم يوم القيامة.

ثمّ قال: قال أبو جعفر عليه السّلام: إنّ ذكرنا من ذكر الله وذكر عدوّنا من ذكر الشيطان».[3]

---

(١) سورة الزخرف (٤٣): الآية ٣٦.

(٢) سورة المجادلة (٥٨): الآية ١٩.

(٣) الكافي ٢/٤٩٦، الحديث ٢.

فلاحظوا المراتب التي يصل إليها أتباع أهل البيت عليهم السّلام، ولاحظوا عاقبة أمر أتباع المدارس الاخرى !!

وقد ورد في الحديث الصحيح، بل المتواتر عن رسول الله صلّى الله عـليه وآله إنّه قال:

«مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها هلك»(١)

فنحن نريد إتّباع أهل البيت عليهم السّلام، ونكون معهم في مدرستهم، لا أن نكون مع أهل الحلقات الخاصّة بأفرادٍ خاصيّن، وفي زمان ومكان خاصّين، وذكر خاصّ مشتمل على الفسق والفجور، فأين هذا مِن هذا؟

طرق الوصول إلىٰ الله

ولابدّ من التذكير هنا، بأنّ الذكر وإن كان له تاثير في تهذيب النفس وزيادة كمالاتها، إلّا أنّ التوسل بأهل البيت عليهم السّلام وإتّباع مقام العصمة، هو أقرب الطرق الموصلة للكمال وأسرعها، وهذا ما أشرنا إليه مراراً، وكلّ من وصـل إلىٰ درجة من الكمال والقرب إلىٰ الله، فإنما وصل ببركة التوسل بـهم والسّير عـلى طريقهم صلوات الله وسلامه عليهم، لأنّ طريق غير أهل البيت عليهم السّلام، هو طريق ضلال لا يوصل إلّا إلىٰ المتاهات.

وهذا هو صريح القرآن الكريم بقوله تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقين﴾(٢)

---

(١) بحثنا عن هذا الحديث بالتفصيل في الجزء الرّابع من كتابنا الكبير، ونذكره في هذا الكتاب بالمناسبة.

(٢) سورة التوبة (٩): الآية ١١٩.

يقول بُريد العجلي:

«سألت أبا جعفر عليه السّلام عن قول الله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقين﴾؛

قال: إيّانا عنى»؛[١]

ووَكّدتُم ميثاقَهُ وأحكمتُم عَقدَ طاعَتِهِ

قال الراغب الإصفهاني في معنى: «الميثاق»:

«الميثاق عقدٌ مؤكدٌ بيمين وعهد».[٢]

ومن عبارته هذه يُفهم أنّ «الميثاق» ليس مرادفاً لـ «العهد»، وهذا هو ظاهر الآية المباركة:

﴿الَّذينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ميثاقِه...﴾[٣]

والتي تتحدث عن الفاسقين، فهم الذين ينقضون العهد من بعد توثيقه.

إذن، فليس كلُّ عهد «ميثاق»، فالميثاق هو العهد المؤكد.

هذا، وقد فُسِّر «العقد» بـ «العهد»، فقد ورد في ذيل قوله تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود﴾[٤]

بسندٍ صحيح عن عبد الله بن سنان أنَّ الإمام عليه السّلام قال: العقود، هي العُهود.[٥]

---

(١) بصائر الدرجات: ٥١، الحديث ١؛ بحار الأنوار ٢٤ / ٣١، الحديث ٣؛ وراجع: الكافي ١ / ٢٠٨، الحديث ١؛ تفسير الصافي ٢ / ٣٨٧، الحديث ١١٩.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٥١٢.

(٣) سورة البقرة (٢): الآية ٢٧ وسورة الرعد (١٣): الآية ٢٥.

(٤) سورة المائدة (٥): الآية ١.

(٥) تفسير القمي ١ / ١٦٠؛ تفسير نور الثقلين ١ / ٥٨٣، الحديث ٨

وقد اُشير في هذه العبارة إلىٰ إرتباط الأئمّة عليهم السّلام بالله تعالىٰ في مرحلتين:

١ ـ مرحلة الميثاق مع الله عزّوجلّ.

٢ ـ مرحلة الدعوة والعمل بالميثاق.

١ ـ مرحلة الميثاق الإلٰهي

لقد كان هذا الميثاق في عالمٍ قبل عالمنا هذا، والذي يعبَّر عنه بـ«عالم الذر». وهذا الميثاق كان لعموم ذريّة آدم عليه السّلام.

يقول تعالىٰ في كتابه المجيد:

﴿وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَني آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلينَ * أو تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون﴾(١)

ولكن في بعض الآيات الاخرى، وجّه الخطاب للمؤمنين خاصّة، مثل قوله تعالىٰ:

﴿أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود... وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ ميثاقَهُ الَّذي واثَقَكُمْ بِه...﴾(٢)

وفي بعض الآيات الكريمة إخبارٌ عن أخذ الميثاق من خصوص بعض الامم، مثل قوله تعالىٰ:

---

(١) سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٢ ـ ١٧٤.

(٢) سورة المائدة (٥): الآيتان ١ و٧.

﴿وَ إِذْ أَخَذْنا ميثاقَ بَني إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّه﴾[١]

وفي بعض الآيات الاخرى، يسوق الخطاب لميثاقٍ قد أُخذ من أنبياء الله تعالىٰ، مثل قوله تعالىٰ:

﴿وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبِيِّين﴾[٢]

هذا، وقد وصف الميثاق بـ«الغليظ» في بعض الآيات، مثل قوله تعالىٰ:

﴿وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ ميثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهيمَ وَ مُوسى وَ عيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ ميثاقاً غَليظا﴾[٣]

وعليه، فإن الله تعالىٰ لم يأخذ الميثاق من النبيين ومن أشرف الأنبياء محمد صلّى الله عليه وآله فقط، وإنّما أخذ الميثاق من الناس فرداً فرداً أيضاً في اليوم الذي خاطب ذريّة آدم عليه السلام بقوله تعالىٰ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾.

وهنا تطرح بعض التساؤلات؛

ما هو الميثاق؟

وكيف كان؟

وأين كان؟

وهل يختلف الميثاق المأخوذ من الأنبياء عن ميثاق سائر الناس؟

لا شك في أنَّ أوّل ميثاق أُخِذَ من عامّة أولاد آدم عليه السّلام هو ميثاق توحيد الله تعالىٰ. يقول عزّوجلّ في كتابه:

---

(١) سورة البقرة (٢): الآية ٨٣

(٢) سورة آل عمران (٣): الآية ٨١

(٣) سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٧.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَني آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبين﴾[١]

ويقول في الآية التي تليها:

﴿وَأَنِ اعْبُدُوني هذا صِراطٌ مُسْتَقيم﴾[٢]

وهناك آيات أخرى في هذا المضمار تخاطب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. من جملة هذه الآيات، قوله تعالى:

﴿وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلا هُو﴾[٣]

ويقول في آية أخرى:

﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبينَ﴾[٤]

في روايات عالم الذر

وهنا أمورٌ نستنتجها من روايات «عالم الذر»:

الأول: إنَّ أول من استجاب لخطاب «ألستُ بربّكم»، في ذلك العالم، وقال «بلى»، هو رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمّة عليهم السّلام. يقول الإمام الصّادق عليه السّلام:

«إنَّ بعض قريش قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله: بأي شئ سبقت الأنبياء وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم؟

قال: إنّي كنت أوّل من آمن بربّي وأوّل من أجاب، حين أخذ الله ميثاق النبيّين

(١) سورة يس (٣٦): الآية ٦٠.

(٢) سورة يس (٣٦): الآية ٦١.

(٣) سورة قصص (٢٨): الآية ٨٨

(٤) سورة الشعراء (٢٦): الآية ٢١٣.

﴿وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى﴾ فكنت أنا أوّل نبي قال بلى. فسبقتهم بالإقرار بالله عزّوجلّ».(١)

ويقول الإمام الصّادق عليه السّلام في رواية أخرى:

«فلمّا أراد أن يخلق الخلق نثرهم بين يديه، فقال لهم: من ربّكم؟ فأوّل من نطق، رسول الله وأمير المؤمنين والأئمّة صلوات الله عليهم. فقالوا: أنت ربّنا. فحمّلهم العلم والدين.

ثم قال للملائكة: هؤلاء حملة ديني وعلمي وأمنائي في خلقي وهم المسئولون.

ثمّ قال لبني آدم: أقرّوا لله بالربوبيّة ولهؤلاء النفر بالولاية والطاعة.

فقالوا: نعم ربّنا أقررنا...»(٢)

الثاني: إن الميثاق المأخوذ، كان ـ مضافاً إلىٰ التوحيد ـ على نبوة رسول الله محمد صلّى الله عليه وآله وولاية أمير المؤمنين عليه السّلام.

«عن أبي عبد الله في قول الله: ﴿وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُم...﴾.

قال: أخرج الله من ظهر آدم ذريّته إلىٰ يوم القيامة، فخرجوا كالذر، فعرّفهم نفسه، ولولا ذلك لن يعرف أحد ربّه.

ثمّ قال: ﴿أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى﴾ وإنّ هذا محمّد رسولي وعلي أمير المؤمنين خليفتي وأميني».(٣)

---

(١) الكافي ١ / ٤٤١، الحديث ٦؛ بحار الأنوار ١٥ / ١٥ ـ ١٦، الحديث ٢١.

(٢) الكافي ١ / ١٣٣، الحديث ٧؛ بحار الأنوار ٥٤ / ٩٥، الحديث ٨٠

(٣) بصائر الدرجات: ٩١، الحديث ٦؛ بحار الأنوار ٥ / ٢٥، الحديث ٤٠.

الثالث: إنَّ المقرَّبين بالولاية كانوا قلَّة:

«عن أبي جعفر عن أبيه عن جدّه عليهم السّلام: إنّ النبي صلّى الله عليه وآله قال لعلي عليه السّلام: أنت الذي احتجّ الله به على ابتداء الخلق حيث أقامهم فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا جميعاً: بلى، فقال: محمّد رسولي؟ فقالوا جميعاً: بلى. فقال: وعلي أمير المؤمنين؟ فقالوا جميعاً: لا، إستكباراً وعتوّاً عن ولايتك، إلّا نفر قليل وهم أصحاب اليمين».(١)

٢ ـ مرحلة الدعوة والعمل بالميثاق

لقد اُخذ الميثاق من الأنبياء والأئمّة عليهم السّلام على دعوة الناس إلىٰ التوحيد وعبادة الله، بعد أخذه منهم أنفسهم على ذلك.

ولذا، فإن الله تعالىٰ يخاطب رسوله الكريم بقوله:

﴿قُلْ هذِهِ سَبيلي أَدْعُوا إِلَى اللَّه﴾(٢)

وفي آية أخرى، يقول تعالىٰ:

﴿قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدا﴾(٣)

ونقرأ في آية ثالثة:

﴿تَدْعُونَني لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزيزِ الْغَفَّار﴾(٤)

---

(١) اليقين: ٢١٣؛ بحار الأنوار ٢٦ / ٢٨٥، الحديث ٤٣.

(٢) سورة يوسف (١٢): الآية ١٠٨.

(٣) سورة الجن (٧٢): الآية ٢٠.

(٤) سورة غافر (٤٠): الآية ٤٢.

من لوازم الدعوة

ومن الواضح أنّ هذه الدعوة، لها لوازم، نشير إلىٰ بعضها فيما يلي:

١ ـ إنّ هؤلاء الأطهار الذين يدعون إلىٰ الله بالنحو الذي يتطلبه الميثاق المأخوذ منهم، عليهم أوّلاً أن يعملوا ويطبّقوا ما يدعون الناس إليه.

وهذا هو مفاد كلّ الآيات التي قرأناها، بل وقد صرّحت بعض الآيات بذلك، مثل قوله تعالىٰ والذي يخاطب به رسوله الأكرم محمداً صلّى الله عليه وآله:

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُك﴾[١]

٢ ـ إنّ على الأنبياء عليهم السّلام أن يستقيموا في هذا الطريق. يقول تعالىٰ:

﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْت﴾[٢]

٣ ـ إنّ عليهم أن يدعو الناس إلىٰ مضامين الميثاق المأخوذ منهم، بالطرق الصحيحة والمناسبة لشأن هذا الميثاق.

وهذا ما تضمنته الآية المباركة:

﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتي هِي أَحْسَن﴾[٣]

وسنوضح بعض الحقائق في شأن هذه الآية الكريمة لاحقاً.

٤ ـ أن تكون دعوتهم على أساس ما يوحى إليهم فقط. يقول تعالىٰ:

﴿وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاويلِ * لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتين﴾[٤]

---

(١) سورة زمر (٣٩): الآية ٦٥.

(٢) سورة هود (١١): الاية ١١٢.

(٣) سورة النحل (١٦): الآية ١٢٥.

(٤) سورة الحاقّة (٦٩): الآيات ٤٤ـ٤٦.

٥ ـ أن يصبر هؤلاء على مضمون الميثاق. ولذا خوطب النبي الأكرم محمد صلّى الله عليه وآله، بقوله تعالىٰ:

﴿فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُل﴾(١)

فمن الواضح جداً أنّ الصبر والتّحمل من لوازم الدعوة إلىٰ الله، ولقد عمل النبيّ وأهل بيته بما كان يقتضيه الميثاق والتزموا بلوازمه، كما لا يخفى على من نظر في سيرتهم وأحوالهم.

ولا يخفى، أنّ الميثاق بين الله تعالىٰ وبين الأئمّة عليهم السّلام، كان علىٰ نحوين:

١ ـ الميثاق العام، وهو الميثاق المأخوذ منهم جميعاً كالأنبياء وكان الأئمّة يعملون به.

٢ ـ الميثاق الخاص المأخوذ من كلٍّ واحدٍ من أهل البيت ـ ومنهم الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام ـ وفيه تكاليفه الخاصّة به، والتي تعهّد بالعمل بها، وقد عملوا بها على أحسن وجه.

الفرق بين «العهد» و«العقد»

وكما قلنا آنفاً، فإنّ «العقد» جاء بمعنى «العهد»، وقد فُسّرت الآية المباركة بهذا المعنى أيضاً.

ولكن، نحن نعلم بأن «العقد» يتقوّم بطرفين، وهو هنا متقوم بالباري عزّوجلّ وبالأئمّة الأطهار عليهم السّلام، فهما طرفا هذا العقد، والعقد يتضمن الإلتزام.

---

(١) سورة الأحقاف (٤٦): الآية ٣٥.

وأمّا «العهد» فليس كالعقد. فهو التزام كذلك، لكن يتحقّق مفهومه بطرف واحدٍ. ومن هنا فإنَّ كلّ عقدٍ، عهدٌ ولا عكس.

وبعبارة أخرى، إنَّ النسبة بين العهد والعقد هي نسبة العموم والخصوص المطلق.[١]

ومن جهة أخرى، فإنّ كلمة «عقد» مأخوذة من «عَقَد»، هذا العقد يتناسب مع الإحكام، فلذا قال: «وأحكمتُم عَقدَ طاعته»، وأمّا العهد الذي يمكن أن يتقوّم بطرف واحد، فلا يتناسب مع الإحكام وإنَّما يتناسب مع التوكيد، ولذا قال عليه السّلام: «ووكّدتُم ميثاقَه».

وهذا من ظرائف ما تحمله هذه العبارة من معان، ولطائفها.

الناصحون في السرِّ والعلن

إذن، فهذه المعاني متوفرة في الأئمّة عليهم السّلام، وإنَّ هؤلاء الأطهار قد التزموا بلوازم هذا الميثاق والعهد.

ومن هنا فإننا نقرأ بعد تلك العبارة:

ونَصَحتُم لَهُ في السِّرِّ والعلانية

وكلمة «نُصح» في اللغة: «خلافُ الغِش».[٢] يقول الراغب الإصفهاني: «نصحتَ له الودّ، أي أخلصته. وناصح العسل: خالِصُه».[٣]

وعلى هذا، فإنّ الأئمّة عليهم السّلام كانوا لله في كلّ وجودهم، وكانوا في أعلى درجات الخلوص له عزّوجلّ في كلّ أحوالهم.

---

(١) مجمع البحرين ٣/ ٢١٧. وقد جاء في هذا الكتاب: فكلّ عهد عقد ولا يكون كلّ عقد عهداً.

(٢) مجمع البحرين ٤/ ٣١٨.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٤٩٤.

وقد يكون المراد من «نصحتم له» هو إرادة الخير للناس في رضا الله تعالىٰ، ودعوتهم إلىٰ الحق، كما قال تعالىٰ:

﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَة...﴾[1]

فالأئمّة عليهم السّلام دَعَوا الناس سرّاً وعلانية، وبكلّ نحو من الأنحاء بحسب مقتضى الزمان والمكان والأشخاص.

وَدَعَوتُم إلىٰ سَبيلِه بِالحِكمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَة

وهذه العبارة إشارة إلىٰ الآية المباركة:

﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[2]

والأئمّة عليهم السّلام فعلوا نفس ما فعله النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله في هذا الطريق وطبّقوا برنامجه.

وقد فسّرت «الحكمة» في الروايات بـ «القرآن»[3]، وهذا صحيح جدّاً، إذ إنّ القرآن الكريم هو خير وسيلة لدعوة الناس على اختلاف مستوياتهم، ومن ثمّ صار القرآن نوراً وهدى للعالمين.

و«الموعظة» أيضاً من أسماء القرآن الكريم، حيث قال تعالىٰ:

﴿... وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقين﴾[4]

---

(١) سورة النحل (١٦): الآية ١٢٥.

(٢) سورة النحل (١٦): الآية ١٢٥.

(٣) الكافي: ٥ / ١٦.

(٤) سورة آل عمران (٣): الآية ١٣٨، سورة المائدة (٥): الآية ٤٦.

وهذا أيضاً في غاية المتانة والصحّة، فإنّ القرآن الكريم خير واعظ لمن قرأه أو سمعه وتدبّر فيه.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدي بِهِ مَنْ يَشاء...﴾[١]

تنوّع الدعوة بحسب اختلاف الموارد

وهنا نقول:

إنّ استدلالات واحتجاجات الأئمّة عليهم السّلام، والمنقولة في أصول الكافي، وكتاب التوحيد للشيخ الصدوق رحمه الله، والاحتجاج للطبرسي، كانت بنحو تدل على إنّ أول وظائف الداعي هو أن يدعو الآخرين بما يتناسب مع حالاتهم وأحوالهم. أي أن تكون دعوتهم مطابقة للحكمة.[٢]

بمعنى أنّه إذا دعت الحاجة إلىٰ إقامة الدليل والبرهان المتناسب مع مستوى ثقافة الطرف المحاور، كان عليه إقامة الدليل لإقناعه وهدايته، خاصة إذا كان الطرف المقابل من أهل العلم وصاحب رأي ونظر، فيجب مباحثته طبقاً لمبانيه ومقبولاته، لدعوته إلىٰ الله تعالىٰ وطاعته في أوامره ونواهيه.

وأمّا إذا كان من عامّة الناس وعوامّهم، فيجب إقناعه بالموعظة الحسنة المتناسبة مع حاله وأحواله بالنحو المؤثر في هدايته.

---

(١) سورة الزمر (٣٩): الآية ٢٣.

(٢) راجع: علل الشرائع ١ / ٢٥١، الحديث ٨؛ الأمالي، الشيخ الصدوق: ٢٥٤، الحديث ١؛ الإحتجاج ١ / ١٤؛ بحار الأنوار ٩ / ٢٥٨ ـ ٣٤٤.

ولتوضيح هذا الأمر نقول:

تارة: يدعو الإنسان شخصاً مسلماً إلىٰ الحق والطاعة، وحينئذٍ عليه إقامة الحجّة عليه ليقبل الحق، والحجّة هنا لابدّ أن تكون من الكتاب والسنّة، تلك السنّة التي يقبلها ذلك الشخص.

ومن ثمَّ، فإننا نقول في قوانين المباحثة والمناظرة: إذا تحاورنا مع فرد من أبناء العامّة في موضوع معيَّن ومسئلة مّا، فلا يصحّ إلزامه بروايات كتاب الكافي مثلاً، لأنه لا يقبل هذا الكتاب أساساً. كما لا يصحّ من ذلك الشخص أن يلزم الشيعي بقبول روايات كتب السنّة. وإنما ينبغي استدلال كلّ منهما بالكتاب الكريم ـ وهو مقبول عندهما ـ وبما وقع عليه الإتّفاق من السنّة منهما، أو على الأقل بما يقبله الخصم من السنّة في مقام الاحتجاج.

يقول الحافظ ابن حزم الأندلسي:

«لا معنى لاحتجاجنا عليهم برواياتنا، فهم لا يصدّقونها، ولا معنى لاحتجاجهم علينا برواياتهم، فنحن لا نصدّقها، وإنّما يجب أن يحتجّ الخصوم بعضهم على بعض بما يصدّقه الّذي تقام عليه الحجّة به، سواء صدقه المحتجّ أو لم يصدّقه، لأنّ من صدّق بشئ لزمه القول به، أو بما يوجبه العلم الضروري، فيصير حينئذ مكابراً منقطعاً إن ثبت على ما كان عليه...»[١]

وهذا كلامٌ صحيح موافق للقواعد.

واخرى: لايكون المحاجج مسلماً، فحينئذٍ، ينبغي محاجحته وإقناعه بالأدلّة المقبولة عنده، وإلزامه بمداليلها ومضامينها.

(١) الفصل في الملل والنحل ٤ / ١٥٩.

فإن كان من أهل العقل، وجب إقناعه ودعوته بالأدلّة العقليّة، وإن كان من أهل الكتب والأديان السماوية الاخرى، فلابد من إقناعه من خلال كتابه الذي يعتقد به.

ومن هنا، فإننا وجدنا الأئمّة عليهم السّلام يناظرون الزنادقة بالأدلّة العقليّة، ويناظرون أهل الكتاب بكتابهم، ويناظرون المسلمين بالقرآن الكريم والسنّة المقبولة عندهم. أي إنهم عليهم السّلام كانوا يراعون حال المناظر، فيختارون الطريق الأمثل لدعوته وإقناعه، وقد بذلوا كلّ ما كان يسعهم في هذا الطريق حتّىٰ وإن كلّفهم حياتهم.

وبَذَلتُم أنفُسَكم في مرضاتِهِ

والبذل: الإعطاء بطيب نفس ورضا وقناعة.

ومن هنا يقول عليه السّلام في الزيارة:

فلو أعطى الإنسانُ شيئاً ثميناً لشخص آخر، عن طيب نفس وكمال رضا، قيل: إنه بذل له ذلك الشئ.[1]

والأئمّة عليهم السّلام بذلوا أنفسهم العزيزة في هذا الطريق، عن طيب نفس ورضا كاملين.

فها هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام في ليلة المبيت على فراش رسول الله صلّى الله عليه وآله، حينما قرّر الهجرة إلىٰ يثرب، قد بذل نفسه في مرضات الله تعالىٰ حتّىٰ باهى الله به الخلق، فقال في القرآن المجيد:

---

(١) كتاب العين ٨/ ١٨٧؛ لسان العرب ١١/ ٥٠.

﴿وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّه...﴾[١]

وجاء في فقرات زيارة سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليهما السلام: «وبَذَلَ مهجته فيك ليستنفذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة».[٢]

ولا يخفى، أنَّ رضا الله تعالىٰ، هو في هداية الضالّين وتخليصهم من الهلكة، ونجاة الغافلين من الجهالة، ولقد كان سعي الأئمّة عليهم السّلام في هذا الطريق جزءاً من ميثاقهم مع الله تعالىٰ.

وَصَبَرتُم عَلَى مَا أَصَابَكُم فِي جَنبِهِ

ومن جملة الشرائط الواجب توفرها في الداعي إلى الله، ولوازم الدعوة، هو الإستقامة والصبر.

فالأئمّة عليهم السّلام ـ كرسول الله صلّى الله عليه وآله ـ قد تحمّلوا أنواع المصائب والإيذاءات في سبيل الله.

وفي موضوع الأذى والابتلاءات، نحن نهتم غالباً للابتلاءات الجسدية الماديّة، وكأنّها هي التي تتبادر إلىالذّهن من كلمة «البلاء»، ولا شكّ أنَّ الأئمّة قد لاقوا ما لا يمكن وصفه من الأذى وما كان منهم إلّا الصبر.

ولكن، في الحقيقة إن الإيذاء الروحي والتعذيب النفساني قد يكون أشدّ بكثير على الإنسان، وإنَّ ألمه أكبر وأعمق، فيحتاج إلىٰ صبر أكبر بالقياس إلىٰ العذاب الجسدي، ولقد كان الأئمّة عليهم السّلام كذلك.

---

(١) سورة البقرة (٢): الآية ٢٠٧.

(٢) مصباح المتهجّد: ٧٨٨؛ اقبال الأعمال ٣ / ١٠٢؛ بحار الأنوار ٩٨ / ٣٣١.

كلام حول الصبر

ثمّ إنّ الصبر من المفاهيم الإضافيّة، لذا عندما يقال: صَبَر فلان، سيقال: صبر على ماذا؟ وتحمّل ماذا؟

ومن جهة أخرى، فإنه لابدَّ من وجود تناسب بين الصبر وبين المنغصّات والمؤلمات والموذيات من الحوادث والوقائع.

وفي هذه الحالة فقط يكون الصبر فضيلة والصابر ممدوحاً.

بل، إنّ السرَّ في ممدوحيّة الصبر إنّما هو في تناسبه مع تلك البليّة شدَّة وضعفاً، فلو كان أقل أو أكثر منها، لم يكن ممدوحاً.

وقد جاء في كتب اللغة في معنى الصبر:

«الصبر: حبس النفس عن الجزع، وقد صبر فلان عند المصيبة، يصبر صبراً. وصبرته أنا: حبسته».[١]

وجاء في كتب الأخلاق عن الصبر:

الصبر: ضبط النفس؛ أي السيطرة على تصرفاتها.

ويقول تعالىٰ في كتابه المجيد:

﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِساب﴾[٢]

فمثل هذا الصبر ممدوحٌ، ولذا يقول أمير المؤمنين عليه السّلام:

«إنَّ الصبر من الإيمان كالرأس من الجَسَد، ولا خَير في جسدٍ لا رأس مَعَه ولا في إيمانٍ لا صَبرَ مَعَهُ»[٣]

---

(١) صحاح اللغة ٢ / ٧٠٦؛ لسان العرب ٤ / ٤٣٨؛ تاج العروس ٧ / ٧١.

(٢) سورة الزمر (٣٩): الآية ١٠.

(٣) نهج البلاغة ٤ / ١٨، رقم ٨٢

فالصبر إنّما يكون ممدوحاً فيما لو كان متناسباً مع حجم الأمر الواقع من المصيبة وغيرها، ومن هنا نجد أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال:

«الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية.

فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب اللّه له ثلاثمائة درجة، ما بين الدّرجة إلى الدّرجة كما بين السماء إلىٰ الأرض.

ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، ما بين درجة إلىٰ الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش.

ومن صبر عن المعصية، كتب اللّه له تسعمائة درجة، ما بين الدّرجة إلى الدّرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش».[1]

وبناءاً على هذا، فإنَّ الطاعة وأداء التكاليف الشرعيّة، تحتاج إلىٰ الصبر أيضاً، ولكن ولكثرة إستعمال هذا اللفظ في تحمل المصائب وضبط النفس عند البليّات والحوادث المؤلمة، ينتقل الذهن إلىٰ هذه المعاني عند سماع الكلمة، والحقيقة غير ذلك.

فتارة: يفقد الإنسان عضواً من أعضاء جسده، فيصبر على ذلك، وتارة: يفقد محبوباً وعزيزاً على قلبه، وثالثة: يفقد مالاً، ورابعة: يفقد مقاماً ومنصباً.

فعلى الإنسان أن يصبر عند كلِّ هذه الحوادث بما يتناسب مع حجمها.

ولكن أحياناً يدعو الإنسانُ إلىٰ الحق، ويحاور بالمنطق والبرهان ويقيم الحجج ويقدّم الأدلّة، فلا تؤثر دعوته. ففي مثل هذه الحالة، فإن روح هذا الإنسان تتألم وتتعذب، فيجب عليه أن يصبر.

أو، كمعلِّم يهتم بأحد طلّابه المميّزين المقرّبين اهتماماً زائداً، فيبذل وقته ولا

---

(١) الكافي ٢ / ٩١، الحديث ١٥؛ بحار الأنوار ٦٨ / ٧٧، حديث ١٢.

يدّخر جُهْدَهُ من أجل تعليمه وتربيته، وفجأة ينحرف هذا التلميذ عن الحق ويضيع، فعلى المعلّم هنا أن يصبر على هذا الألم الروحي.

فمثل هذه الامور تعدُّ أيضاً من جملة المصائب التي يجب الصبر عندها، وإن كانت لا تخطر في أذهاننا.

والأئمّة الأطهار عليهم السّلام قد تحمّلوا كلَّ أنواع المصائب، ولكلّ واحدة من هذه الامور مصداق في حياتهم.

فلقد واجهوا كلّ هذه الحوادث وصبروا عليها، وهي من جملة موارد ميثاقهم مع الله تعالىٰ.

وكما مرَّ بنا، فإنَّ الظاهر إنَّ الأئمّة عليهم السّلام كان لهم مع الله ميثاقان:

١ ـ الميثاق العام الذي يشترك فيه الجميع.

٢ ـ الميثاق الخاص بكلّ إمامٍ إمام.

إشارة إلى علم الأئمة بما سيقع عليهم

أتظنون أنَّ أمير المؤمنين والصدّيقة الطاهرة سلام الله عليهما، لم يكونا يعلمان بما سيجري عليهما من المصائب التي تحمّلاها في سبيل الله، وأنّها جزءٌ من ميثاقهما؟ ففي الكافي، رواية في هذا المضمار عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام قال:

«قلت لأبي عبد اللّه عليه السّلام: أليس كان أمير المؤمنين عليه السّلام كاتب الوصيّة ورسول اللّه صلى اللّه عليه وآله المملي عليه وجبرئيل والملائكة المقرّبون عليهم السّلام شهود؟

قال: فأطرق طويلاً. ثمّ قال: يا أبا الحسن قد كان ما قلت، ولكن حين نزل

برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله الأمر، نزلت الوصيّة من عند اللّه كتاباً مسجّلاً، نزل به جبرئل مع أمناء اللّه تبارك وتعالى من الملائكة.

فقال جبرئيل: يا محمّد ! مُر بإخراج من عندك إلّا وصيّك ليقبضها منّا وتشهدنا بدفعك إيّاها إليه ضامناً لها ـ يعني عليّاً عليه السّلام ـ.

فأمر النبي صلى اللّه عليه وآله بإخراج من كان في البيت ما خلا عليّاً وفاطمة عليهما السلام فيما بين الستر والباب.

فقال جبرئيل: يا محمّد ! ربّك يقرؤك السلام ويقول: هذا كتاب ما كنت عَهدتُ إليك وشرطت عليك وشهدت به عليك، وأشهدت به عليك ملائكتي وكفى بي يا محمّد شهيداً.

قال: فارتعدت مفاصل النبي صلى اللّه عليه وآله فقال: يا جبرئيل ! ربّي هو السلام ومنه السلام وإليه يعود السلام، صدق عزّوجلّ وبَرَّ، هات الكتاب.

فدفعه إليه وأمره بدفعه إلى أمير المؤمنين عليه السّلام، فقال له: اقرأه !

فقرأهُ حرفاً حرفاً.

فقال: يا علي ! هذا عهد ربّي تبارك وتعالى إلي وشرطه علي وأمانته، وقد بلّغت ونصحت وأدّيتُ.

فقال علي عليه السّلام: وأنا أشهد لك [بأبي وأمّي أنت] بالبلاغ والنصيحة والتصديق على ما قلت، ويشهد لك به سمعي وبصري ولحمي ودمي.

فقال جبرئيل عليه السّلام: وأنا لكما على ذلك من الشاهدين.

فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: يا علي ! أخذتَ وصيّتي وعرفتها وضمنت للّه ولي الوفاءَ بما فيها؟

فقال علي عليه السّلام: نعم، بأبي أنت وأمّي، علي ضمانها وعلى اللّه عوني وتوفيقي على أدائها.

فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: يا علي ! إنّي أُريد أن أشهد عليك بموافاتي بها يوم القيامة.

فقال علي عليه السّلام: نعم اشهد.

فقال النبي صلى اللّه عليه وآله: إنّ جبرئيل وميكائيل فيما بيني وبينك الآن وهما حاضران معهما الملائكة المقرّبون لأُشهدهم عليك.

فقال: نعم، ليشهدوا، وأنا ـ بأبي أنت وأمّي ـ أُشهدُهم.

فأشهدهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وكان فيما اشترط عليه النبي بأمر جبرئيل عليه السّلام، أمره اللّه عزّوجلّ أن قال له: يا علي ! تفي بما فيها من موالاة مَن والى اللّه ورسوله والبرائة والعداوة لمن عادى اللّه ورسوله والبرائة منهم، على الصبر منك وعلى كظم الغيظ، وعلى ذهاب حقّك وغصب خمسك وانتهاك حرمتك؟

فقال: نعم، يا رسول اللّه !

فقال أمير المؤمنين عليه السّلام: والّذي فلق الحبّة وبرأ النسمة، لقد سمعت جبرئيل يقول للنبي: يا محمّد، عرِّفهُ أنّه ينتهك الحرمة وهي حرمة اللّه وحرمة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وعلى أن تُخضَب لحيته من رأسه بدمٍ عبيط.

قال أمير المؤمنين عليه السّلام: فصعقت حينَ فهمتُ الكلمة من الأمين جبرئيل حتّى سقطت على وجهي وقلت: نعم، قبلت ورضيت وإن انتهكت الحرمة وعطلت السنن ومزّق الكتاب وهدِّمت الكعبة وخضبت لحيتي من رأسي بدم عبيط، صابراً محتسباً أبداً حتّى أقدم عليك.

ثمّ دعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله فاطمة والحسن والحسين، وأعلمهم مثل ما أعلم أمير المؤمنين...

واللّه لقد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله لأمير المؤمنين وفاطمة عليهماالسّلام: أليس قد فهمتما ما تقدّمت به إليكما وقبلتماه؟

فقالا: بلى وصبرنا على ما ساءنا وغاظنا».(١)

فهذا من الميثاق، وهكذا حال سائر الأئمّة عليهم السّلام.

فلقد تحمّل الإمام الحسن المجتبى عليه السّلام مصائب كثيرة، ولكنّنا وللأسف لا ندقق في مثل هذه الامور.

فإن معاوية وقف بوجه الإمام الحسن عليه السّلام، ودبّر له كلّ تلك الدسائس التي يطول شرحها.

ومن جهة أخرى، فإن بعض أصحاب الإمام الحسن عليه السّلام، والذين كانوا من وجهاء القبائل ورؤساء العشائر، قد دخل على الإمام الحسن وقال له: «السلام عليك يا مذلَّ المؤمنين».(٢)

تُرى، أيُّها أصعب على الإنسان، حدُّ السيف وألمُه أم مثل هذا الكلام؟

ومن جهة ثالثة، كان يوجد في بيت الإمام الحسن عليه السّلام من دسّ إليه السمّ مراراً.

---

(١) الكافي ١ / ٢٨١ ـ ٢٨٣، الحديث ٤؛ بحار الأنوار ٢٢ / ٤٧٩، الحديث ٢٨.

(٢) مناقب أمير المؤمنين عليه السّلام، محمد بن سليمان الكوفي ٢ / ١٢٨؛ دلائل الإمامة: ١٦٦، الحديث ٨؛ مدينة المعاجز ٣ / ٢٣٣؛ الإختصاص: ٨٢؛ بحار الأنوار ٤٤ / ٢٣ ـ ٢٤، الحديث ٧؛ شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد ١٦ / ١٦ و ٤٤؛ كنز العمّال ١١ / ٣٤٩ و ١٣ / ٥٨٨؛ شواهد التنزيل ٢ / ٤٥٧؛ الأخبار الطوال: ٢٢١؛ تاريخ مدينة دمشق ٥٩ / ١٥١؛ ميزان الإعتدال ٢ / ١٧١؛ سير أعلام النبلاء ٣ / ١٤٧؛ لسان الميزان ٣ / ٥٣؛ البداية والنهاية ٨ / ١٤٠؛ الإمامة والسياسة ١ / ١٤١ و...

وهكذا سيد الشهداء، الإمام الحسين عليه السّلام، كان له عهد وميثاق خاصّ مع الله تعالىٰ.

ومن خلال هذه الروايات وسائر الأدلّة المعتبرة، يتضح لنا بطلان قول القائل: لا يمكن أن تصبّ تلك المصائب على الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء، وكلّ ذلك الهتك لحرمة مكانتها، بحضور ووجود أمير المؤمنين عليه السّلام.

فكلُّ ذلك عهدٌ وميثاق، كما إنَّ سيد الشهداء عليه السّلام قد اصطحب معه أخواته ونساءه وسائر المخدّرات من المدينة إلىٰ كربلاء، وصِرن معرضاً للإهانة والهتك والسب والشتم والأسر.

فهل إنَّ حضور زينب وسائر المخدرات في كربلاء، كذب؟

هذه مواثيق وعهود خاصة بكلّ إمام.

وكذا الحال في خصوص الإمام السجّاد والإمام الباقر والإمام جعفر الصادق والإمام موسى بن جعفر وباقي الأئمّة عليهم السّلام.

وهكذا الحال الآن في زمن الغيبة، فإنّ الإمام الحجّة عجّل الله تعالىٰ فرجه الشريف عليه تعهّدات خاصة مع الله سبحانه وتعالى.

فمن جهة يرى، بأن دين الله تعالىٰ لا يُعمل به، وليس فقط لا يُعمل به وإنما نجد المخالفات لهذا الدين والعمل على خلاف ما يأمر به، على قدم وساق، ويشاهد كلّ هذا الظلم والجور الواقع في العالم.

ومن جهة أخرى، ها هي مظلومية آبائه وأجداده وأُمّه وجدِّه رسول الله صلّى الله عليه وآله، وكذا مظلوميّة شيعتهم في أنحاء العالم والقضايا الاخرى، التي يراها الإمام عليه السّلام ويسمعها، فهذه كلّها موجودة وتزداد يوماً بعد يوم والإمام عليه السّلام مأمور بالصبر.

فهذا كلّه جزءٌ من تعهد الإمام عليه السّلام في زمن الغيبة. كما إنَّ عليه تعهدات والتزامات أخرى ترتبط بزمن حضوره عليه السّلام.

ولأنَّ الله تعالىٰ، قد علم بأنّ هؤلاء الأطهار سيفون بعهدهم وميثاقهم، فقد أعطاهم تلك المقامات.

ونقرأ في دعاء الندبة:

«إذ اخترت لهم جزيل ما عندك من النّعيم المقيم، الّذي لا زوال له ولا اضمحلال، بعد أن شرطتَ عليهم الزّهد في درجات هذه الدُّنيا الدّنيّة وزخرفِها وزبرجها، فشرطوا لك ذلك، وعلمت منهم الوفاء به، فقبلتهم وقرّبتهم، وقدّمت لهم الذّكر العلي والثّناءَ الجلي»؛[١]

نعم، لقد اعطى الله تعالىٰ هذه المقامات للأئمّة عليهم السّلام، لأنه كان يعلم بأنهم سيصبرون، وقد صبروا حقّاً.

إنَّ الأئمّة عليهم السّلام هم مصداق هذه الآية الشريفة:

﴿وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ * أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[٢]

لقد صبروا عليهم السّلام حتّىٰ وصلوا إلىٰ مرتبة:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرين﴾[٣]

---

(١) إقبال الأعمال ١ / ٥٠٤ و ٥٠٥؛ بحار الأنوار ٩٩ / ١٠٤.

(٢) سورة البقرة (٢): الآيات ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٣) سورة البقرة (٢): الآية ١٥٣ وسورة الأنفال (٨): الآية ٤٦.

وأَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ، وآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ، وأَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، ونَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وجَاهَدْتُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ

ويمكن القول بأنَّ هذه الفقرة من الزيارة الجامعة قد وردت في كلّ زيارات المعصومين عليهم السّلام.

فقد جاء في زيارة رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«أشهد أنك قد بلّغت الرّسالة وأقمت الصَّلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وعبدت الله مخلصاً...»[١]

وجاء في زيارة أمير المؤمنين عليه السّلام:

«عبدت الله مخلصاً، وجاهدت في الله صابراً، وجدت بنفسك محتسباً، وعملت بكتابه، واتّبعت سنّة نبيّه، وأقمت الصَّلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر...»؛[٢]

ونقرأ في زيارة سيد الشهداء عليه السّلام:

«أشهد أنك قد أقمت الصَّلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وتلوت الكتاب حقّ تلاوته وجاهدت في الله حقّ جهاده...»؛[٣]

---

(١) بحار الأنوار ٩٧ / ١٦١.

(٢) بحار الأنوار ٩٧ / ٣٦١.

(٣) بحار الأنوار ٩٨ / ٢٠٩.

وجاء في زيارة الإمام الكاظم عليه السّلام:

«وأقمت الصَّلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وعبدت الله مخلصاً مجتهداً...»؛[١]

وكذلك في زيارة الإمام الرّضا، الإمام الجواد، والإمام العسكري سلام الله عليهم أجمعين، فقد وردت فقرات بنفس هذا المضمون.[٢]

هذا، وقد وردت كلمة «الصَّلاة» و«الزكاة» في سياق واحد في كثير من آيات القرآن الكريم.

وَأَقَمتُمُ الصَّلَاةَ

وهذا، من جملة المواثيق المأخوذة منهم عليهم السّلام.

وللصّلاة كما في الروايات ـ فضلاً عن بعض آيات القرآن الكريم والتي سيأتي بيانها خلال البحث ـ أوصاف وعناوين وألقاب كما لا يخفى على من راجع أبواب الصّلاة في كتاب «وسائل الشيعة».

ففي رواية قال عليه السّلام:

وَجه دينكم الصَّلاة.[٣]

ولمّا كان وجه الشيء معرِّفه، كانت الصَّلاة معرِّفةً للدين.

يقول الراغب الإصفهاني في كلمة «وجه»:

---

(١) بحار الأنوار ٩٩/ ١٥.

(٢) بحار الأنوار ٩٩/ ٤٧، ٢٣، ٦٧.

(٣) الكافي ٣/ ٢٧٠، الحديث ١٦؛ وسائل الشيعة ٤/ ٢٤، الحديث ٤٤١٦.

أصل الوجه الجارحة،... ولمّا كان الوجه أوّل ما يستقبلك وأشرف ما في ظاهر البدن، إستعمل في مستقبل كلّ شيئ وفي أشرفه ومبدئه.(١)

وفي رواية أخرى، عُبِّر عن الصَّلاة بـ«عمود الدين».

فعن جابر، قال الإمام الباقر عليه السّلام:

الصَّلاة عمود الدين....(٢)

فشبّه الدين بالخيمة، وجعل عمود تلك الخيمة الصَّلاة، فلولاها لما بقيت الخيمة قائمة.

وفي حديث آخر، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، قال:

الصَّلاة ميزان، من وفّى إستوفى.(٣)

وفي رواية عن الإمام الرضا عليه السّلام قال:

الصَّلاة قربانُ كلِّ تقي.(٤)

نعم، فمن أراد التقرب إلىٰ الله تعالىٰ، وكان من أهل التقوى، فإنّ الصَّلاة طريقه إلىٰ ذلك.

وجاء في رواية أخرى عن الصَّلاة إنَّها:

أوّل ما يحاسب به العبد.

فقد ورد عن أبي بصير قال: سمعت الإمام الباقر عليه السّلام يقول:

كلُّ سهو في الصَّلاة يطرح منها غير أنّ الله تعالىٰ يتمّ بالنوافل، إنّ أوّل ما

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٥١٣.

(٢) الأمالي، الشيخ الطوسي: ٥٢٩؛ وسائل الشيعة ٤ /٢٧، الحديث ٤٤٢٤؛ بحار الأنوار ٧٩ /٢١٨.

(٣) الكافي ٣ /٢٦٧، الحديث ١٣؛ وسائل الشيعة ٤ /٢٢، الحديث ٤٤٤٠، بحار الأنوار ٧٩ /٢٣٥.

(٤) الكافي ٣ /٢٦٥، الحديث ٦؛ وسائل الشيعة ٤ /٤٣، الحديث ٤٤٦٩؛ بحار الأنوار ٧٩ /٣٠٧.

يحاسب به العبد الصَّلاة، فإن قبلت قبل ما سواها...؛[١]

وفي تعبير آخر عنها:

مثل الصَّلاة مثلُ عمودِ الفسطاط.[٢]

هذا، وقد عبّرت عنها بعض الروايات بأنها كالنهر الجاري، فكما أنّ النهر الجاري يطهِّر البدن، كذلك الصَّلاة وسيلة لطهارة الأرواح.

يقول الإمام الباقر عليه السّلام:

«قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: لو كان على باب دار أحدكم نهر فاغتسل منه في كلّ يوم خمس مرات، أكان يبقى في جسده شيء من الدَّرن؟

قلنا: لا.

قال: فإنّ مثل الصَّلاة كمثل النهر الجاري، كلّما صلّى صلاة كفَّرت ما بينهما من الذنوب»[٣]

كان ذلك نظرة عابرة على بعض كلمات رسول الله والأئمّة الأطهار عليهم السّلام حول الصَّلاة.

وهنا نسأل: كيف كان حال الأئمّة عليهم السّلام مع الصَّلاة عمليّاً؟

وكم كان التزامهم بالنوافل؟

لقد وجدنا في أخبار وحالات أمير المؤمنين عليه السّلام والإمام الحسين، الإمام السجّاد والإمام الرّضا عليهم السّلام، أنّ كلّاً منهم: «كان يصلّي في كلّ يوم

---

(١) الكافي ٣/٢٦٨، الحديث ٤. وسائل الشيعة ٣/١٠٨، الحديث ٤٦٣٦.

(٢) الكافي ٣/٢٦٦، الحديث ٩؛ وسائل الشيعة ٤/٣٣، الحديث ٤٤٣٨.

(٣) تهذيب الأحكام ٢/٢٣٧، الحديث ٩٣٨؛ وسائل الشيعة ٤/١٢، الحديث ٤٣ ٨٧

وليلة ألف ركعة».[١]

وقد لا يصدّق بعض الناس أن أمير المؤمنين عليه السّلام كان يصلّي في كلّ يوم وليلةٍ في حياته الكريمة ألف ركعة من الصّلاة، ومنهم من يكذّب بهذا الخبر بغضاً و حسداً،[٢] ومنهم من ينفي إمكان ذلك من حيث الوقت، و لكنَّ أهل السنّة قد كتبوا هذه المنقبة بترجمة علي بن الحسين السجّاد عليه السّلام،[٣] كما قد ورد بتراجم غير واحدٍ من علمائهم أنّه:

«كان يصلّي في كلّ يوم و ليلة ألفَ ركعة»[٤]

وجاء في رواية في أحوال أمير المؤمنين عليه السّلام:

«ولم يترك علي صلاة الليل قطّ حتّى ليلة الهرير»[٥]

---

(١) الكافي ٤ / ١٥٤، الحديث ١؛ بحار الأنوار ٧٩ / ٣١١، الحديث ١٨، نقلاً عن كتاب «الملهوف»، السيد ابن طاووس: ٧٥؛ دعائم الإسلام ٢ / ٣٣٠، الحديث ١٢٤٨؛ مستدرك الوسائل ٣ / ٦٩، الحديث ٣٠٤٨؛ المناقب، إبن شهر آشوب ٣ / ٢٩٠؛ بحار الأنوار ٤٦ / ٧٩.

(٢) على رأس المنكرين لهذه القضيّة لأمير المؤمنين عليه السلام، هو ابن تيمية، حيث يقول فى كتابه: هذا لا يمكن الا على وجه يكره في الشريعة، أو لا يمكن بحال، فلا يصلح ذكر هذا فى المناقب (منهاج السنّة) ٤ /٤٨ و ٤٩.

(٣) شرح منهاج الكرامة.

(٤) وقد ذكر الذهبي ـ تلميذ ابن تيمية ـ ذلك في ترجمة بعض العلماء. (راجع سير أعلام النبلاء ٧ / ٢٩)

وقد أشار العلامة الاميني في «الغدير» إلىٰ هذا الأمر، حيث قال:

«ونحن نعرف من أصحابنا اليوم من يأتي بها في الليل تارة، وفي اليل والنهار أخرى، في أقلّ من سبع ساعات يصلّيها صلاة تامّة مع سورة التوحيد بالرغم من حسبان ابن تيمية استحالتها في اليوم والليلة، فإتيان ألف ركعة في الليل والنهار لا يستوعب كلّ الليل ولا يحتاج إلىٰ قيام تمامه ولا إلىٰ قيام نصفه...»

ثم يذكر الأميني أسماء بعض التابعين والأجلّاء الذين كانوا يقومون بذلك. (راجع الغدير ٥ / ٢٨ و ٣٠)

(٥) بحار الأنوار ٨٠/ ٢٣ نقلاً عن المناقب، إبن شهر آشوب ١ / ٣٨٨ و ٣٨٩؛ وسائل الشيعة ٤ / ٢٤٧، الحديث ٢، نقلاً عن «إرشاد القلوب».

وليلة الهرير، احدى ليالي أيّام حرب صفين، وقد بقي الجيشان يقتتلان حتّىٰ صبيحتها بلا توقف.

وهكذا كان حال سائر الأئمّة عليهم السّلام.

ومن ثمّ روي عن الصادق عليه السّلام أنه قال:

«إمتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصَّلاة كيف محافظتهم عليها، وعند أسرارهم كيف حفظهم لها عن عدوّنا، وعند أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم فيها»(١)

الصَّلاة في القرآن

و وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم حول الصَّلاة وإقامتها، ففي آية نقرأ:

﴿قُلْ لِعِبادِي الَّذينَ آمَنُوا يُقيمُوا الصَّلاة﴾(٢)

ونقرأ في آية:

﴿حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى﴾(٣)

وفي آية أخرى:

﴿وَ الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُون﴾(٤)

وقد تكرر مضمون هذه الآية مراراً في القرآن الكريم بتفاوت طفيف في الألفاظ.

وفي آية أخرى يُقرِنُ تعالىٰ إقامة الصَّلاة بالتوبة حيث قال:

---

(١) الخصال: ١٠٣، الحديث ٦٢؛ بحار الأنوار ٨٠ / ٢٣، الحديث ٤٢؛ وسائل الشيعة ٤ / ١١٢، الحديث ١٦.

(٢) سورة إبراهيم (١٤): الآية ٣١.

(٣) سورة البقرة (٢): الآية ٢٣٨.

(٤) سورة الأنعام (٦): الآية ٩٢.

﴿فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّين﴾[١]

و«إن» في هذه الآية «شرطيّةٌ» وهذا يعني انتفاء المشروط ـ إسلام الشخص ـ بانتفاء شرطه وهو إقامة الصّلاة، فما لم يهتم هؤلاء بالصّلاة فليسوا بمسلمين.

وفي آية أخرى يقول عزّوجلّ:

﴿ما سَلَكَكُمْ في سَقَرَ * قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّين﴾[٢]

ويبدو أنّ «سقر» مرتبة خاصّة من مراتب جهنم. أعاذنا الله.

وعن أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السّلام، إنه قال:

«قَوْلِهِ ﴿وإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فَوُقُوفُهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ، وأَمَّا لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ، فَبَلَغَنِي ـ واللّهُ أَعْلَمُ ـ أَنَّ اللّهَ جَعَلَهَا سَبْعَ دَرَجَاتٍ.

أَعْلَاهَا: الْجَحِيمُ، يَقُومُ أَهْلُهَا عَلَى الصَّفَا مِنْهَا، تَغْلِي أَدْمِغَتُهُمْ فِيهَا كَغَلْي الْقُدُورِ بِمَا فِيهَا.

وَالثَّانِيَةُ: لَظى ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوى * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وتَوَلَّى * وجَمَعَ فَأَوْعى﴾.

وَالثَّالِثَةُ: سَقَرُ ﴿لا تُبْقِي ولا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

وَالرَّابِعَةُ: الْحُطَمَةُ ﴿تَرمي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ﴾، تُدَقُّ كُلُّ مَنْ صَارَ إِلَيْهَا مِثْلَ الْكُحْلِ، فَلَا يَمُوتُ الرُّوحُ كُلَّمَا صَارُوا مِثْلَ الْكُحْلِ عَادُوا.

وَالْخَامِسَةُ: الْهَاوِيَةُ، فِيهَا مَلَأٌ يَدْعُونَ: يَا مَالِكُ ! أَغِثْنَا، فَإِذَا أَغَاثَهُمْ جَعَلَ لَهُمْ آنِيَةً مِنْ صُفْرٍ مِنْ نَارٍ فِيهِ صَدِيدُ مَاءٍ يَسِيلُ مِنْ جُلُودِهِمْ كَأَنَّهُ مُهْلٌ، فَإِذَا رَفَعُوهُ

---

(١) سورة التوبة (٩): الآية ١١.

(٢) سورة المدّثر (٧٤): الآيتان ٤٢ و٤٣.

لِيَشْرَبُوا مِنْهُ تَسَاقَطَ لَحْمُ وُجُوهِهِمْ فِيهَا مِنْ شِدَّةِ حَرِّهَا وهُوَ قَوْلُ اللّـهِ: ﴿وإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وساءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ ومَنْ هَوَى فِيهَا هَوَى سَبْعِينَ عَاماً فِي النَّارِ، كُلَّمَا احْتَرَقَ جِلْدُهُ بُدِّلَ جِلْداً غَيْرَهُ.

وَالسَّادِسَةُ: هِيَ السَّعِيرُ، فِيهَا ثَلَاثُ مِائَةِ سُرَادِقٍ مِنْ نَارٍ فِي كُلِّ سُرَادِقٍ ثَلَاثُ مِائَةِ قَصْرٍ مِنْ نَارٍ، فِي كُلِّ قَصْرٍ ثَلَاثُ مِائَةِ بَيْتٍ مِنْ نَارٍ، فِي كُلِّ بَيْتٍ ثَلَاثُ مِائَةِ لَوْنٍ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فِيهَا حَيَّاتٌ مِنْ نَارٍ وعَقَارِبُ مِنْ نَارٍ وجَوَامِعُ مِنْ نَارٍ وسَلَاسِلُ وأَغْلَالٌ مِنْ نَارٍ، وهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وأَغْلالًا وسَعِيراً﴾.

وَالسَّابِعَةُ: جَهَنَّمُ، وفِيهَا الْفَلَقُ وهُوَ جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ إِذَا فُتِحَ أَسْعَرَ النَّارَ سِعْراً وهُوَ أَشَدُّ النَّارِ عَذَاباً، وأَمَّا صَعُوداً، فَجَبَلٌ مِنْ صُفْرٍ مِنْ نَارٍ وَسَطَ جَهَنَّمَ، وأَمَّا أَثاماً فَهُوَ وَادٍ مِنْ صُفْرٍ مُذَابٍ يَجْرِي حَوْلَ الْجَبَلِ فَهُوَ أَشَدُّ النَّارِ عَذَاباً».(١)

ومما سبق، يُعلم أنَّ الصَّلاة الحقيقية، هي الدين.

المراد من إقامة الصَّلاة؟

لقد جاء في القرآن الكريم تعبيران هما:

١ ـ القيام لأداء الصَّلاة.

٢ ـ إقامة الصَّلاة.

فالإتيان بالصَّلاة يتحقق أيضاً بأدائها بدون خشوع، بل ويتحقق مع عدم حضور القلب، فيقال: إنَّه صلّى. وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة:

---

(١) تفسير القمّي ١/ ٣٧٦. نقلت هذه الرواية بتفاوت مختصر في: بحار الأنوار ٨/ ٢٨٩ و ٢٩٠، الحديث ٢٧.

﴿وَ إذا قامُوا إلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى﴾[١]

وهي تتحدث عن المنافقين ومقدار اهتمامهم بالصَّلاة.

ولكن القيام إلىٰ الصَّلاة هو غير إقامتها.

وفي آية أخرى يقول عزّوجلّ:

﴿وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إلاَّ وَ هُمْ كُسالى﴾[٢]

فالقيام إلىٰ الصَّلاة هو أداؤها، وهذا يجتمع مع الكسل أيضاً. وهذا في الحقيقة إنّما هو شكل الصَّلاة وهيئتها وصورتها فقط، لا روحها وحقيقتها.

ولكن الكلام، إنّما هو في إقامة رسول الله والأئمّة الهداة للصّلاة.

فإقامة الصَّلاة لا تصدق إلّا إذا تحققت الصَّلاة بالمعنى الواقعي والحقيقي لها، وذلك:

أوّلاً: أن يعلم الإنسان بمعنى الصَّلاة.

ثانياً: أن يؤديها بحضور القلب.

ثالثاً: أن يعلّم الآخرين الصَّلاة.

رابعاً: أن يحافظ على الصَّلاة.

وهذه الجهات الأربع كانت متوفرة في صلاة الرسول الأعظم والأئمّة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإذا ما توفّرت في غير المعصومين، فإنّما ذلك ببركتهم وتعليمهم، وبفضل التتلمذ في مدرستهم عليهم السّلام.

فإذا اجتمعت هذه الجهات الأربع، فقد أقيمت الصَّلاة.

---

(١) سورة النساء (٤): الآية ١٤٢.

(٢) سورة التوبة (٩): الآية ٥٤.

وبهذا البيان، يتضح ما تقدم من أنّ «الصَّلاة» هي «الدين»، وهذا الأمر مستفاد من الروايات بوضوح تام.

الأئمّة والصَّلاة

وهنا، نحاول أن نوضّح وجود الجهات الأربع في صلاة الأئمّة، فما هو مقام الصَّلاة علماً وعملاً عند هؤلاء الأطهار عليهم السّلام؟

لقد وردت روايات في الباب الحادي عشر من أبواب «مكان المصلّي» في كتاب «وسائل الشيعة» تشمل على فوائد جليلة في هذا المقام.[١] وهذا طرف منها:

عن ابن أبي عُمير:

«رأى سفيان الثوري أبا الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام وهو غلامٌ يصلّي والنّاس يمرّون بين يديه. فقال له: إنّ الناس يمرّون بين يديك وهم في الطواف، فقال له: الّذي أصلّي له أقرب من هؤلاء».[٢]

وفي رواية أخرى:

«كان الحسين بن علي عليهما السلام[٣] يصلّي فمرّ بين يديه رجل، فنهاهُ بعض جلسائه.

فلمّا انصرف من صلاته قال له: لِمَ نهيت الرجل؟

---

(١) نحن نراجع كتاب وسائل الشيعة للبحث عن أدلّة الأحكام في عملية الاستنباط فقط، ونغفل عن وجود دقائق ولطائف المعاني في هذه الروايات. وعندما انتبهت إلى هذه القضيّة، قمت ـ بفضل الله تعالى ـ بتأليف كتاب يحتوى على فوائد أخبار وسائل الشيعة غير الأحكام.

(٢) وسائل الشيعة ٥ / ١٣٢، الحديث ٦١٢٩، نقلاً عن: «التوحيد»، الشيخ الصدوق، الحديث ١٤.

(٣) جاء في بعض المصادر: الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السّلام.

فقال: يابن رسول الله ! خطر في ما بينك وبين المحراب.

فقال: وَيحَك، إنّ الله أقرب إلي من أن يخطر فيما بيني وبينه أحدٌ»؛[١]

وفي رواية أخرى عن الإمام الصّادق عليه السّلام يقول لولده الإمام الكاظم عليه السّلام:

«يا بني ! إنّ الذي أصلي لَه أقرَبُ إلي من الذي مرَّ من قدّامي».[٢]

وفي رواية يقول عليه السّلام:

«لأنَّ الذي يصلّي له المصلّي أقرب إليه ممن يمرُّ من بين يديه».[٣]

وجاء في رواية أخرى:

«قال أبو عبد الله عليه السّلام: إدعوا لي موسى، فَدُعِي فقال له: يا بني ! إنّ أبا حنيفة يذكر أنّك كنت تصلّي والناس يمرّون بين يديك، فلم تنههُم.

فقال: نعم يا أبه ! إنّ الّذي كنت أصلّي له كان أقرب إلي منهم، يقول اللّه عزّوجلّ: ﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.[٤]

قال: فَضمَّهُ أبو عبد اللّه عليه السّلام إلى نفسه، ثم قال: يا بني ! بأبي أنت وأمي، يا مودع الأسرار»[٥]

---

(١) وسائل الشيعة ٥ / ١٣٣، الحديث ٦١٣٠؛ بحار الأنوا ر ٢٩٨/٨٠، الحديث ٥ و٣/ ٣٢٩، الحديث ٣٠. نقلاً عن «التوحيد»، الشيخ الصدوق: ١٨٤، الحديث ٢٢.

(٢) الإستبصار ١ / ٤٠٧، الحديث ٧، تهذيب الأحكام ٢ / ٣٢٣، الحديث ١٧٧؛ وسائل الشيعة ٥ / ١٣٣، الحديث ٦١٣٢.

(٣) الكافي ٣ / ٢٩٧، الحديث ٣؛ وسائل الشيعة ٥ / ١٣٥، الحديث ١٠؛ بحار الأنوار ٨٠ / ٢٩٩، الحديث ٧، نقلاً عن «قرب الأسناد».

(٤) سورة ق (٥٠): الآية ١٦.

(٥) الكافي ٣ / ٢٩٧، الحديث ٤؛ بحار الأنوار ١٠ / ٢٠٤، الحديث ٨

فائدة:

اعتراض أبي حنيفة و سفيان الثوري مستند إلى ما يروونه عن النبي صلّى الله عليه و آله من أنّه قال:

«لو يعلم المارّ بين يدي المصلّي ماذا عليه من الإثم لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمرّ بين يديه»[١]

ولذا قال فقهاء العامّة بأنّ للمصلّي منعه من المرور. ثم قالوا: هذا في غير مكة، أمّا فيها، فقد رووا أنّ النبي صلّى الله عليه و آله صلّى حيال الحجر و النّاس يمرون بين يديه. قالوا: لأنّ الناس يكثرون بمكة لأجل قضاء نسكهم و يزدحمون فيها، و لذلك سميت بمكة...[٢]

وأمّا أصحابنا، ففي العروة الوثقى: يستحبّ أن يجعل المصلّي بين يديه سترةً إذا لم يكن قدّامه حائط أو صف، للحيلولة بينه و بين من يمرّ بين يديه إذا كان في معرض المرور... وهي نوع تعظيم و توقير للصّلاة، و فيها إشارة إلى الإنقطاع عن الخلق و التوجّه إلى الخالق.[٣]

قالوا: إنّه يستحبّ جعل المصلّي شيئاً بين يديه، وأنه لا تبطل الصّلاة بمرور شيء، و قد جاء في الصحيح عن أبي عبد الله الصّادق عليه السّلام أنّه قال:

«فإنْ لم تفعل فليس به بأس، لأنّ الذي يصلّي له المصلّي أقرب إليه ممّن يمرّ بين يديه. ولكن ذلك أدب الصّلاة و توقيرها».[٤]

---

(١) أخرجه أصحاب الكتب الستّة.

(٢) انظر: المغني لابن قدامة ٢ / ٧٤ و ٧٦.

(٣) العروة الوثقى. كتاب الصّلاة. مكان المصلّي، المسألة: ٣.

(٤) وسائل الشّيعة ٥ / ١٣٤.

نعم، هكذا أقام الأئمّة عليهم السّلام الصَّلاة، ثمّ علّموا ذلك لأصحابهم، فكتب علماؤنا كتباً مستقلّةً خاصةً في «أسرار الصّلاة». وهي مأخوذة من نهج الأئمّة عليهم السّلام وسيرتهم الشريفة.

إشارة إلى البحث عن الصّلاة

ويمكن البحث حول الصَّلاة في ثلاث جهات:

١ ـ أحكامُ الصَّلاة.

٢ ـ أسرار الصَّلاة.

٣ ـ آثار الصَّلاة.

فإذا ما اقيمت الصلاة بهذه الجهات الثلاث، كانت التي قال عنها عزّوجلّ:

﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ﴾[١]

وهي الصَّلاة التي ورد في الرواية:

«الصّلاة معراج المؤمن»[٢]

فلو داوم المرء على مثل هذه الصَّلاة في فرائضه و نوافله، كان كمن وصفه الحديث القدسي:

«لا يزال العبد يتقرّب إلي بالنوافل حتّىٰ أكون سمعُه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...»[٣]

ولو صار العبد كذلك، كان دائماً في حال المعراج، بعيداً عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) سورة العنكبوت (٢٩): الآية ٤٥.

(٢) بحار الأنوار ٧٩/ ٢٤٨؛ مستدرك سفينة البحار ٦/ ٣٤٣؛ تفسير الرازي ١/ ٢٦٦.

(٣) راجع الكافي ٢/ ٣٥٢، الحديث ٧؛ بحار الأنوار ٧٢/ ١٥٥، الحديث ٢٥.

أجل... لقد جاء النبي الأكرم والأئمّة الأطهار صلوات الله عليهم، ليقيموا مثل هذه الصّلاة، ويُشيعوها بين الناس، ويعلّموهم إيّاها، وهذه الصّلاة هي الدّين و بها قوام الدّين.

ويبدو أنَّ الصَّلاة كانت مفروضة على الامم السابقة في كلِّ الأديان. ولكن الصَّلاة التي جاء بها النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم، وعلّمها لامّته، تختلف بلا شك عن صلاة اولئك الامم، من حيث أحكامها و أسرارها، و آثارها.

ولأنّ الصّلاة هي الدين ـ كما ذكرنا ـ فقد اتّخذها الكفّار هزواً كما اتّخذوا الدين هزواً، قال تعالى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذينَ اتَّخَذُوا دينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّـذينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ * وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِبا﴾[1]

ولا يخفى دلالة الآية المباركة على أن بعض أصحاب النبي صلّى الله عليه و آله كانوا يتّخذون الكفّار أولياء لهم، و العجيب أن تكون هذه الحالة موجودة عند بعضهم وحتى آخر عمره الشريف، لأنّ الآية في سورة المائدة، وقد ورد في روايات الفريقين و قام الإجماع على أنَّ آخر سورة نزلت من القرآن هي سورة المائدة.[2]

وهذا يعني إنّ بعض أصحاب النبي صلّى الله عليه وآله بقوا إلىٰ آخر عمر رسول الله صلّى الله عليه وآله يقيمون علاقات الودّ مع الكفّار وأهل الكتاب الذين كانوا يسخرون ويهزأون بالدّين و بالصَّلاة !!

---

(١) سورة المائدة (٥): الآيتان ٥٧و ٥٨.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٦ / ١٨٨؛ الدرّ المنثور ٢ / ٢٥٢؛ المحلّى ٩ / ٤٠٧؛ المستدرك على الصحيحين ٣١١/٢؛ تفسير العياشي ١ / ٢٨٨؛ بحار الأنوار ١٨ / ٢٧١، الحديث ٢٧؛ تفسير التبيان ٣ / ٤١٣.

وفي آية أخرى، يقول تعالىٰ:

﴿إِنَّ الْـمُنافِقِينَ يُـخادِعُونَ اللَّـهَ وَ هُـوَ خـادِعُهُمْ وَ إِذا قـامُوا إِلَـى الصَّـلاةِ قامُوا كُسالى﴾[١]

وهذا يعني إنّ بعض أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله كانوا يتظاهرون بالدين، ويقومون إلى الصّلاة ويخادعون. وقد كشف الباري جلّ وعلا بصراحة عن أمثال هؤلاء، في سورة الجمعة حيث يقول عزّوجلّ:

﴿وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَو لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِما﴾[٢]

إذن، فهذا هو حال هؤلاء مع الصّلاة، ولو بحثنا وحقّقنا في هذه القضيّة أكثر، فإنّنا سنصل إلىٰ حقائق مذهلة.

ثم إنه جاء في روايات عديدة، وبأسانيد صحيحة، إنَّ الإمام الباقر عليه السّلام قال:

«ألا أحكي لكم وُضوء رسول الله صلّى الله عليه وآله»[٣]

وهذا يعني إنَّ الوضوء كان قد حرِّف قبل زمن الباقر عليه السّلام.

وفي زمن حكومة أمير المؤمنين عليه السّلام، أراد أن يمنع من صلاة التراويح، فضجّ الناس ينادون: وا عمراه... وا عمراه !![٤]

---

(١) سورة النساء (٤): الآية ١٤٢.

(٢) سورة الجمعة (٦٢): الآية ١١.

(٣) الكافي ٣ / ٢٤، الحديث ٢؛ وسائل الشيعة ١ / ٣٨٧، الحديث ١٠٢١؛ بحار الأنوار ٧٧ / ٢٨٤، الحديث ٣٤، نقلاً عن تفسير العيّاشي ١ / ٣٠٠، الحديث ٥٦.

(٤) شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد ١٢ / ٢٨٣؛ بحار الأنوار ٣١ / ٨؛ نهج الحق: ٢٩٠؛ كتاب الموطأ ١ / ١١٤؛ صحيح البخاري ٢ / ٢٥٢؛ كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان.

وهذه نماذج من تحريف المنافقين الصّلاة.

ولمّا وصلت النوبة إلىٰ حكومة معاوية وبني أميّة، فحدّث ولا حرج.

ولا أظنُّ إن شخصاً دافع عن بني أميّة أكثر من إبن تيمية، ومع ذلك يقول:

«أعظم ما نقمه الناس على بني أميّة شيئان: أحدهما تكلّمهم في علي، والثاني تأخير الصَّلاة عن وقتها»[١]

وفي المقابل، يقول أئمّتنا عن الصّلاة:

«إمتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصَّلاة...»؛[٢]

وما ذلك إلّا لكي تتميّز الخطوط عن بعضها البعض.

إنّ ابن تيمية يعترف بوقوع التحريفات، ولكنه يُقصرها على تأخير الصَّلاة. والحال إن التحريف لم يقتصر عليها، ولكنه إنما قال ذلك لأنه يقف دائماً موقف الدفاع عن معاوية وبني أميّة.

فمن جملة التحريفات، أداء صلاة الجمعة يوم الأربعاء.[٣] وإرسال الجارية الفاحشة لتصلّي بالناس، ووقوف والي الكوفة سكراناً يؤم المصلّين، حتّىٰ تقيّأ في المحراب!![٤]

---

(١) منهاج السنّة ٨ / ٢٣٨؛ راجع شرح منهاج الكرامة.

(٢) وسائل الشيعة ٤ / ١١٢ الحديث: ١٦.

(٣) راجع: الغدير ١٠ / ١٩٥، نقلاً عن مروج الذهب ٢ / ٧٢.

(٤) راجع: الأغاني ٤ / ١٧٨ و١٧٩؛ الغدير ٨ / ١٢٣؛ بحار الأنوار ٣١ / ١٥٢ و١٥٣؛ العقد الفريد ٢ / ٢٧٣؛ فتح الباري ٧ / ٤٤؛ تاريخ الخلفاء: ١٠٤؛ شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد ١٧ / ٢٤٥؛ الإصابة ٣ / ٦٣٨؛ أسد الغابة ٥ / ٩٢؛ الوافي بالوفيات ٢٧ / ٢٧٧ و....

هؤلاء، هم الذين أقسم لهم أبو سفيان قائلاً:

«فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من عذاب ولا حساب ولا جنةٍ ولا نار ولا بعث ولا قيامة»[١]

حتّى إذا وصلت النوبة إلى يزيد قال:

لعبت هاشم بالملك فلا خبرٌ جاء ولا وحي نزل[٢]

إذن، فأهل البيت عليهم السّلام هم المقيمون للصلاة أي الدّين، وأمّا بنو أميّة فقد أضاعوا الصَّلاة، بل كانوا بصدد تغيير الكثير من شعائر الإسلام. حتّى أنّهم أرادوا نقل منبر الرسول صلّى الله عليه وآله من المدينة إلى الشام (!)، وقرّروا إرسال الناس لحجّ بيت المقدس بدلاً من الكعبة، وقد فعلوا ذلك.

حتى أنهم قالوا بأن عبد الملك بن مروان ـ العياذ بالله ـ أفضل من رسول الله محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله !

لماذا؟ لأن عبد الملك خليفة الله !! وأمّا محمد بن عبد الله، فهو رسول الله، وخليفة الرجل أفضل من رسوله. وبناءاً على هذا، فإن عبد الملك بن مروان أفضل[٣]

فالأئمّة عليهم السّلام حفظوا شعائر الإسلام والصَّلاة في قبال دعوات

(١) شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد ٩ / ٥٣؛ تاريخ الطبري ٨ / ١٨٥؛ مروج الذهب ٢ / ٣٤٢؛ الإستيعاب ٤ / ١٦٧٩؛ بحار الأنوار ٣١ / ١٩٧ ومصادر أخرى.

(٢) روضة الواعظين: ١٩١؛ تاريخ الطبري ٨ / ١٨٨؛ البداية والنهاية ٨ / ٢٤٦.

(٣) البداية والنهاية ٩ / ٩١ و٩٢؛ العقد الفريد ٢ / ٣٥٤. جاء في هذا المصدر: «كتب الحجّاج إلى عبد الملك إنّ خليفة الرجل في أهله أكرم عليه من رسوله إليهم، وكذلك الخلفاء يا أمير المؤمنين ! أعلى منزلة من المرسلين».

المنافقين، ووقفوا بوجههم مع كلّ قدراتهم وإمكاناتهم وجبروتهم، وهذا هو نتاج صبر الأئمّة واستقامتهم وتحملهم، ولذلك نقول لهم:

«بذلتم أنفسكم في مرضاته» و «صبرتم على ما أصابكم في جنبه»

فالدين الذي جاء به رسول الله صلّى الله عليه وآله قد حفظه أهل البيت عليهم السّلام، وبقي قائماً ببركة وجودهم وتحمّلهم وصبرهم، ففشلت كلّ محاولات أعداء الإسلام والمبتدعين والمنافقين، وعلى الرغم من قلّة أهل الدين، فإن الدين باق.

وعلى الجملة، فإنّ خطابنا للنبي وآله بقولنا: «أقمتم الصّلاة» إشارة إلى أنّ الصّلاة هي الدين، و إلى الجهود التي بذلها أعداء الدين من أجل تقويضه، وإلى ما تحمّله أهل البيت عليهم السلام في سبيل حفظ الدّين، ولذا كان من حارب أهل البيت محارباً لله سبحانه وتعالى.

وَآتَيتُمُ الزَّكَاةَ

وحفظ الزكاة من جملة المواثيق أيضاً.

والمستفاد من الأدلّة هو أنّ حكم إيتاء الزكاة حكم إقامة الصَّلاة من جميع الجهات.

ولذا نجد أنَّ القرآن الكريم في أكثر الموارد يُقرن إيتاء الزكاة بإقامة الصَّلاة ويجعلهما في سياق واحد، وفي بعض الآيات ورد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك.

يقول تعالىٰ في كتابه المجيد:

﴿وَ ما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا

الزَّكاةَ وَ ذلِكَ دينُ الْقَيِّمَة﴾[١]

ففي هذه الآية أشير إلىٰ أصل من أصول الدين وهو التوحيد، ثمَّ ذكر إقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة فقط، وجعل ذلك دين القيّمة.

وفي آية أخرى، إشارة إلىٰ أنّ إقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من شرائط الإمامة ووظائف الإمام، فالإمام الحق يجب أن تتوفر فيه هذه الامور. يقول تعالىٰ:

﴿الَّذينَ إِنْ مَكَّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُور﴾[٢]

فالإمامة جعلٌ من الله تعالىٰ، ومن نصب للإمامة والرئاسة الإلهيّة يعتبر أن تتوفر فيه هذه الصفات والشرائط.

ومن ثمَّ، نخاطب الأئمّة عليهم السّلام ونقول: أقمتم الصّلاة وآتيتم الزكاة وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر.

المراد من إيتاء الزكاة

وفي تفسير المؤتون الزكاة عدّة إحتمالات، وأمّا إخراجهم زكاة غلّاتهم من أراضيهم التي كانوا يمتلكونها، فهذا واضح.

الإحتمال الأوّل: إنّ الأئمّة عليهم السّلام، كما أقاموا الصَّلاة بالمعنى الذي تقدم بيانه، كذلك آتوا الزكاة، إذ كانوا يعلّمون الناس أحكام الزكاة، ويأمرون الناس

---

(١) سورة البينة (٩٨): الآية ٥.

(٢) سورة الحج (٢٢): الآية ٤١.

بإخراجهم زكواتهم، فحافظوا على أحكام الزكاة من التحريف والتشويه والتغيير، وأحبطوا محاولات المنافقين وأعداء الإسلام في هذا المجال، وذلك لأنَّ الزكاة مثل الصّلاة من دعائم الدين.

الإحتمال الثاني: إنّ المراد من «الزكاة» هنا هو الأعمّ من الزّكاة الواجبة و المستحبّة، فقد يراد من الزّكاة الصّدقة المستحبّة أيضاً كما تقرّر في محلّه، فالمقصود حينئذٍ: هو رعاية الأئمّة عليهم السّلام فقراء المؤمنين و العناية بهم من النّاحية المادّيّة، فهم بالإضافة إلى إيصال الزكوات الواجبة إلى مستحقّيها كانوا، يحملون الطعام إلى بيوت الفقراء و المعوزين، كما هو مذكور بتراجمهم في كتب الموافقين و المخالفين، ممّا لم نجده في أحوال غيرهم.

الإحتمال الثالث: أن يكون المراد من الزكاة هو المعنى العام لها، فامتياز الأئمّة عليهم السّلام على باقي الناس هو إنَّهم عليهم السّلام كانوا يؤتون كلَّ أنواع الزكاة، ذلك، لأن للزّكاة أنواعاً:

١ ـ زكاة المال.

وقد ذكرت أحكام هذه الزكاة وأنصبتها وخصوصيّاتها في كتب الفقه.

٢ ـ زكاة المقام والجاه.

٣ ـ زكاة العلم.

ففي الحديث عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام قال:

«زكاة العلم نشره، وزكاة الجاه بذله، وزكاة المال الإفضال وزكاة القدرة الإنصاف...».(١)

---

(١) بحار الأنوار ٩٣ / ١٣٦ نقلاً عن عدّة الداعي: ٦٣؛ مستدرك الوسائل ٧ / ٤٦، الحديث ٦، نقلاً عن غرر الحكم: ٤٢٤.

فالأئمّة عليهم السّلام قد آتوا الزكاة بكلّ أنواعها وعلى أتمٍّ الوجوه.

وزكاة المال، معلومة وواضحة.

وأمّا زكاة الجاه والمنزلة، فهي بأن يتوسط الإنسان ويشفع لإخوانه في قضاء حوائجهم وحلٍّ مشاكلهم، مستفيداً من جاهه ووجاهته عند الناس.

وزكاة العلم نشره وبثُّه، وهو واضح أيضاً.

فالأئمّة عليهم السّلام كانت لهم ممارسات في كلّ أنواع الزكاة وقد أدّوا زكاتهم على أحسن وجه، وقد تفضل عليهم الباري عزّوجلّ بكلّ هذه الشؤون.

فوظيفة الإمام، وشرط الإمامة، أن يؤدي الزكاة في كلّ موارده بالنحو الذي تقتضيه الضرورة وبالترتيب الذي تتطلبه وظيفته.

ولا يخفى أنَّ تطبيق «آتيتم الزّكاة» على هذا المعنى له ثلاث جهات:

١ ـ أن يكون للإمام عليه السّلام هذه الامور الثلاثة، أي المال، العلم والمقام. وقد كان للأئمّة عليهم السّلام ذلك.

٢ ـ أن يعرف كيف يضع الحقوق في محلّها المناسب، وكيف يصرف كلّ قسمٍ من أقسامها بشكل صحيح ونافع.

٣ ـ أن تكون له القدرة على تطبيق الإيتاء في الأقسام الثلاثة المذكورة.

ولقد كانت هذه الجهات الثلاثة متوفرة في الأئمّة عليهم السّلام، فقاموا بإيتاء الزكاة على أتمٍّ وجه.

ومن هنا، فإنَّ «وآتيتم الزكاة» من خصائص الأئمّة عليهم السلام.

وَأَمَرتُم بِألمَعرُوفِ وَنَهَيتُم عَنِ المُنكَرِ

وإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من جملة المواثيق المأخوذة من الأئمّة عليهم السّلام، وقد عملوا به على أحسن وجه وأدّوا وظيفتهم حياله.

فكلّنا نعلم بأن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً وأحكاماً، وقد ذكرت في كتب الفقه بالتفصيل؛ ولكن المراد من الأمر بالمعروف هنا وفي الآية المباركة التي مرّ ذكرها وكذا في زيارة النبي الأكرم والأئمّة عليهم السّلام، لابدَّ أن يكون فوق كلِّ هذه المعاني، وأكبر من هذا المجال.

فظاهر الآية المباركة، هو إنَّ الأمر بالمعروف و النّهي عن المنكر من شؤون الإمامة ومن صفات الإمام.

إنَّ المنكر هو ما يقابل المعروف. يقول الراغب الإصفهاني:

«عرف: المعرفة... ويضادّه الإنكار».[١]

فإذا ما فهمنا المعروف، سنفهم المنكر لامحالة، بقرينة المقابلة.

ومن جهة ثالثة، فإنّ الأمر مقابل النهي. فإذا فهمنا معنى الأمر، سنفهم معنى النهي قهراً.

إنّ الأئمّة عليهم السّلام أمروا بالمعروف، ومن الواضح أنَّ الأمر بالشئ، لابدَّ أن يتناسب مع ذلك الشئ، إذ ليس الأمر، قول: «إفعل» فقط، بل إنّ الأمر بـمعنى إيجاد داعي الفعل عند المأمور، وهذا ما حُقِّق في علم الاصول أيضاً.

ومن جهة أخرى، فإنّ المعروف مصداقاً، عبارة عن المعروف الإعتقادي، العملي والأخلاقي.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٣١.

وعليه، فالأئمّة عليهم السّلام أمروا الناس بالمعروف الإعتقادي، العملي والأخلاقي، وأوجدوا فيهم الدواعي إلى ذلك.

ولتوضيح هذا الأمر نقول:

لقد قرأنا في آية النفر:

﴿فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون﴾(١)

ما معنى التفقّه في الدين؟

وإنّ التفقه في الدين له أبعاد ثلاثة:

١ ـ البعد الإعتقادي.

٢ ـ البعد العملي.

٣ ـ البعد الأخلاقي.

وما يُدرس في الحوزات العلمية هو بُعد واحد من الفقه.

لقد ثبت أنّ أفعال الله تعالىٰ معلّلة بالأغراض، فلا عبث على الإطلاق. قال تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَق﴾(٢)

وقال عزّوجلّ:

﴿وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِين﴾(٣)

---

(١) سورة التوبة (٩): الآية ١٢٢.

(٢) سورة الأحقاف (٤٦): الآية ٣.

(٣) سورة الأنبياء (٢١): الآية ١٦.

وقال في خصوص خلق الإنسان:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾[١]

وعليه، فإنّ لله تعالىٰ غرضاً من خلق الإنسان، ولم يخلقه عبثاً.

فقال في آخر الآية:

﴿وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾

وهذا إشارة إلىٰ وجود الثواب والعقاب في عالم الآخرة.

إذن، ففي هذا العالم يوجد معروف و منكر، يستتبع المعروف في عالم الآخرة ثواباً والمنكر عقاباً، فلكلٍ منهما أثره.

والغرض من خلق الإنسان إنما يتحقق على الوجه التام فيما إذا بلغ حدّ الكمال.

ولكنّ وصول الإنسان إلىٰ الكمال إنَّما يكون بوصوله إليه في الأبعاد الثلاثة المذكورة للمعروف، وبذلك يتحقق التفقّه في الدين.

والبعد الأول: إستقامة الإنسان وعدم إنحرافه فكرياً وعقائدياً، بأنْ يستند إعتقاده إلى مبانٍ صحيحة ومتقنة، وأدلة وبراهين قاطعة.

والبعد الثاني أن يكون الإنسان فاعلاً للواجبات تاركاً للمحرمات عمليّاً، بأنْ يكون عاملاً بالمعروف وتاركاً للمنكر، فإذا ما جاء وقت «إلينا ترجعون» سيكون الثواب والعقاب على أساس الأعمال ولا يكون ذلك جزافاً.

والبعد الثالث: الأخلاق، أي إنَّ الإنسان إنما يصل إلىٰ الكمال فيما لو إتصف بالصفات الحسنة وتنزّه عن الرذائل والسيئات.

---

(١) سورة المؤمنون (٢٣): الآية ١١٥.

ممّا سبق يتبيّن أنَّ المراد من الأمر بالمعروف، هو إنَّ الإمام يقود الناس إلىٰ الكمال في الأبعاد الإعتقاديّة والعمليّة والأخلاقيّة، فإنّ مثل هذا الأمر بالمعروف هو من مسئوليات الإمام عليه السّلام وإيصال الأمّة إلى الكمال هو الغرض الأقصى من نصبه.

لماذا الأبعاد الثلاث؟

وإنّما كانت الأبعاد ثلاثة، لأنَّ الإنسان مركب من قلبٍ ونفسٍ وجسد.

فمعروف النفس، إتصافها بالصفات الحسنة وخلوّها من الرذائل والصفات السيئة.

ومعروف الأعضاء والجوارح الجسدية، إتيانها بالواجبات الإلهيّة واجتنابها عن المحرّمات.

ومعروف القلب، الاعتقاد الصحيح المستند إلى النظر في الأدلّة النّقليّة والعقليّة بقدر الوسع، و الإيمان الثابت على العقيدة الحقّة.

وبطبيعة الحال، فإنّ الإنسان إذا ما اجتنب المكروهات، وجاء بالمستحبات وعمل بها، فإنه سيترقى رتبة إضافيّة في طريق الكمال.

كما إنّ الإنسان إذا ما إجتنب الشبهات ـ مضافاً إلىٰ المحرّمات والمكروهات ـ فإنه سيحظى برتبة أعلى ويصل إلىٰ منزلة أرفع.

وهكذا الحال في الجهات الاعتقادية، فإنه كلّما تفحص وحقق في الجوانب العقائدية ودقائقها، كانت معرفته بالله وبرسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم أكبر، وأنّه سينال درجات كمال أعلى.

إذن، فطبقاً للآية الكريمة الآنفة الذكر، فإن الإنسان إذا وصل إلىٰ الكمال في أبعاده الثلاث، فسيكون من المتربّين في مدرسة أهل البيت عليهم السّلام.

ومن الواضح، إنّ الإمام لابدّ أن يكون في أعلى مراتب هذه الأبعاد الثلاثة، إذكيف يدعو الآخرين إلىٰ مكارم الأخلاق والأعمال الصالحة والعقائد الصحيحة قبل أن يكون واجداً لها؟

يقول القرآن الكريم:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُم﴾(١)

فهذا ما لا يتحقق أبداً.

وعليه، فلمّا كانت هذه المعاني العالية التي لا يمكننا درك حقيقتها، متوفرة في الأئمّة عليهم السّلام، كان المراد من المعروف هو نفس الإمام وكان أعظم المنكرات مخالفة الإمام عليه السّلام.

ويعني هذا تجسّد المعروف بأعلى مراتبه في وجود رسول الله صلّى الله عليه وآله وفي الإمام من بعده، فكلّما قاله النّبي و الإمام أو فعله هو المعروف، وكلّما نهيا عنه أو تركاه هو المنكر، والنّبي والأئمّة هم الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر بمعناهما الحقيقي الواقعي، كما تقدّم من أنّهم المقيمون للصّلاة والمؤتون للزّكاة، وإن كانت الصّلاة والزّكاة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من الفرائض المكتوبة على كلّ فردٍ من أفراد المسلمين، على ما تقرّر في محلّه.

---

(١) سورة البقرة (٢): الآية ٤٤.

ومن هنا يتبيّن وجه قراءة أهل البيت عليهم السّلام كـلمة «خـير أُمّـةٍ» فـي قوله تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(١)

بكلمة: «خَيرَ أئمة»(٢)

وهذا هو الواقع حقاً، وإن كانوا عليهم السّلام قد قالوا: «إقـرؤوا كـما يـقرأ الناس»،(٣) إذ كيف يمكن لكلّ فردٍ فردٍ من الامّة أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بالمعنى الذي ذكرناه؟

أليس كلّ هؤلاء الظلمة والفسّاق مرتكبوا الجرائم والذنوب، من هذه الأمّة؟

هذا، وقد فسّرنا الآية في بعض أبحاثنا وعلى ضوء كلام بعض المفسّرين كالفخر الرازي بما يتطابق مع قراءة أهل البيت عليهم السّلام.(٤)

وخلاصة الكلام، إنَّ هذا المعنى من خصائص النبي الأكرم والأئمّة الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين، وهو إحـدى الشـهادات الواردة فـي الزيـارات لهـم كالشّهادة لهم بإقامة الصّلاة و إيتاء الزّكاة.

---

(١) سورة آل عمران (٣): الآية ١١٠.

(٢) تفسير العياشي ١/١٩٥، الحديث ١٢٩؛ بحار الأنوار ٢٤/١٥٣، الحديث ٢.

(٣) بصائر الدرجات: ٢١٣؛ الكافي ٢/٦٣٣، الحديث ٢٣؛ بحار الأنوار ٨٩/٨٨، الحديث ٢٨. جاء فـي هـذا المصدر: قال سالم بن أبي سلمة: قرأ رجل على أبي عبد الله عليه السّلام وأنا أسمع حروفاً من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس.

فقال أبو عبد الله عليه السّلام: مه، مه، كف عن هذه القرائة. إقرء كما يقرأ الناس حتّىٰ يقوم القائم؛ فإذا فقام، فقرأ كتاب الله على حدّه واخرج المصحف الذي كتبه علي عليه السّلام....

(٤) راجع: تفسير الرازي ٨/١٩٠.

وَجاهَدتُم فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ

إنّ فقرات الزيارة الجامعة ناظرة في الأعم الأغلب إلىٰ الآيات القرآنية أكثر من نظرها للروايات. ومن هنا، فإننا نراجع الآيات الكريمة قبل الرجوع إلىٰ الروايات في شرح الفقرات، وفي حالة الضرورة واللّزوم نرجع إلىٰ الروايات وأحياناً نرجع إلىٰ الأدعية والزيارات الاخرى.

وهذه الفقرة من الزيارة، إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ في سورة الحج:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُم﴾(١)

الجهاد في القرآن والروايات

وقد جاء ذكر الجهاد في القرآن الكريم على أنواع:

١ ـ الجهاد في سبيل الله بنحو مطلق.

٢ ـ الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس.

٣ ـ الجهاد الكبير، كما في قوله تعالىٰ:

﴿فَلا تُطِعِ الْكافِرينَ وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبيرا﴾(٢)

٤ ـ الجهاد في الله. كما في قوله تعالىٰ:

﴿وَ الَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾(٣)

---

(١) سورة الحج (٢٢): الآيتان ٧٧ و ٧٨.

(٢) سورة الفرقان (٢٥): الآية ٥٢.

(٣) سورة العنكبوت (٢٩): الآية ٦٩.

٥ ـ الجهاد في الله مع وصف «حقَّ جهاده» كما جاء في قوله تعالىٰ:

﴿وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُم﴾(١)

ونبيّن الآن حقيقة الجهاد:

والجهاد الوارد في الشريعة على قسمين:

١ ـ جهاد العدو.

٢ ـ جهاد النفس، والذي عُبِّر عنه في الرواية بالجهاد الأكبر.(٢)

وعلينا هنا أن نتأمّل جيداً.

١ ـ ما معنى الجهاد في الله؟

٢ ـ ما معنى حقَّ جهاده؟

معنى الجهاد في الله

لابدّ من التدقيق في كلّ آيات القرآن الكريم، وعلى حدٍّ قول بعض أساتذتنا، علينا أن نأنس بالقرآن، لأن في القرآن الكريم لطائف ودقائق وإشارات من المهم جداً الإنتباه إليها، لأنها تفتح للإنسان أبواباً للمعرفة.

ففي هذه الآية المباركة، يقول تعالىٰ «جاهدوا في الله» وهذا التعبير يختلف عن «جاهدوا في سبيل الله».

ففي القرآن الكريم جاءت كلمة «في» في عدّة موارد، فمثلاً جاء في الآية الكريمة:

---

(١) سورة الحج (٢٢): الآية ٧٨.

(٢) راجع: معاني الأخبار: ١٦٠، الحديث ١؛ مستدرك الوسائل ١١ / ٣٢٤، الحديث ١٢٦٣٩؛ كنز العمال ٤ / ٤٣٠ و ٤٣١، الحديث ١١٢٦٠ و ١١٢٦٥.

﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾[(١)]

فلماذا قال «في القربى» ولم يقل: «إلّا المودّة للقربى» أو «إلا المودّة بالقربى» أو «إلّا مودّة القربى»؟

فما هي النكتة لمجئ كلمة «في» في الآية؟

إن هذه الآية ـ المعروفة بآية المودّة ـ من أحسن أدلّتنا على إمامة أهل البيت عليهم السّلام بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله، وقد استشكل بعض المتعصّبين في الإستدلال عن الجهل أو التجاهل لمعنى «في»، فقد نعذر صاحب كتاب التحفة الإثنى عشريّة لكونه هندياً لا يعرف دقائق الإستعمالات في اللغة العربيّة.

وإن كنّا نؤاخذه من جهة أنَّ على الجاهل أن يسأل العالم لا أن يعترض على ما لم يعلم!

ولكن ماذا نقول لإبن تيميّة العربي الّذي يدّعى له العلم بالقرآن؟ إنّه ليس إلّا التعصّب للباطل والعناد للحقّ وأهله.

لكنّ غير واحد من المفسّرين كالزّمخشري وأبي حيّان الأندلسي النحوي والفخر الرازي ذكروا نكتةً لمجئ «في» في آية المودّة جديرة بالإلتفات، والأصل فيها هو الزمخشري وسنورد كلام بعضهم لاحقاً.

ونظير هذه الآية، ما جاء في قوله تعالىٰ:

﴿وَ ما يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[(٢)]

فلكلمة «في» دلالة خاصة.

(١) سورة الشورى (٤٢): الآية ٢٣.

(٢) سورة آل عمران (٣): الآية ٧.

هذا، وقد إدّعى بعض المعاصرين أنّنا أيضاً من مصاديق «الراسخون في العِلم»، ولكنّ الأئمّة عليهم السّلام هم المصداق التام لهذه الآية !!

لقد اشتبه هذا الشخص من عدَّة جهات:

الاولى: إنّه جاء في ذيل هذه الآية المباركة، عدّة روايات في بيان المراد من الراسخين، منها ما رواه أبو بصير عن الإمام الصّادق عليه السّلام قال:

«نَحنُ الرّاسخونَ في العِلمِ ونَحنُ نَعلَمُ تَأويلَه».[١]

فلسان هذه الروايات ينفي أن يكون غيرُ الأئمّة عليهم السّلام معنيين بهذه الآية، حتّىٰ بنحو المصداق غير التامّ.

الثانية: إنّ لكلمة «في» في الآية الشريفة، دلالة خاصة ونكتة ظريفة، سنبيِّنها، ومع وجود هذه النكتة يخرج غير الأئمّة من مصاديقها، ولا يحقّ لأحدٍ أن يدّعي ذلك.

الثالثة: إن مجئ كلمة «الرسوخ» في هذه الآية الشريفة، مع الالتفات إلىٰ مفهومها في اللغة العربية، يدلُّ على إنَّ العلم بالقرآن الكريم ينحصر فقط بالأئمّة المعصومين عليهم السّلام.

الرابعة: إنّ هذه الآية الكريمة، في مقام بيان أنّ القرآن المجيد يشتمل على المحكمات والمتشابهات، فهل يستطيع أحدٌ غير الأئمّة عليهم السّلام أن يدّعي أنَّ عنده شيئاً من العلم بمتشابه القرآن الكريم؟

إنّ كلمة «في» هنا وفي الموارد المماثلة لها دلالة خاصة مع الحفاظ على

---

(١) نقل هذا الحديث في بصائر الدرجات: ٢٢٤، الأحاديث ٥و٦و٧ عن الإمام الباقر عليه السّلام؛ الكافي ١ / ٢١٣، الحديث ١؛ بحار الأنوار ٣٢ / ١٩٨، الحديث ٣١ و ٣٢؛ تفسير العياشي ١ / ١٦٤، الحديث ٨

المعنى الموضوعة له وهو «الظرفية».

والنكتة ما ذكره الزمخشري في تفسيره «الكشاف» في ذيل آية المودة، قال:

«فإن قلت: هلّا قيل» إلّا مودّة القربى «أو» إلّا المودّة للقربى ؟ «وما معنى قوله ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ﴾؟

قلت: جعلوا «قُربى» مكاناً للمودة ومقرّاً لها. كقولك: «لي في آل فلان مودة» ولي فيهم هوى وحبّ شديد، تريد أُحبّهم وهم مكان حبّي ومحلّه، وليست «في» صلة للمودة كاللام إذا قلت: «إلا المودّة للقربى» إنما هي متعلّقة بمحذوف تعلّق الظرف به في قولك: «المال في الكيس» وتقديره إلّا المودّة ثابتةً في القربى ومتمكّنة فيها»[١]

ثم قال في «الكشّاف»:

«رُوي أنّها لما نزلت قيل: يا رسولالله! من قرابتك هؤلاء الّذين وجبت عليناموّدتهم؟ قال صلّى الله عليه وآله: علي وفاطمة وابناهما».[٢]

وها هو الفخر الرازي يشير إلىٰ هذا المعنى أيضاً ويقول:

«أورد صاحب «الكشّاف» على نفسه سؤالاً فقال: هلّا قيل: «إلّا مودّة القربى» أو «إلّا المودّة للقربى» وما معنى قوله: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ﴾؟

وأجاب عنه بأن قال: جعلوا مكاناً للمودّة ومقرّاً لها، كقولك: «لي في آل فلان مودّة»، ولي فيهم هَوى وحبّ شديد. تريد أحبّهم وهم مكان حبّي ومحلّه».[٣]

فكأنّ الحبّ والمودة مظروف يحتاج إلىٰ ظرف ومحلّ، وهذا المظروف لابدَّ

---

(١) تفسير الكشّاف ٣ / ٤٦٧.

(٢) تفسير الكشاف ٣ / ٤٦٧.

(٣) تفسير الرازي ٢٧ / ١٦٧.

أن يستقر في ظرفه. والمراد من الظرف هنا، أهلُ البيت وذوو القربى، فهم المختصّون بمودّتي لا أودّ غيرهم كمودّتي لهم وهي مستقرّة فيهم ولا تتزلزل ولا تنفصل عنهم.

وهكذا قال أبو حيّان و غيره من المفسّرين.(١)

وجاء في تفسير النيشابوري:

«أي المودة ثابتة في القربى متمكنةٌ».(٢)

وبناءاً على هذا، فمن الواضح أنّ المراد من «الراسخون في العلم» ليس إلّا الأئمّة عليهم السّلام، فإنهم لا ينفصلون عن العلم، كما إنَّ العلم لا ينفصل عنهم.

فانفصال العلم عن الأئمّة عليهم السّلام يعني الجهل والشك، ومتى شك الأئمّة عليهم السّلام؟ ومتى جهلوا شيئاً؟ ومتى تكلّم الأئمّة عليهم السّلام إعتماداً على الحدس والظنّ؟

إنَّ أعلَمَ العلماء، حينما يستنبط حكماً شرعيّاً أو يختار مطلباً علميّاً، وذلك بعد مدّة مديدة من التحقيق والتّدقيق والفحص، لا يتكلّم بصيغة الجزم و إنّما يقول: الأظهر، الأقوى، والله العالم، وكثيراً ما يتّفق عدوله عمّا ذهب إليه.

وبتعبير بعض أساتذتنا: إنّ أعلم العلماء هذا ـ وبمجرد أن يغفو إغفاءة قصيرة ـ يفقد كلَّ علمه، فكيف يكون من الراسخين في العلم ومن مصاديق الآية؟

إذن، فمعنى «في» في هذه الآية المباركة، وكذا في قولنا في الزّيارة: «وجاهدتم في الله» هو ما ذكرناه.

---

(١) تفسير البحر المحيط ٧ / ٤٩٤؛ تفسير النسفي ٤ / ١٠١؛ تفسير أبي السعود ٨ / ٣٠.

(٢) تفسير النيشابوري (المطبوع في حاشية تفسير الطبري) ٢٥ / ٣٣.

ثمّ، لماذا نقول: «جاهدتم في الله» ولا نقول: «جاهدتم في الرحمن» أو «في الرحيم»؟

لعلَّ النكتة في ذلك هي إنّ لفظ الجلالة «الله» عَلَم للذات المستجمعة لكلّ الكمالات، والأئمّة عليهم السّلام ـ مع الأخذ بنظر الاعتبار لما ذكرناه في فائدة «في» ـ قد جاهدوا لتحصيل جميع الكمالات الإلهيّة، وإنَّ تلك الكمالات قد رسخت فيهم ولن تنفصل عنهم بحال من الأحوال، فهي متمكّنة ومستقرّة فيهم.

إنّ الأئمّة عليهم السّلام، لهم شأن مع الذات الربوبيّة، وكانوا مرتبطين بالله تعالىٰ ومتوجهين إليه بكلّ وجودهم.

وقد ذكرنا آنفاً إنَّ أمير المؤمنين عليه السّلام كان يقول:

«إنَّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»؛[١]

وجاء في روايات العامّة:

«علي مُخشَوشَنٌ في ذات الله»

ماذا تعني هذه الرواية؟ وهي في مسند أحمد، تاريخ الطبري والمستدرك على الصحيحين.[٢]

وروى الطبراني وأبو نعيم الإصفهاني:

«علي مَمسوسٌ في ذاتِ الله».[٣]

---

(١) نهج البلاغة ٤ / ٥٣؛ بحار الأنوار ٤١ / ١٤، الحديث ٤.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٣ / ٨٦؛ تاريخ الطبري ٢ / ٤٠٢؛ المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٣٤.

(٣) المعجم الأوسط ٩ / ١٤٢ و١٤٣؛ المعجم الكبير ١٩ / ١٤٨؛ حلية الأولياء ١ / ٦٨؛ مجمع الزوائد ٩ / ١٣٠؛ كنز العمّال ١١ / ٦٢١، الحديث ٣٣٠١٧.

نعم، هكذا كان الأئمّة عليهم السّلام، فلم تكن علاقتهم مع الله تعالىٰ مبتنية على أساس الخوف أو الطمع، بل كان جهادهم في الله عزّوجلّ، ولا نقول «في سبيل الله» ليقع الفصل، فلقد حصل الأئمّة عليهم السّلام على كلّ الكمالات الإلهيّة، فصاروا مظهراً لصفات الحقّ تعالىٰ، وكلُّ ما عند الناس من كمالات فهو ببركة الأئمّة عليهم السّلام.

كما إنَّ الأئمّة عليهم السّلام جاهدوا من أجل الدعوة إلىٰ الله وحفظ دينه.

وفي مجال جهاد النفس، كانوا هم القادة والقدوة لكلِّ سالكي هذا الطريق.

معنى «حقّ الجهاد»

لقد ذكر الراغب الإصفهاني نقاطاً لطيفة في كتابه «المفردات في غريب القرآن». إنّه يقول:

«والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدوّ الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالىٰ: ﴿**وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ**﴾[1]»[2]

ويقول في كلمة «حق»:

«والرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب».[3]

فإذا ما وقع الفعل في الوقت المناسب له وبالشكل المناسب وبالمقدار المناسب وفي الحال المناسب، قيل فيه: حقّ.

---

(١) سورة الحج (٢٢): الآية ٧٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ١٠١.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ١٢٥.

إذن، فالجهاد له أبعاد، و«الحق» له خصوصيّات، فإذا ما إنتفت إحداها لم يَعُد حقّاً.

وفي القيام بأمر «الجهاد» راعى الأئمّة عليهم السّلام كلّ الخصوصيّات الواجب توفرها في الجهاد، ولذا، كان جهادُهم «في الله «وكان» حقّ الجهاد».

إنّ الأئمّة عليهم السّلام عرفوا وظائفهم بكلّ دقّة ووضوح، فكانوا يقومون بواجبهم في كلّ مكان ومقام، ومع كلّ شخص، بالشكل المطلوب والتام.

وهذه الخصوصيّات هي من مختصات الأئمّة ومنحصرة فيهم، فحتّى أعقل عقلاء العالم يصادفه الاشتباه في حساباته وتخطيطه وفعله، فيفشل في مرحلة من مراحل عمله.

والحاصل، إنّ الأئمّة عليهم السّلام مارسوا الجهاد بكلّ أقسامه في المكان والمقدار والكيفية اللّازمة والمناسبة لكلٍّ حال من الأحوال. ولذا فإنّهم عليهم السّلام يقولون في ذيل الآية التي قرأناها، إنّهم هم المعنيّون.

فعن بريد العجلي عن الإمام الباقر عليه السّلام في قوله تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُم﴾[١]

قال عليه السّلام:

«إيّانا عنى ونحنُ المجتَبَون».[٢]

وفي رواية أخرى في قوله تعالىٰ:

---

(١) سورة الحج (٢٢): الآيتان ٧٧ و٧٨.

(٢) الكافي ١ / ١٩١، الحديث ٤؛ تفسير الفرات الكوفي: ٢٧٥، الحديث ١؛ بحار الأنوار ٦٦ / ٣٥٩.

﴿وَ الَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنين﴾[1]

قال عليه السّلام: «نزلت فينا أهل البيت».[2]

أي إنّ المقصودين في هذه الآية هم أهل البيت فقط، لا إنّهم أحد مصاديقها أو مصداقها الأتمّ، إذ إنّ غير الأئمّة لا يصلح لأن يكون مصداقاً لها إطلاقاً.

نعم، من جاهد في هذا الطريق، نقول عنه: إنّه سائر في هذا الطريق، لا إنّه مصداق للآية الكريمة.

وقد رُوي عن الإمام الباقر عليه السّلام، إنّه قال:

«هذه الآية لآل محمّد ولأشياعهم».[3]

ولكن لا على نحو الإطلاق، فإن ذلك من مختصات الأئمّة عليهم السّلام، فهم الذين «جاهدوا في الله حقّ جهاده» مطلقاً.

لأن هذا التعبير بهذه الخصوصيّات لا يصدق على غير المعصومين.

فإذا ما سار أتباعهم وأصحابهم في هذا الطريق، فهذا لا يكسبهم مصداقيّة الآية ليقال: هذا مصداق، وذاك مصداق، ولكنّ الإمام هو المصداق الأتمّ !!

وبعبارة أخرى، إنّ مصداقيّة الآية إنّما تتحقق في مقام العصمة، فهذا الرسوخ في العلم، وهذا «الجهاد في الله حقَّ جهاده» ملازم للعصمة ولا يكون إلّا من المعصوم، ولذا لم يتحقق الجهاد حقّ الجهاد ـ بالمعنى الذي ذكرناه ـ خارجاً إلّا من المعصومين من أهل بيت رسول الله عليهم السّلام.

---

(١) سورة العنكبوت (٢٩): الآية ٦٩.

(٢) الاختصاص: ١٢٧؛ بحار الأنوار ٢٤ / ١٥٠، الحديث ٣٥ نقلاً عن كنز الفوائد: ٢٢٣؛ شواهد التنزيل ١ / ٥٦٩، الحديث ٦٠٧.

(٣) تفسير القمّي ٢ / ١٥١؛ بحار الأنوار ٢٤ / ٤٣، الحديث ٣.

أجل، هناك في كلّ زمان طائفة من أصحاب الأئمّة وتلامذتهم والمتربّين في مدرستهم عليهم السّلام، ساروا في سبيل الله عزّوجلّ وفي طريق تزكية النفس وجهاد أعداء الحق بالمال والأنفس، ومدرسة أهل البيت عليهم السّلام مستمرّةٍ والحمد لله ـ في إيتاء هذه الثمرات، ولكنّ هؤلاء ثمرة لتلك الشجرة الطيّبة، لا إنَّ الثمرة تكون في حكم الشجرة، ولا يجوز أن نصف الثمرة بما توصف به الشجرة.

فَـــالرَّاغِبُ عَـنْكُمْ مَـارِقٌ

والـلَّازِمُ لَكُمْ لَاحِقٌ، والْـمُقَصِّرُ فِـي حَـقِّكُمْ

زَاهِقٌ، والْحَقُّ مَعَكُمْ وفِيكُمْ ومِنْكُمْ وإِلَيْكُمْ،

وأَنْــتُمْ أَهْــلُهُ ومَــعْدِنُهُ.

ومِيرَاثُ النُّبُوَّةِ عِنْدَكُمْ وإِيَابُ الْخَلْقِ إِلَيْكُمْ،

وحِسَابُهُمْ عَلَيْكُمْ، وفَصْلُ الْخِطَابِ عِنْدَكُمْ.

وآيَاتُ اللَّهِ لَدَيْكُمْ، وعَزَائِمُهُ فِيكُمْ ونُـورُهُ

وبُــرْهَانُهُ عِــنْدَكُــمْ، وأَمْــرُهُ إِلَــيْكُمْ.

مَنْ وَالاكُمْ فَقَدْ وَالَى اللَّهَ، ومَنْ عَادَاكُمْ فَقَدْ

عَادَى اللَّهَ، ومَنْ أَحَبَّكُمْ فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ، ومَنْ

أَبْغَضَكُمْ فَقَدْ أَبْـغَضَ اللَّـهَ، ومَـنِ اعْـتَصَمَ

بِكُـمْ فَـقَدِ اعْـتَصَمَ بِـاللَّهِ؛

فَالرَّاغِبُ عَنْكُمْ مَارِقٌ، واللَّازِمُ لَكُمْ لَاحِقٌ، والْمُقَصِّرُ فِي حَقِّكُمْ زَاهِقٌ

الأمّة بشأن الأئمّة على طوائف

هذه «الفاء» هي فاء التفريع، أي إنَّ هذه الفقرة مترتبة على ما سبقها من فقرات، وهي تشتمل على ثلاث جمل تركّبت كلّ واحدة من موضوع ومحمول وصلة.

فالموضوع في الجملة الأولى: «الراغب» و المحمول «مارق» والصلة «عنكم». وفي الثانية: «اللّازم» و المحمول هو «لاحق» و الصلة «لكم». وفي الثالثة: «المقصّر» و المحمول هو «زاهق» و الصلة «في حقّكم».

فأفادت الفقرة أنّ الأئمّة هم الميزان للأُمّة، و ذلك لأنَّ الله تعالىٰ قد نصب الأئمّة هداةً للخلق وأدلّاء على الله، وليبيِّنوا الفرائض ويقيموا الحدود، وينشروا شرائعه، فتكون أقوالهم أقوال الله وأفعالهم تجلّيات لإرادة الله تعالىٰ، فمن الطبيعي أن يكون الراغب عنهم مارقاً و اللازم لهم لاحقاً و المقصّر في حقّهم زاهقاً، فإنَّ هذا نتيجة كونهم منصوبين من قبل الله.

وهكذا أصبحت الأمّة بشأن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام على ثلاثة طوائف.

فطائفة هم:

المعرضون عن الأئمّة

فَالرّاغِبَ عَنكُم مَارِقٌ

يقولُ الراغب الإصفهاني:

«رغب: أصل الرغبة السعة في الشيئ ... فإذا قيل: رغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه... وإذا قيل: رغب عنه إقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه».[(١)]

وقد ورد كلا الإستعمالين في القرآن الكريم.

قال تعالىٰ:

﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُون﴾[(٢)]

وجاء في آية أخرى:

﴿أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتي﴾[(٣)]

ونقرأ في آية ثالثة:

﴿وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَه﴾[(٤)]

ففي هاتين الآيتين جاءت الرّغبة متعدّيةً بـ«عن» فهي بمعنى الإعراض والإدبار.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ١٩٨.

(٢) سورة التوبة (٩): الآية ٥٩.

(٣) سورة مريم (١٩): الآية ٤٦.

(٤) سورة البقرة (٢): الآية ١٣٠.

وفي الحديث المعروف عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

«النكاح سنتي فمن رغب عن سنّتي فليس مني».[١]

والمستفاد من هذا الحديث، مضافاً إلىٰ محلّ الشاهد، إنَّ الإعراض عن سنّة النبي الأكرم هو إعراض عن نفس النبي صلّى الله عليه وآله.

وسنقرأ من الكتاب والسنّة، كيف إنّ الإنسان وببركة حبٍّ وطاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله سيكون من رسول الله. وأنّ الرّاغب عن سنّته سيكون معرضاً عن نفس رسول الله صلّى الله عليه وآله.

إذن، فإذا كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول إنَّ المعرض عن سنته ليس منه، فكيف سيكون حال من يعرض عن أهل بيته؟ فهل له أن يدّعي إنّه من رسول الله ومن أمّته صلّى الله عليه وآله؟

من هنا كان المُعرض عن أهل بيت رسول الله صلّى الله عليه وآله «مارقاً» عن الدّين، وهذا ما ذكرناه مراراً و أكّدنا عليه.

المروق لغةً

وقد فسَّر أهلُ اللغة كلمة «المروق» بمعنى «الخروج».

ويبدو أنَّ المروق أخصّ من الخروج، فهو خروج ولكنّه ليس مطلق الخروج. يقول الجوهري:

«مرق السّهم من الرّمية مروقاً، أي خرج من الجانب الآخر، ومنه سمّيت

---

(١) الكافي ٥/ ٤٩٦، الحديث ٥؛ بحار الأنوار ٢٢/ ١٢٤، الحديث ٩٤؛ فتح الباري ٩/ ٩٦.

الخوارج مارقة، لقوله عليه السّلام: يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرّمية».(١)

فكلمة «مَرَقَ» تستعمل في الشئ الداخل في الشئ من جانبٍ والخارج عنه من جانبٍ آخر، كما في الحديث الصحيح عن أمير المؤمنين عليه السّلام يقول:

«اُمِرتُ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين».(٢)

وفي حديث آخر: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال لاُمّ سلمة:

«إسمعي يا اُمّ سلمة قولي واحفظي وصيّتي واشهدي وأبلغي (أنّ عليّاً) هذا أخي في الدنيا والآخرة، نيط لحمه بلحمي ودمه بدمي، منّي ابنتي فاطمة ومنه ومنها ولداي الحسن والحسين، وعلي أخي وابن عمّي ورفيقي في الجنّة، وهو منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبي بعدي... يا أم سلمة ! علي يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بعدي».(٣)

والمراد من الناكثين: أصحاب الجمل، ومن القاسطين: أهلُ الشام، ومن المارقين: أهل النهروان.(٤)

---

(١) صحاح اللغة ٤ / ١٥٥٤؛ لسان العرب ١٠ / ٣٤١؛ قاموس المحيط ٣ / ٢٨٢.

(٢) الخصال: ١٤٥؛ عيون أخبار الرضا عليه السّلام ١ / ٦٦، الحديث ٢٤١؛ المسترشد: ٢٦٩، الحديث ٧٩؛ بحار الأنوار ٢٩ / ٤٣٤، الحديث ١٩ و٢٠؛ كنز العمّال ١١ / ٢٩٢، الحديث ٣١٥٥٢ و٣١٥٥٣؛ المعجم الأوسط ٨ / ٢١٣؛ الكامل ٢ / ٢١٩؛ تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٤٦٩.

(٣) مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام ١ / ٣٥٥؛ التحصين: ٦٢٨ وقد جاء في كتاب تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٤٧٠ و ٤٧١، أجزاء من هذا الحديث.

(٤) مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام ٢ / ٥٤٤، الحديث ١٠٥١؛ كنز العمّال ١١ / ٢٩٢، الحديث ٣١٥٥٣؛ تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٤٦٩.

ولقد أنكر ابنُ تيمية هذا الحديث، لأنّه يدلّ على وجوب قتل طلحة و الزبير و معاوية، وأتباعهم.(١)

ولكنَّ الحديث صحيح ولا مجال للخدش في سنده، وقد أثبتنا ذلك بنحو مبسوط.(٢)

لقد كان «المارقون»، من أصحاب أمير المؤمنين عليه السّلام، وكانوا من المندفعين في ولايته، والمستحكمين إلىٰ حدّ ما فيها، ولكنّهم مرقوا وخرجوا عن الولاية والدين، إلىٰ درجة تجعل أهل السنّة ـ الذين يدافعون عن الناكثين والقاسطين ـ أيضاً يقولون بضلالتهم وإنحرافهم، فمروق أهل النهروان عن الحق متفق عليه بين كلِّ المسلمين.

لقد انقلبوا على أعقابهم ومرقوا عن الدين حتّى شاركوا في سفك دم الإمام علي والإمام الحسن والإمام الحسين عليهم السّلام.

إذن، فمن خالف أهلَ البيت عليهم السّلام وحاربهم كانت عاقبته نفس عاقبة أهل النهروان ومصيره مصيرهم وحكمُه حكمهم، فلا فرق بين الذين حاربوا أمير المؤمنين عليه السّلام في صفّين والذين حاربوه في البصرة، والّذين حاربوه في النّهروان، فكلّهم مشركون كما سيأتي بشرح: «ومن حاربكم مشرك».

لكنّ أهل النهروان كانوا من أصحابه فعُبّر عنهم في الأحاديث بـ«المارقين»، وأهل البصرة عُبّر عنهم بـ«الناكثين»، لأنّهم نكثوا البيعة مع أمير المؤمنين. و عبّر عن أهل الشّام بـ«القاسطين» أي: «الجائرين» و «الباغين».

(١) منهاج السنّة ٦ / ١١٢.

(٢) راجع: محاضرات في الإعتقادات ٢ / ٨٠٥؛ دراسات في منهاج السنّة.

وَاللاَّزِمُ لَكُم لَاحِقٌ

واضحٌ أنَّ الملازمة هنا لا يراد منها الملازمة الجسديّة، كما يقال: فلان ملازمٌ لِفُلان، أي إنهما معاً دائماً؛ وإنّما المقصود هو الملازمة المعنوية، أي الكون مع الأئمّة عليهم السّلام و الإنقياد لهم في العقيدة و العمل و الأخلاق، ومن البديهي أنّ هذه المتابعة هي فرعُ المعرفة. ولذا، فإنّه كلّما إزدادت معرفة الإنسان بأهل البيت عليهم السّلام كلّما إزدادت طاعته ومتابعته لهم. ومن هنا، كانت مراتب الطاعة والمتابعة متفاوتة تبعاً لتفاوت درجات المعرفة بالأئمّة عليهم السّلام.

والشاهد على أنّ المراد هو الكون مع الأئمّة بمعنى المتابعة، قوله تعالىٰ في القرآن الكريم:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقين﴾[١]

وهذا الخطاب موجهٌ إلىٰ كلِّ المؤمنين وإلى يوم القيامة، فيجب عليهم الكونُ مع الصّادقين. فمن الواضح، أنَّ المراد، ليس الكون والمعيّة الجسدية، بل المراد هو المعيّة الروحية المعنوية، أي المتابعة والانقياد في العقيدة والفكر والرأي والعمل.

وكم لهذه المعيّة والكون من نظائر في علاقات الناس الاجتماعية، السياسية، الأخلاقية، فحينما يقال فلانٌ مع فلان، فالمراد أنّه متابع له في أفكاره و عقائده.

وحينئذٍ، فإذا ما عرفنا من هم الصّادقون، فإننا سنكون المخاطبين بالآية والمأمورين بملازمتهم وطاعتهم، وكلّما إزدادت معرفتنا بهم، كلّما إستحكمت معيّتنا لهم وملازمتنا إيّاهم وتعذر مروقنا عنهم.

---

(١) سورة التوبة (٩): الآية ١١٩.

وقد ثبت من خلال الأحاديث الواردة عند الفريقين، أنَّ المراد من «الصّادقين» في الآية الشريفة هم أئمة أهل البيت عليهم السّلام.[١]

فيتضح حينئذٍ أنَّ الله تعالىٰ قد أمرنا بأن نكون ـ معنوياً ـ معهم ولا نفارقهم.

ومن جهة أخرى، فإنَّ إطاعتهم «مطلقة»، لأنه تعالىٰ قال: ﴿**وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين**﴾ ولم يقيد بزمان أو مكان أو حال أو فقهٍ أو حديثٍ أو تفسيرٍ، وإنّما أطلق وجوب المتابعة والكون والمعيّة، وهذا يوجب المتابعة في أفعالهم وأقوالهم وتروكهم وحركاتهم وسكناتهم وعقائدهم وأحكامهم وسننهم وآدابهم.

ومن ثمَّ قلنا بعصمة الأئمّة عليهم السّلام وإستدللنا عليها بهذه الآية في جملة الأدلّة الاخرى، لأنّ الأمر بمعيّتهم مطلقٌ وغير مقيَّد بأي قيد، وكلّ من كان كذلك فلابدّ و أن يكون معصوماً.

المعيّة والملازمة تنتهي إلى الخلطة

وهذا المعنى هو مضمون خطاب الإمام الرّضا لابن أبي محمود، حيث قال عليه السّلام:

«يا ابن أبي محمود ! إذا أخذ الناس يميناً وشمالاً فالزم طاعتنا، فإنَّهُ من لزمنا لزمناه ومن فارقنا فارقناه...».[٢]

---

(١) بصائر الدرجات: ٥١، الحديث ١ و٢؛ الكافي ١ /٢٠٨، الحديث ١؛ بحار الأنوار ٢٤ / ٣٠؛ شواهد التنزيل ١ / ٣٤١، الحديث ٣٥٧.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السّلام ٢ / ٢٧٢، الحديث ٦٣؛ بحار الأنوار ٢ / ١١٥، الحديث ١١؛ وسائل الشيعة ٢٧ / ١٢٨، الحديث ٣٣٣٩٤؛ بشارة المصطفى: ٣٤٠ ـ ٣٤١.

ومنه يظهر إنّ القضية ذات طرفين، والإقبال من طرف يقابله الإقبال من الطرف الثاني، وهو نظير ما جاء في قوله تعالىٰ:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1]

وبالتدقيق في إستعمال كلمة «الملازمة» في الموارد المختلفة، نستكشف أمراً أخر وهو: أنَّ الملازمة بالمعنى الحقيقي والواقعي تنتهي إلىٰ المخالطة، وبتعبير آخر يصير المتلازمان على أثر شدّة الملازمة واحداً. ولذا جاء في اللغة:

«وعانقه معانقةً وعناقاً: التزمه فأدنى عنقه من عُنُقِهِ».[2]

فإذا تعانق إثنان بمحبّة، التصقا، فكأنّهما يختلطان و يصيران بعد الإثنينيّة واحداً.

ومن هذا الباب تسمية «الملتزم» من الكعبة المشرّفة، حيث يلتصق به الحاج و يحتضنه، قال في المصباح:

يقال لما بين باب الكعبة و الحجر الأسود الملتزم، لأنّ النّاس يعتنقونه أي يضمّونه إلى صدورهم.[3]

والأصل في كلّ ذلك هو الحبّ، فإنّه المحرّك نحو الطّاعة، وكلّما اشتدّ الحبّ ازدادت الطّاعة، حتّى تتحوّل «الملازمة» و «المعيّة» إلى أن يكون التابع «من» المتبوع.

وهذا معنى قول النبي الأكرم صلى اله عليه وآله في حقّ سلمان:

---

(١) سورة البقرة (٢): الآية ١٥٢.

(٢) لسان العرب ١٠ / ٢٧٢؛ تاج العروس ١٣ / ٣٦٣.

(٣) المصباح المنير: ٥٥٣.

«سلمانٌ منّا أهل البيت».[١]

ومن الشواهد على أنّ الحبّ هو المحرّك الأصلي للطّاعة ثم الوصول إلى أعلى مراتب القرب:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[٢]

فالمحبّة تأتي بالمتابعة، وإذا ما تحققت المتابعة، تبدأ المحبّة من طرف المحبوب، فكلّما إزدادت من هذه الجهة إزدادت من الجهة الاخرى حتّىٰ يصل الإنسان إلىٰ مقام «منّا».

هذا، وقد ذهب بعض الأجلّاء إلىٰ القول بعصمة سلمان رضي الله تعالى عنه بالنظر إلى ما ورد في حقّه عن النّبي و آله عليهم السّلام، ولنا بحث في ذلك.

ومن أظهر المصاديق للمعنى المذكور ما حصل لأمير المؤمنين من رسول الله صلى الله عليه و آله على أثر الملازمة المستتبعة الطّاعة و المتابعة له:

سُئل القثم بن العباس ـ أخو عبد الله بن العباس ـ عن سبب أقربيّة إبن عمّه علي عليه السّلام من رسول الله صلّى الله عليه وآله دون سائر عشيرته، فصار وارثاً له؟

فقال في الجواب:

«لأنّه كان أوّلنا برسول الله صلّى الله عليه وآله لحوقاً وأشدّنا به لُزوقاً».[٣]

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السّلام ١ / ٧٠، الحديث ٢٨٢؛ مناقب أمير المؤمنين عليه السّلام ٢ / ٣٨٤، الحديث ٨٥٨؛ بحار الأنوار ١١ / ٣١٢ـ٣١٣.

(٢) سورة آل عمران (٣): الآية ٣١.

(٣) الفصول المختارة: ٢٤٦؛ الطرائف: ٢٨٤؛ بحار الأنوار ٣٨ / ٢٧١؛ المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٢٥؛ المصنّف ٨/ ٣٤٨؛ السنن الكبرى ٥ / ١٣٩، الحديث ٨٤٩٤؛ المعجم الكبير ١٩ / ٤٠؛ كنز العمال ١٣ / ١٤٣، الحديث ٣٦٤٤٧، وقد جاء في بعض المصادر بدلاً عن كلمة «لزوقاً»، كلمة «لصوقاً».

ومن هذا الباب حالات النّبي و آله الأطهار عليهم الصّلاة و السّلام مع الله، كما سيأتي بيان طرفٍ من ذلك بشرح: «وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم» إن شاء الله.

وهكذا كان حال طلّاب الحوزة العلميّة وحتى الآونة القريبة. فلقد كانوا يلازمون الأساتذة قدر الإمكان، فمضافاً إلىٰ حضور الدرس والبحث، فإنهم كانوا يحضرون معه في منزله، ويصاحبونه في سفره.

وقد نقل لي أحد أساتذتي أنَّ الميرزا محمد تقي الشيرازي كان يلازم أُستاذه «الفاضل الأردكاني»، حتّىٰ عند ذهابه للاستحمام، فكان يحمل ملابس أُستاذه ليعينه في شيخوخته وليؤدي حق الاستاذ وليستفيد من علمه حتّىٰ في طريق ذهابه وإيابه.

وهذا درس تعلّموه من أمير المؤمنين عليه السّلام الذي كان يلازم رسول الله صلّى الله عليه وآله ويذهب معه إلىٰ بيته، كما إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يذهب إلىٰ بيت أمير المؤمنين ويُحدِّثه ويعلّمه.

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام في هذا الشأن:

«وقد كنت أدخل على رسول اللّه صلّى الله عليه وآله كلّ يوم دخلة وكلّ ليلة دخلة فيخليني فيها أدور معه حيث دار، وقد علم أصحاب رسول اللّه صلّى الله عليه وآله أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري، فربما كان في بيتي يأتيني رسول اللّه صلّى الله عليه وآله أكثر ذلك في بيتي. وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني وأقام عنّي نساءه فلا يبقى عنده غيري، وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم يقم عنّي فاطمة ولا أحداً من بني، وكنت إذا سألته أجابني وإذا سكتّ عنه

وفنيت مسائلي ابتدأني...»؛[١]

فهل بلغ أحدٌ من رسول الله صلّى الله عليه و آله غير علي عليه السّلام مابلغه؟

ولذا يقول عبد الله بن العباس: إنّ العلوم قسمت إلىٰ عشرة أقسام، تسعة منها عند علي بن أبي طالب، وقسم واحد قسِّم بيننا جميعاً وعلي شريكنا في هذا القسم أيضاً.[٢]

هذا، وقد جاء في روايات أهل السنّة أنّ النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله قد أشار إلىٰ الحسن والحسين عليهما السلام وقال:

«مَن أحبَّني وأحبَّ هذين وأباهُما وأُمَّهما كانَ مَعي في دَرجتي».[٣]

ولكنّ البعض ليس مؤهلاً لدرك أنَّ حبَّ أهل البيت عليهم السّلام يصل بالإنسان إلىٰ هذه النتيجة.

وعلى الجملة، فإن قولنا «واللّازم لكم لاحق»، كلام تدعمه الأدلّة عقلاً و نقلاً، و تشهد به الآيات و الروايات و سيرة الأئمّة الطّاهرين و عباد الله الصّالحين، وملخّص معناه: إن الملازمة للأئمّة تستتبع المتابعة لهم و المتابعة تستتبع اللّحاق لهم، قال تعالى:

﴿وَ الَّذينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٤]

---

(١) الكافي ١ / ٦٤، الحديث ١٠؛ الإعتقادات، الشيخ الصدوق: ١٢١؛ الخصال: ٢٥٧؛ بحار الأنوار ٢ / ٢٨، الحديث ١١.

(٢) النجاة في القيامة في تحقيق أمر الإمامة: ١٦٢، إبن ميثم البحراني؛ مطالب السئول في مناقب آل الرسول: ١٦٩؛ ينابيع المودّة ١ / ٢١٣ و٢ / ١٧١ و٣ / ١٤٤ و ٢١٠ و ٢٢١؛ الإستيعاب ٣ / ١١٠٤؛ أسد الغابة ٤ / ٢٢؛ سبل الهدى والرشاد ١١ / ٢٨٩؛ تهذيب الأسماء واللغات ١ / ٣٤٦.

(٣) المناقب، إبن شهر آشوب ٣ / ١٥٣ و ١٥٤؛ العمدة: ٢٧٤، الحديث ٤٣٦؛ ذخائر العقبى ك ٩١؛ بحار الأنوار ٢٣ / ١١٦، الحديث ٢٧؛ مسند أحمد بن حنبل ١ / ٧٧؛ كنز العمّال ١٣ / ٦٣٩، الحديث ٣٧٦١٣.

(٤) سورة فاطر (٥٢): الآية ٢١.

وَالمُقَصِّرَ فِي حَقِّكُم زَاهِقٌ

كلمة «قَصَر» في اللغة، جاءت متعديةً بنفسها تارة، ومتعدية بحرف الجرّ تارة أخرى.

ومعاني لفظة «قَصَّر» بلحاظ حرف الجرِّ، متعددة.

فإنْ جاءت «قصَّر» متعدية بنفسها، أعطت معنى التحديد.

وإنْ جاءت متعدية بحرف الجرّ «من»، أعطت معنى النقصان.

وإنْ جاءت متعدية بحرف الجرّ «على»، أعطت معنى الاكتفاء.

وإنْ جاءت متعدية بحرف الجرّ «عن»، أعطت معنى العجز.

وإنْ تعدت بحرف الجرّ «في»، أعطت معنى الإهمال العمدي.(١)

«المقصِّر في حقِّكم»، أي إنَّ المتخاذل والمتماهل في معرفة الأئمّة عليهم السّلام، يُحرَم من ملازمتهم.

ولعلَّ أظهر مصاديق الملازمة، ما كان عليه سلمان، فقد كانت بنحو استدعت صيرورته من أهل البيت.

يقول زرارة: سمعت الإمام الصّادق عليه السّلام يقول:

«أدرَك سلمانُ العلمَ الأول والعلمَ الآخر، وهو بحرٌ لا ينزح وهو منّا أهل البيت، بلغ من علمه أنّه مرَّ برجل في رهط...»(٢)

إذن، فالمقصّر في حقّ أهل البيت عليهم السّلام هو الّذي تماهل في معرفتهم

---

(١) راجع: المفردات في غريب القرآن: ٤٠٥.

(٢) الاختصاص: ١١، بحار الأنوار ٢٢ / ٣٧٣، الحديث ١١، نقلاً عن رجال الكشّي: ٨. وتوجد هذه الرواية في الطبقات الكبرى لابن سعد ٤ / ٨٥ و٨٦ بسند آخر عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام ولكن جاء فيها: «كان بحراً لا ينزف».

مع تمكّنه من ذلك، و هذا يؤدّي قهراً إلى عدم متابعتهم وعدم طاعتهم والانقياد لهم. وحينئذ ستكون الفاصلة بينه وبينهم كبيرة وسيبتعد عنهم كثيراً.

وتوضيح ذلك:

إنَّ الإنسان إمّا عالمٌ أو جاهل، والجاهلُ إمّا مقصِّر أو قاصر، وقد كان الجاهل القاصر موجوداً في الأزمنة الماضية. وأمّا في زمننا هذا، فهل يوجد مصداق للجاهل القاصر أم لا؟ فيه بحث وخلاف. اللّهم إلّا أُولئك الذين يعيشون في الغابات والمناطق المنقطعة عن العالم، وهم اليوم قلّة قليلة، ولسنا الآن بصدد التحقيق عن هذه القضيّة، وإنّما نقول: إنّ من كان قاصراً عن معرفة الله تعالىٰ، أو معرفة النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله، أو معرفة الأئمّة عليهم السّلام، أو أي نوع من المعارف الدينيّة، وكان عاجزاً عن الوصول إلىٰ الحقائق، فإنه ـ وبحسب القواعد ـ سيكون حسابه على الله.

ولكنَّ كلامنا في الجاهل المقصِّر، فما هو تكليف مثل هذا الفرد؟

إذا كان الإنسان جاهلاً، وكان يعلم بأنّه جاهل، ولم يتحرك باتجاه المعرفة عن عمدٍ وإرادة مع قدرته على ذلك، فبقي في ظلمات الجهل والضلال، فإنَّ الشرع والعقل والعقلاء يذمّون هذا الفرد ولا يعذرونه.

إنَّ الإنسان إذا ما إبتلي بصداع طفيف، فإنه سيسارع إلىٰ التداوي والعلاج لرفعه. فإن لم يكن في بلده طبيب أو مشفى أو صيدلية، فإنه سيذهب إلىٰ أقرب بلدة يتوفر فيها ذلك، من أجل معالجة حالته.

أجل، فأبسط حالة مرضيّة، تدفع الإنسان إلىٰ التحرّك السّريع والجادّ للمعالجة، فإن لم يفعل لامَ نفسه ولامه الناس على تقصيره.

أفلا يستحق تحصيل المعارف الدينيّة والوصول إلىٰ الحقائق المعنوية

المقوّمة لحياة الإنسان، أن يكون داعياً ومحفزاً ومحركاً له باتجاهها؟

فمن البديهي أن نلوم الإنسان الجاهل الذي لا يتحرّك ـ على فرض المُكنة والقدرة ـ باتجاه المعرفة وتحصيل الحقائق، ولا تُقبل منه دعوى العجز عنها، ولا نعذره في ذلك.

ومن جهة أخرى، فإنَّ بعض الجهّال، ليس فقط يجهلون أنّهم جهّال، وإنَّما يرون أنفسهم من العلماء، فيستكبرون عن السؤال ويستنكفون عن التعلُّم، كمثل من يسير أياماً وليالي بكلّ همّة وجدٍّ بقصد مكة، غافلاً عن إنّه يسلك طريق الهند لا الحجاز، ولكنه يزعم بأنه عالم بالطرق فيستنكف من السؤال عن الطريق فلا يسأل أحداً: أين طريق مكة؟ ظنّاً منه بأنه عالم به. اللهم إلّا أن يصادف شخصاً في طريقه فيعرِّفه باشتباهه، وحينئذٍ سيخرج من الجهل المركب إلىٰ الجهل البسيط، فيحتاج إلىٰ عالم يخرجه من جهله البسيط هذا فيأخذ بيده ويُقرّه في الطريق الصحيح الموصل إلىٰ مكة.

جهل الناس بأهل البيت عليهم السّلام

والناس من حيث المعرفة بأهل البيت، على طوائف:

١ ـ الشيعة، و هم قسم من الناس لازموا أهل البيت عليهم السّلام، وهم الذين نعبِّر عنهم بـ«الموالين» وهم أولئك الذين يحملون معرفة بأهل البيت عليهم السّلام، وأحقيَّتهم، وتبعاً لهذه المعرفة تابعوا أهل البيت وأطاعوهم في جميع الأبعاد والشّئون وثبتوا وصبروا على هذه الطاعة والإنقياد، وهو معنى التشيُّع حقيقةً.

٢ ـ الخوارج، و هم قسم من الناس أعرضوا عن أهل البيت عليهم السّلام،

وانفصلوا عنهم تماماً، بعد أن كانوا من الموالين لهم وهو ما بيَّناه في شرح «فالراغب عنكم مارق» حيث ذكرنا أن «المروق» ليس مطلق الخروج، وإنّما خروج خاص، وإن كان بمعناه في ظاهر كلمات اللّغويين.

إنَّ هؤلاء، كانوا يقرؤن القرآن، ويؤدّون صلواتهم بخضوع وخشوع، ويلتزمون بالظواهر.

فقد جاء في رواية إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان جالساً ذات يوم بين أصحابه في المسجد، فدخل رجل ولم يسلِّم عليه وأخذ زاوية من المسجد فوقف يصلي بها. فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: من يقوم لهذا الرجل فيقتله؟

فقال أبوبكر: أنا يا رسول الله!!

فلمّا سلَّ أبوبكر سيفه ليقتله، وجده في حال الصَّلاة، وأي صلاة !! صلاة بخشوع وخضوع، فقال في نفسه: كيف أقتل رجلاً يصلّي مثل هذه الصَّلاة؟!

فرجع إلىٰ مكانه دون الامتثال.

فقال رسول الله ثانية: من يقوم لهذا الرجل فيقتله؟

قال عمر: أنا يا رسول الله!

فقام إليه كما قام الأول، فرآه على ما رآه الأول، فلم يقتله ورجع.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله ثالثة: من يقتله؟

فقال أمير المؤمنين عليه السّلام: أنا يا رسول الله!

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«أنت إن أدرَكتَه»؛

وعندما ذهب علي عليه السّلام ليقتله، وجده قد انصرف.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«لو قُتِلَ ما اختلف من أُمّتي رجلان».

ثمّ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في ذلك الشخص:

«إنَّ هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهمُ من الرّمية ثم لا يعودون فيه».[1]

ويظهر من هذه الرواية مدى إخلاص وطاعة أبي بكر وعمر لرسول الله صلّى الله عليه وآله، وعمق إعتقادهما بنبوّته وحقّانيته، و مقدار إنقيادهما لأوامره الحكيمة التي يجب إمتثالها بدون تباطؤ أو نقاش.

٣ ـ الغلاة، وهؤلاء هم الذين يزعمون الحبّ لأهل البيت عليهم الصّلاة والسّلام، فقالوا بألوهية النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله ونبوة بعض أهل البيت وألوهية البعض الآخر، فحكم الأئمّة عليهم السّلام بكفرهم و حذّروا أتباعهم منهم.

٤ ـ النواصب، وهم الذين يعلنون العداء الصريح لأهل البيت عليهم السّلام.

٥ ـ المقصّرون، و هم الذين يغمطون حقَّ أهل البيت عليهم السّلام ويقصّرون في ذلك، فلا يعترفون بمقاماتهم، بل ينزلونهم عن مراتبهم وقد يُساوونهم بسائر الناس.

ولابدّ من التذكير بأننا ـ وفي مقدّمات الكتاب ـ تحدّثنا عن «الغلو» و«التقصير»، وبيّنا المراد منهما على ضوء الروايات الواردة عن

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٣ / ١٥؛ مسند، أبي يعلى ١ / ٩١ و٧ / ١٦٩؛ الإصابة ٢ / ٣٤١؛ مجمع الزوائد ٦ / ٢٢٧ ـ ٦٠٠ وغيرها.

أهل البيت عليهم السّلام، ونقلنا في نهاية المطاف هناك كلاماً للعلّامة المجلسي رحمه الله في هذا المجال.(١)

وخلاصة الكلام: إنّ علينا أن نعرف الأئمّة عليهم السّلام حتّى نتابعهم عن بصيرة و نلازمهم عن وعي كامل، فنصل عن طريقهم إلى معرفة الله وطاعته ونكون من الفائزين.

الأئمّة هم الطريق لمعرفتهم

ثمّ إنّ الطريق الصحيح لمعرفة أي شخص من الناس هو ذلك الشخص، فإنه إن كان صادقاً ويقول الواقع، فما المبرر لمعرفته من خلال غيره؟ فقد تكون آراء الآخرين فيه نابعة من حبٍّ مفرط أو بغضٍ أو حسد، أو قد تكون مستندة إلىٰ ظنون وحدس، أو مسموعات وما شابه.

وأمّا إذا ما قام الشخص بتعريف نفسه، وكان صادقاً، فإن ذلك سيكون مدركاً وحجّة.

أمّا في خصوص النبي الأكرم والأئمّة الأطهار عليهم السّلام، فليس هناك من بإمكانه أن يعرّفهم، لأن عقول العقلاء قاصرة عن درك منازلهم وفهم مقاماتهم، إلاّ أن نرجع إلى الآيات الواردة بشأنهم في كلام الله المجيد، والروايات الواردة بالطّرق المعتبرة عنهم في وصف حالاتهم، وهم الصّادقون حقّاً في أقوالهم وأفعالهم وسيرتهم الحسنة، وهذا مما أجمعت الأمّة عليه.

وبناءاً على هذه المقدمات الثلاث، فإن كانت الرواية حاكية عن شأن من

---

(١) راجع المجلد الأول من هذا الكتاب: ٧١ ـ ٨٢.

شئون الإمام عليه السّلام، وكان هذا الشأن غير مخالف للموازين الشرعيّة والعقلية، فإننا سنكون ملزمين بالاعتقاد بالإمام طبقاً لتلك الرواية، فإذا ناقش أحدٌ في تلك المقدّمات ولم يكن معانداً، كان علينا مجادلته بالتي هي أحسن وإفهامه بها وإزالة الشكوك عنه.

ولا نتصور وجود شيعي، أو غير شيعي منصف، يخالف هذه المقدّمات أو إحداها ويرفضها.

وبناءاً على ما مرَّ، فإنه لا يمكننا تعيين مقامات ومنازل الأئمّة عليهم السّلام من خلال عقولنا القاصرة، ولا تعيين حدودٍ لمقاماتهم، إذا ما تجاوزناها اتهمنا بالغلو !!

فإذا ما عرفنا الأئمّة كما في الكتاب والسنّة، وكلّما تقدّمنا في معرفتهم ازداد إيماننا بهم، فلا نرغب عنهم فحسب، بل نزداد ملازمةً لهم، ونعوذ بالله من التقصير في حقّهم، فإنّ المقصّر في حقّهم كان زهوقاً.

ولماذا يكون المقصّر في حقّهم زهوقاً؟

إنّ كلمة «زهق» تعني هَلَك، تَلَف، بَطَل.(١)

وسرُّ القضيّة إنّما هو في أصل وجوب نصب الإمام.

فبناءاً على مباني العدليّة، يكون نصب الإمام واجباً على الله تعالىٰ لأنه مقتضىٰ عدله، وإن معرفة الإمام واجبة عقلاً ونقلاً.

---

(١) كتاب العين ٣ / ٣٦٣؛ صحاح اللغة ٤ / ١٤٩٣؛ لسان العرب ١٠ / ١٤٧؛ القاموس المحيط ٣ / ٢٤٣؛ مجمع البحرين ٢ / ٢٩٨؛ تاج العروس ١٣ / ٢٠٤.

ففي الحديث القطعي الصدور عن رسول الله صلّى الله عليه وآله، قال:

«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية».[١]

وعليه، فمن الطبيعي أن تكون ميتة المقصِّر في معرفة الإمام ومتابعته المستندة إلىٰ تلك المعرفة، ميتةً جاهلية، وميتة الجاهلية مساوقة للتلف والزهاق والهلكة.

فإذا ما إتّضحت حكمة نصب الإمام وتعيينه في الأمّة، وإذا ما عرفنا فائدة معرفة الإمام، سنعلم قطعاً أنَّ عدم معرفته تؤدي إلىٰ نتائج وخيمة وعواقب سيّئة.

وفي رواية أخرى عن النبي الأكرم محمد صلّى الله عليه وآله، قال:

«إنّما مثل أهل بَيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها هلك».[٢]

فالركوب في سفينة أهل البيت عليهم السّلام ـ يعني أنّ الكون معهم وملازمتهم ـ مساوٍ للنجاة، وأن مفارقتهم وعدم ملازمتهم مساوٍ للهلكة.

وإذا انحصر النجاة والفلاح والصّلاح بطريق أهل البيت عليهم السّلام، كان كلُّ طريقٍ آخر غير طريقهم ضلالاً وباطلاً ومؤدّياً إلى الهلكة.

---

(١) جاء هذا الحديث بألفاظ متفاوتة في منابع متعددة. منها: المحاسن ١ / ١٥٤، الحديث ٧٩؛ الإمامة والتبصرة: ٢؛ كفاية الأثر: ٢٩٦؛ وسائل الشيعة ١٦ / ٢٤٦، الحديث ٢٣؛ المناقب، إبن شهر آشوب ١ / ٢١٢ و٣ / ١٨؛ الكافي ١ / ٣٧٧، الحديث ٣؛ الخصال: ٤٧٩؛ عيون أخبار الرضا عليه السّلام ٢ / ٥٩، الحديث ٢٠؛ كمال الدين ٤٠٩؛ بحار الأنوار ٣٢ / ٣٢١، الحديث ٢٩٢؛ العمدة: ٤٧١، الحديث ٩٩١؛ مسند أحمد بن حنبل ٤ / ٩٦؛ مجمع الزوائد ٥ / ٢٢٤؛ مسند، أبي داوود: ٢٥٩؛ المعيار والموازنة: ٢٤؛ المصنّف ٨ / ٥٩٨، الحديث ٤٢؛ مسند، أبي يعلى ١٣ / ٣٦٦، الحديث ٧٣٧٥؛ صحيح، إبن حبان ١٠ / ٤٣٤؛ المعجم الكبير ١٩ / ٣٨٨، المعجم الأوسط ٦ / ٧٠؛ كنز العمّال ١ / ١٠٣، الحديث ٤٦٤.

(٢) للتحقيق، راجع: المجلد الرّابع من كتاب نفحات الأزهار ـ للمؤلّف ـ

وَألحَقُّ مَعَكُم وَفِيكُم

ولذا، فإنَّ العلّامة الحلّي رحمه الله، ينقل أنَّ المحقّق العظيم الخواجه نصير الدين الطوسي لمّا سُئل عن سبب حصر طرق نجاة الامّة بطريق أهل البيت عليهم السّلام دون غيره من الطرق؟

قال في الجواب: إذا جمعنا حديثين إلىٰ بعضهما البعض، فإن النتيجة ستكون الحصر في طريق أهل البيت عليهم السّلام. فمن جهة، ورد عن النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله، إنه قال «ستفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة ناجية والباقون في النار».[1]

ومن جهة أخرى، رُوي عنه صلّى الله عليه وآله، أنه قال:

«إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها هلك».

حقّاً، أي واحد من هذين الحديثين، فيه إشكال سندي أو دلالي؟

ففي هذه الحالة، تكون النتيجة واضحة وطبيعية.

يقول تعالىٰ في كتابه المجيد:

﴿إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقا﴾.[2]

---

(١) ونجد موارد قريبة لهذا المضمون في المصادر التالية: كفاية الأثر: ١٥٥؛ المناقب، إبن شهر آشوب ٢ / ٢٧؛ الطرائف: ٤٣٠؛ الصراط المستقيم ٢ / ٩٦؛ وسائل الشيعة ٢٧ / ٥٠، الحديث ٣٠؛ بحار الأنوار ٣٠ / ٣٣٧ و٣٦ / ٣٣٦، الحديث ١٩٨؛ عمدة القاري ١٨ / ٢٢٤؛ سنن، أبي داوود ٢ / ٣٩؛ تحفة الأحوذي ٧ / ٣٣٣؛ كنز العمّال ١١ / ١١٤؛ تفسير القرطبي ١٤ / ١٦٠؛ تفسير الثعالبي ٢ / ٩٠. وغير هذه المصادر من كتب الفريقين المعتمدة في مختلف العلوم.

(٢) سورة الإسراء (١٧): الآية ٨١

ومن هنا، فإنه عليه السّلام يقول بعد تلك الفقرة:

«والحَقُّ مَعَكم وفيكم ومِنكم وإلَيكم وأنتُم أهلُه ومَعدِنُه»

فإذا ما كان من سوى أهل البيت باطلاً، وكان الباطل زهوقاً، كان أهل البيت هم الحقُّ، لا الآخرون، لأنَّ الحقَّ واحدٌ لا أكثر.

ما هو الحقّ؟

والحقّ في اللغة: الثبوت، الاستحكام، الصحّة والمطابقة.

يقول الراغب الإصفهاني في معنى الحقّ:

«أصل الحقّ المطابقة والموافقة».(١)

وجاء في المصادر اللغوية الاخرى:

«وهو يدلّ على إحكام الشئ وصحّته، فالحق نقيض الباطل».(٢)

وفي علم الفقه، في كتاب البيع، يبحث عن «الحق» وحقيقته والفرق بينه وبين «الحكم» و الآراء في ذلك مختلفة.

ومن جهة أخرى، فإنَّ أحد أسماء الله تعالىٰ هو «الحقّ».

وعليه، فكلُّ شيٍ ثابت ولا شك فيه أبداً، يعبَّر عنه بـ«الحقّ»، ونشهد له بأنّه حقٌّ. وكمثال على ذلك نقول:

«إنَّ المَوتَ حقٌّ والبَعثَ حقٌّ والجنَّة حقٌّ والنّارَ حقٌّ»

فنحن نشهد على هذه الامور الثابتة، ولا يجوز التشكيك فيها فضلاً عن إنكارها.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ١٢٥؛ تاج العروس ٦/ ٣١٥.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢/ ١٦؛ العين ٣/ ٦.

ومن جهة أخرى، فإنّ «الحقّ» نقيض «الباطل» كما تقدّم. فالشيء الزائل يقال له باطل.

فالباطل زائل والحقّ ثابت وباقٍ ولا يزول أبداً ولا يتغيّر ويبقى محفوظاً.

الحقّ في القرآن

وإليك آيات من القرآن الكريم، نتعرف أكثر على الحقِّ وأحكامه.

لاريب في إنَّ أعزّ الخلق على الله تعالىٰ وأحبّهم إليه من الأولينٰ والآخرين هو رسول الله محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ومع ذلك يقول تعالىٰ في كتابه، مخاطباً إيّاه

﴿أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾(١)

أيُّها النبي، إنّك مع كلّ قربك وعزيز شأنك عندنا، لا تقدر على أن تفعل شيئاً بعد الحقِّ، فإذا ما حقّت كلمة العذاب على شخص وصدر الحكم عليه بذلك، فليس لأحدٍ أن يُغيِّر ذلك زيادة أو نقصاناً، حتّىٰ لو كان أشرف المخلوقات.

فعلى الإنسان أن يتعامل مع ربِّه بنحو لا يقطع علقة الاتصال والإرتباط به فتصدق كلمة العذاب عليه ويكون مصداقاً لها، فإنه لا يُغيِّر مصيره حينئذٍ شيءٌ أبداً، حتّىٰ وساطة الرسول الأكرم صلّي الله عليه وآله.

وهذا من خصوصيّات الحقِّ، فهو ثابت لا يزيد ولا ينقص. لماذا؟

لأنه لو أُضيف إليه الشيء أو نقص منه شيءٌ، فإن ذلك سيخرجه من كونه حقّاً، فإذا خرج من الحق، دخل في الباطل، والقرآن الكريم يقول:

---

(١) سورة الزمر (٣٩): الآية ١٩.

﴿وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ﴾[١]

ولابُدَّ من قبول الحق والتسليم به و التمكين له، وهذا من جملة أحكام الحق في القرآن الكريم، فإنّ قبول الحق واجب في كلِّ حال، سواءٌ كان مطابقاً لميول الإنسان أو لم يكن. فلا يجوز رفض الحقِّ من أجل الأهواء والرغبات أو أي حيث من الحيثيات. يقول تعالىٰ في كتابه المجيد:

﴿وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَق﴾[٢]

فالأفكار، والآراء، وأنظار الإنسان في مقابل الحق مهما كانت و ممّن كانت، ليس لها وزنٌ ولا قيمة.

فلو اجتمع كلّ الناس واتفقوا على مخالفة الحق، لم يكن لإجماعهم أيّة قيمة، بل عليهم إتّباع الحق.

فالحق ثابت ولا يتغيّر أبداً ولا يميل مع الأهواء والميول، بل كلّ الحيثيّات تنصهر في الحق، وتميل إليه. قال تعالىٰ:

﴿وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فيهِنَّ﴾[٣]

فيظهر من ذلك، أنَّ من يقف بوجه الحقِّ، فهو داعية الفساد في الأرض، وأي موضوع تبين أنّه الحق، فلا نقاش ولا مماراة فيه، ولا معنى لتغييره. يقول تعالىٰ:

﴿يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّن﴾[٤]

فلا مناص من إطاعة الحقِّ واتّباعه، بلا تغيير ولا تبعيض ولا زيادة ولا تعدُّد.

---

(١) سورة البقرة (٢): الآية ٤٢.

(٢) سورة المائدة (٥): الآية ٤٨.

(٣) سورة المؤمنون (٢٣): الآية ٧١.

(٤) سورة الأنفال (٨): الآية ٦.

إذن، فأولئك الذين يقولون: إنَّ الحقَّ يتعدّد، وإنَّ الكلَّ يصلون إلىٰ الحقِّ، وأنَّ كلَّ واحدٍ من الأقوال أو الأحزاب له نصيب من الحق، كلُّ ذلك بعيد عن الصواب ومخالفٌ للقرآن الكريم. يقول تعالىٰ:

﴿فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إلاَّ الضَّلال﴾[١]

ومن جملة خصوصيّات الحقِّ أيضاً، إنّه معرِّفٌ لنفسه، ولا يحتاج إلىٰ ما يعرِّفه، بل الآخرون يحتاجون إلىٰ تعريفهم بالحق، لا العكس، فالحق هو الميزان لمعرفة الآخرين، لا أن يكون الآخرون ميزاناً لمعرفة الحقّ، فإن من يريد أن يعرِّف الحقَّ لا يخرج عن أحد حالين: إمّا أن يكون عالماً وإمّا أن يكون ظانّاً.

فإن كان كلامه وتعريفهُ عن علم، فإنّ ذلك يعني إنّه أخذ كلامه من الحق.

وإن كان ما يقوله ظنّاً منه، فلا قيمة لكلامه حينئذٍ. يقول تعالىٰ:

﴿إنَّ الظَّنَّ لا يُغْني مِنَ الْحَقِّ شَيْئا﴾[٢]

ومن هنا، فإنّ ذلك الشخص الذي جاء إلىٰ أمير المؤمنين علي عليه السّلام يوم حرب الجمل وقال له: يا أمير المؤمنين، لقد شككتُ في الأمر، فطلحة والزبير وعائشة في جانب، وأنت وأصحابك في المقابل، فأين الحقّ؟

فقال له أمير المؤمنين عليه السّلام:

«إعرف الحقَّ تَعرفُ أهلَه».[٣]

وفي رواية أخرى، قال عليه السّلام له:

---

(١) سورة يونس (١٠): الآية ٣٢.

(٢) سورة يونس (١٠): الآية ٣٦.

(٣) أنساب الأشراف: ٢٣٨ و٢٣٩ و٢٧٤؛ فيض القدير ١ / ٢٧٢ و٤ / ٢٣، رقم ٤٤٠٩؛ تفسير الكشاف ٤ / ٥؛ تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢١٠.

«إعرف الرجال بالحقِّ لا الحقَّ بالرجال».[١]

فلا يجوز أبداً أن نقول: لأنَّ فلاناً وفلاناً...و... فعلوا كذا أو يفعلون كذا، فهذاهو الحقُّ إذن !!

بل لابدّ من معرفة فلان وفلان من خلال الحقِّ.

فالحقُّ لا يدور مدار الأشخاص، بل إنَّ الأشخاص لابدَّ أن يدوروا مدار الحقِّ.

فلا يجوز لنا أن نحترم الأشخاص بمجرّد شخصياتهم، وإنّما المناط هو إتّباعهم الحقَّ.

ومن خصوصيّات الحقّ أيضاً، هو إنّه لا يستوحش ولا يضعف مع قلَّة أهله والعاملين به، فلو أنَّ كلَّ الناس أعرضوا عن الحقِّ لم يتأثر بذلك ولا يتغيّر بل يبقى ثابتاً راسخاً. وبطبيعة الحال، فإن الحقَّ يُهضم إذا ما هجره الناس ومالوا عنه، ولكنَّ ذلك لا يؤثر بمقدار ذرّة في حقّانيّته وواقعيته.

يقول تعالىٰ:

﴿وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُر﴾[٢]

ولذا، علينا نحن أن نتحرّك ونتّجه إلىٰ الحق ونطلبه، وأن نجده ونتَّبعهُ، فإنه موجود دائماً ومستقر في محلّه.

وينبغي أن لا نتوقع وننتظر أن يأتي الحق ويطرق أبوابنا، بل علينا نحن أن نبحث عنه ونطرق بابه.

---

(١) الحدائق الناضرة ٢٥ / ٢٩٤.

(٢) سورة الكهف (١٨): الآية ٢٩.

وهذا يفسّر لنا ما جرى في قضيّة السقيفة والأحداث اللّاحقة لذلك، فهل كان أمير المؤمنين عليه السّلام مكلّفاً بدعوة الناس إلى نفسه وحمل السيف والقتال؟ يقول الإمام عليه السّلام:

«يا جابر، مثلُ الإمام مَثَل الكعبة إذ يُوتى ولا يأتي»[١]

وفي رواية أخرى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول:

«يا علي أنت بمنزلة الكعبة تؤتى ولا تأتي»[٢]

وهذا هو القرآن الكريم:

﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكيل﴾[٣]

ويخاطب تعالىٰ رسولَه الكريم بقوله:

﴿وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمين﴾[٤]

أي: يا أيّها الرسول إذا لم يأت إليك الناس ولم يتّبعوك، فقد أدّيت الذي عليك من الصدع بالدعوة والله أحكم الحاكمين.

والعجيب هو إنه ـ وعلى مرّ التاريخ ودائماً ـ يكون النزاع قائماً بين الحق والباطل. يقول تعالىٰ في كتابه:

﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِل﴾[٥]

---

(١) كفاية الأثر: ٢٤٨؛ بحار الأنوار ٣٦ / ٣٥٨، الحديث ٢٢٦.

(٢) المسترشد: ٦٧٥؛ المناقب، إبن شهر آشوب ٣ / ٣٨؛ الصراط المستقيم ٣ / ١١١؛ بحار الأنوار ٣٩ / ٤٨؛ أسد الغابة ٤ / ٣١؛ ينابيع المودّة ٢ / ٨٥، الحديث ١٥٨.

(٣) سورة يونس (١٠): الآية ١٠٨.

(٤) سورة يونس (١٠): الآية ١٠٩.

(٥) سورة الرعد (١٣): الآية ١٧.

والأعجب، هو أنَّ أكثر الناس يُعرضون عن الحق ويميلون إلىٰ الباطل.

يقول عزّ من قائل:

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾(١)

ويقول أيضاً في آية أخرى:

﴿بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾(٢)

ومع كلّ ذلك أيجوز للإنسان العاقل أن لا يرغب في الحقِّ؟

ولماذا يكون الحقُّ مُرّاً كما في الخبر؟

فهل إنَّ نفس الحقَّ مرٌّ في ذائقة الإنسان، أم إنَّ نفس الإنسان تراهُ مُرّاً؟

هذا بيان القرآن الكريم حيث يقول:

﴿بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾

وبملاحظة آيات القرآن المجيد، يُعلم أنَّ الإمام والإمامة أيضاً كذلك، فلابدَّ أن نفهم الإمامة و نعرف الإمام، و أن نعلم أنَّ إعراضنا لا يضرُّ الإمام كما أنّ معرفته و الإتّباع له لا ينفعه، ولن ينقاد الحقُّ أبداً لأهوائنا ولأفكارنا وميولنا.

والعجيب هو إنّ سيرة أمير المؤمنين ـكما تدلّ على ذلك الروايات والتاريخ والسيرة ـلم تتغيّر أبداً، سواءٌ في وقت إعراض الناس عنه أو وقت التفافهم حوله وإلحاحهم على مبايعته وتصدّيه للحكم، فعلي الحاكم هو نفسه علي الجليس في الدار، لأنه الحق، وشأن الحقَّ عدم التّغيير، والحق مع أهل البيت عليهم السّلام، لم يفارقهم ولم يفارقوه أبداً.

(١) سورة الأنبياء (٢١): الآية ٢٤.

(٢) سورة المؤمنون (٢٣): الآية ٧٠.

الحق مع عليّ

كما ورد في الحديث الشريف القطعي الصدور أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

«علي مَعَ الحقِّ والحقُّ معَ علي».(١)

وقد روىٰ هذا الحديث أكثر من عشرين صحابي، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وكان لأم سلمة رحمها الله دور كبير في هذا الشأن.(٢)

جاء في التاريخ:

أن معاوية قال لسعد بن أبي وقاص ـ وكان قد تخلّف عن الخروج مع علي عليه السّلام في حروبه ـ أنت يا سعد الذي لم تعرف حقنا من باطل غيرنا فتكون معنا أو علينا.

فقال له ـ فيما جرى بينهما ـ: أما إذا أبيت، فإني سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يقول لعلي عليه السّلام: أنت مع الحق والحق معك.

فكذّبه معاوية في ذلك وتوعّده، إن لم يأت بمن سمع ذلك معه؛

فاستشهد سعد بأُم سلمة رضوان اللّه عليها.

فقالت: نعم، في بيتي قال ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله.(٣)

---

(١) راجع: المجلد الأول من هذا الكتاب، الصفحة ٤١١.

(٢) وإنّي أشعر بوجود تعلق قلبي شديد عندي بهذه السيدة الجليلة، حتّىٰ إني نبت عنها وعن عمار بحجّة كاملة قربة إلىٰ الله تعالىٰ.

(٣) كشف الغمّة ١ / ١٤٦؛ كتاب الأربعين: ٩٨؛ بحار الأنوار ٣٨ / ٣٦؛ مناقب علي بن أبي طالب عليه السّلام، إبن مردويه: ١١٨، الحديث ١٤٤؛ المناقب، الخوارزمي: ١٧٧، الحديث ٢١٤؛ المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٢٤؛ مجمع الزوائد ٩ / ١٣٤؛ المعجم الأوسط ٥ / ١٣٥؛ المعجم الصغير ١ / ٢٥٥؛ كنز العمال ١١ / ٦٠٣.

وقد روى أهل السنّة هذا الحديث الشريف في كتبهم بأسانيد صحيحة.

يقول الحاكم النيشابوري في «المستدرك على الصحيحين» بعد عدّة أسانيد لهذا الحديث:

«هذه الأحاديث كلُّها صحيحةٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه».[1]

وقد جاءت في هذا الحديث جمل ظريفة، منها: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قد دعا بهذا الدّعاء:

«اللهم أدِر الحقَّ مَعَه حيث دار».[2]

فأينما كان أمير المؤمنين عليه السّلام، ومهما قال أو فعل، وكلّ حركة وسكنة منه، فهو الحقُّ وعلى الحق.

وفي رواية أمِّ سلمة، جملةٌ أخرى، وهي أنه صلّى الله عليه وآله قال:

«لن يفترقا حتّىٰ يردا علي الحَوض».

وبنظري إنَّ هذه العبارة ظريفة جداً، وفيها سرٌّ.

ثم تقول أُمُّ سلمة، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«مَن اتّبعهُ اتّبع الحقَّ ومن تَرَكه ترك الحقَّ، عهداً معهوداً قبل يومه هذا».

ولقد كان الأئمّة كذلك، ومنذ اليوم الأوّل لوجودهم عليهم السّلام.

إذن، فالحق مع أهل البيت عليهم السّلام.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣/ ١١٩.

(٢) العمدة: ٣٠٠؛ كتاب الأربعين: ٩٢؛ بحار الأنوار ٢٩/ ٣٤٣و٣٨/ ٣٥و٤٠/ ٧٥؛ الصراط المستقيم ١/ ٢٩٨؛ المستدرك على الصحيحين ٣/ ١٢٤ ـ ١٢٥؛ شواهد التنزيل ١/ ٢٤٦؛ شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد ١٠/ ٢٧٠. سورة الشورى (٤٢): الآية ٢٣.

فإن كانت كلمة «الحقّ» في هذه الفقرة هي بمعنى نقيض «الباطل»، إذن فكلّ حقّ هو مع أهل البيت عليهم السّلام، فغيرهم باطل وهم الحقّ.

وإن كان المراد من «الحقّ»، مصاديق الحقّ: الله، القرآن والدين، فإن الله والقرآن ودين الإسلام مع أهل البيت عليهم الصّلاة والسّلام لا مع غيرهم.

ولا يخفى، إنّ كلمة «في» في «فيكم» في هذه الفقرة، هي مثل كلمة «في» الواردة في آية المودّة:

﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾[1]

أي إنّ الحقَّ مستقرٌّ هنا، وهذا محلّه، ومستودع فيه؛ فإذا ما انكشفت القضايا واتّضحت الأمور، وتميّز الحق عن الباطل، فسيكون الحقُّ هنا.

تقول أمُّ سلمة: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«ومن تركه تَرَكَ الحقَّ، عهداً معهوداً قبل يومه هذا».

وعليه، فالبحث ليس فقط في حرب علي عليه السّلام ومعاوية، أو غصب أبي بكر للخلافة ويوم السقيفة، بل إنّ ذلك مقرّر من قبل يومه.

ومن ثَمَّ جاء في كتب الشيعة والسنّة معاً، أنَّ النبي الأكرم محمداً صلّى الله عليه وآله قال له:

«والإيمان مخالط لحمك ودمك كما خالط لحمي ودمي».[2]

---

(١) سورة الشورى (٤٢) الآية: ٢٣.

(٢) الأمالي، الشيخ الصدوق: ١٥٧، الحديث ١٥٠؛ الغارات ١ / ٦٢؛ مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام ١ / ٢٥١ و٢٦٦؛ بشارة المصطفى: ٢٤٦، الحديث ٣٥؛ كشف الغمّة ١ / ٢٩١؛ المسترشد: ٦٢٠، الحديث ٢٨٨؛ المحتضر: ٩٦، الحديث ١٩٩؛ بحار الأنوار ٣٨ / ٢٤٨ و٦٥ / ١٣٧، الحديث ٧٥؛ المناقب، الخوارزمي: ١٢٩؛ ينابيع المودّة ١ / ٢٠٠ و٢٠١.

أجل، فلقد كان الأمر كذلك من أصل الخلقة، فهل إنَّ هذا الفهم وهذا المعتقد ينتهي إلى القول بالجبر؟!

هذا كلّه بحسب ظاهر العبارة و الأخذ بـ«أصالة الحقيقة».

وأمّا إذا أخذنا بالمجاز، فسيكون المعنى «والحقُّ في إتّباعِكم» أو «والحقُّ في الاقتداءِ بِكم»، و هذا التفسير واضح ولا شبهة فيه.

ثم يقول عليه السّلام:

وَمِنكم وَإلَيكم

نعم، الحق بدأ من أهل البيت و إليهم يعود و ينتهي، وهم رسول الله و آله الأطهار ـ كما بيّنا ذلك في آية التطهير ـ وهذا ممّا ريب فيه عند المحقّق المنصف.

وإذا راجعنا كلمات وخطب رسول الله صلّى الله عليه و آله و أمير المؤمنين عليه السّلام المرويّة في نهج البلاغة، وتأمّلنا في مفاهيمها في التوحيد، النبوّة، المعاد، وسائر المعارف الدينيّة، سنذعن بأنّ أهل البيت هم السّابقون في بيان هذه الحقائق و أنّهم هم الأصل لها في الإسلام، و أن سائر الناس ـ من الصّحابة فمن بعدهم ـ منهم تعلّموا و عنهم أخذوا.

وقد نقل لنا التاريخ أنَّ الحجّاج بن يوسف كتب يوماً كتاباً إلىٰ أربعة من كبار علماء زمانه ـ أحدهم الحسن البصري ـ يسألهم عن رأيهم في مسألة الجبر والإختيار؛ أحدهم في البصرة، والثاني في الكوفة، والثالث في بلد ثالث والرابع في مكان آخر، فجاء جواب كلّ واحدٍ من الأربعة عن هذه المسئلة بكلام لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيها؛ فقال الحجّاج:

لقد أخذوها من عينٍ صافية!![1]

إذن، إن كان المراد من «الحقّ»، هو الله تعالىٰ، الإيمان، القرآن، والمعتقدات الصحيحة الحقّة والعلوم الدّينيّة من التفسير والأحكام والحديث والأخلاق وغيرها، فكلُّ هذه مأخوذة عن أمير المؤمنين والأئمّة الأطهار عليهم السّلام، فهم الذين عرَّفوا الحقَّ ودَعَونا إلىٰ الحقائق وعلّمونا بها ونشروها بين المسلمين.

لقد ذكر ابنُ أبي الحديد في مقدمة شرح نهج البلاغة إجمالاً إنَّ كلَّ العلوم الإسلاميّة مأخوذة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام.[2]

ولكنّي أُثبتُّ بالتفصيل بأنّ العلوم الإسلاميّة في صدر الإسلام قد إنتشرت على يد أمير المؤمنين عليه السّلام في البلاد الإسلاميّة، وتحقيقي هذا مستند إلىٰ كتب أهل السنّة، ردّاً على إبن تيميّة.[3]

نظرة إلىٰ علم أمير المؤمنين عليه السّلام

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في الحديث الشريف:

«أنا مدينة العلم وعلي بابها».[4]

وفي حديث آخر عنه صلّى الله عليه وآله، قال:

---

(١) الهداية: ١٩ و ٢٠؛ الطرائف: ٣٢٩؛ بحار الأنوار ٥ / ٥٨، الحديث ١٠٨.

(٢) راجع: شرح نهج البلاغة: إبن أبي الحديد ١ / ١٧ ـ ٢٠.

(٣) راجع: نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار ١٢ / ٤٨ ـ ٦٢.

(٤ و ٢) بحثنا عن هذين الحديثين من حيث السّند والدلالة بالتفصيل في ثلاثة أجزاء من كتابنا الكبير: نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار ومن شاء التحقيق فليرجع إليه.

«أنا مدينة الحكمة وعلي بابُها».(١)

وفي حديث ثالث يخاطب به أمير المؤمنين عليه السّلام:

«أنت تبيِّن لأمّتي ما اختلفوا فيه من بعدي».(٢)

كما إنّ أمير المؤمنين عليه السّلام كان يقول:

«سَلوني قَبلَ أن تَفقدوني».(٣)

وهذه الأحاديث كلّها منقولة في كتب الفريقين بأسانيد مختلفة.

وَأَنتُم أَهلُهُ وَمَعدِنُهُ

إنَّ أهل البيت عليهم السّلام هم أهل الحقّ ومعدنُه، والحقُّ عندهم ومعهم أين ما كانوا، وأينما كان الحقَّ فهو عندهم.

وقد عبِّر عنهم عليهم السّلام في هذه الزيارة، تارة بالمعدن، وتارة بالخزّان، وثالثة بالعيبة.

---

(٢) المسترشد: ٦٠٢؛ مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام ١ / ٤٤١، الحديث ٣٤٢؛ الإرشاد ١ / ٤٦؛ اليقين: ١٩٦؛ بحار الأنوار ٣٧ / ٣٠٠، الحديث ٢١؛ كتاب المجروحين ١ / ٣٨٠؛ تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٣٨٧؛ المناقب، الخوارزمي: ٣٢٩، الحديث ٣٤٦؛ ينابيع المودّة ٢ / ٨٦، الحديث ١٥٩؛ ميزان الإعتدال ٢ / ٣٢٨، رقم ٣٩٥١؛ الدرّ النظيم: ٢٨٩؛ كشف الغمّة ١ / ١١٢. وراجع: المجلد الأول من هذا الكتاب: الصفحة ١٢٨.

(٣) بصائر الدرجات: ٢٨٦، الحديث ١؛ نهج البلاغة: كلام ١٨٩؛ كامل الزيارات: ١٥٥، الحديث ١٦؛ الأمالي، الشيخ الصدوق: ١٩٦، الحديث ٢٠٧؛ التوحيد، الشيخ الصدوق: ٣٠٥؛ الإرشاد ١ / ٣٥؛ روضة الواعظين: ٣٢؛ العمدة: ٢٦٤؛ بحار الأنوار ٣٩ / ١٠٨، الحديث ١٣؛ المستدرك على الصحيحين ٢ / ٣٥٢؛ شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد ٧ / ٤٦، المعيار والموازنة: ٨٢؛ تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٣٩٧؛ كنز العمّال ١٣ / ١٦٥.

وعليه، فالأئمّة عليهم السّلام هم ذلك العلم وتلك المعرفة التي لا يشوبها جهل، وهم النور الذي ليس للظلمة إليه من سبيل، وهم الكمال الذي لا يعتريه نقص، والعدل الذي لا ظلم معه، والهداية التي ليس بعدها ضلال.

والحاصل، إنَّ أهل البيت عليهم السّلام هم الحق المحض.

ونظرة واحدة في سيرة أمير المؤمنين عليه السّلام في سائر المراحل و الأدوار كافية لإثبات هذا المدّعى، وإنّها لخير مدرسةٍ للأمّة، ولو طبّقتها في مختلف مجالات الحياة لما كان حالها على ما هو عليه الآن.

ففي الوقت الذي يعلن عليه السّلام عن حقّه في الخلافة بعد النّبي و غصب القوم و كما يقول ابن عباس قال: كنت عند أمير المؤمنين عليه السّلام يوماً، فتحدّثنا عن أمر الخلافة، فقال عليه السّلام:

«أما والله، لقد تقمّصها ابن أبي قحافة أخوتيم وأنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى... فما راعني إلّا انثيال الناس إلي كعرف الضبع، قد انثالوا علي من كلّ جانب حتّىٰ لقد وطيء الحسنان وشق عطفاي...»؛[1] لم يوافق على طلب الناس المبايعين له إمهال معاوية وعدم عزله عن الشام و إن لم يبايع له، حتى تستقرّ الأمور ويستتب له الحكم والسلطان والرئاسة والخلافة والإمامة، في بلاد الحجاز!!

فقال عليه السّلام:

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله، ولا أفعل ما طلعت شمس ولاح في السماء نجم...».[2]

---

(١) علل الشرائع ١ / ١٥٠ و ١٥١؛ معاني الأخبار: ٣٦١؛ بحار الأنوار ٢٩ / ٤٩٧ ـ ٤٩٩، الحديث ١.

(٢) الأمالي، الشيخ المفيد: ١٧٦، الحديث ٦؛ الغارات ١ / ٧٥؛ بحار الأنوار ٤١ / ١٠٨ ـ ١٠٩، الحديث ١٥؛ وسائل الشيعة ١٥ / ١٠٧، الحديث ٣٠؛ جاء هذا الحديث اللطيف مع تفاوت قليل في شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد ٢ / ٢٠٣؛ الإمامة والسياسة ١ / ١٣٢.

نعم، إنّ ولاية معاوية على الشّام كانت جوراً على الإسلام والمسلمين منذ اليوم الأول، أمّا الآن، فليس له أن يبقى على الشام و لا لحظةً واحدة في حكومة علي عليه السّلام، وإن أدّى ذلك إلى ضعفها وتفرّق الناس عنها وخروج الأمر من يده. و لكنّ بعض الجهّال ينتقدون أمير المؤمنين عليه السّلام ويقولون إنّ علياً عليه السّلام كان لا يعرف السياسة !!

وَمِيراثُ النَّبُوَّةِ عِندَكُم

إنّ القضايا المذكورة هي من مواريث وخصائص النبوّة، ولذا قال:

«وميراث النبوّة» ولم يقل «وميراث الأنبياء».

فصحيح أنّ ميراث الأنبياء عندهم، ولكن «ميراث النبوّة» شئ آخر وهو يستبطن سراً مهمّاً، فالحقّ المحض والعدل الخالص و النور التام و الهداية الكاملة و العلم المطابق للواقع هي ميراث النبوّة، وأهل البيت عليهم السّلام يمتلكون خصائص النبوّة، وعندهم كلُّ ما يلزم للنبوّة من الكمالات والمنازل في أعلى مراتبها ولكنّهم ليسوا بأنبياء.

وإن كان المراد من «ميراث النبوّة»، هو «مواريث» الأنبياء، فإنّ مواريث الأنبياء أيضاً موجودة عند أهل البيت عليهم السّلام، وهذا التعبير صحيح وتامٌّ أيضاً. وذلك، لأنّ كلّ واحدٍ من الأنبياء له ميراث أو مواريث، فمثلاً: قد ورّث موسى عليه السّلام العصا، وورّث سليمان الخاتم، وهكذا غيرهما، ونحن نتحدّث عن الحيثيّة الماديّة لتلك المواريث. وإلّا، فإنّ رموزها لها معاني وجهات أخرى،

فسواء كان المراد من «خاتم سليمان» عليه السّلام هو نفس الخاتم، فهو

موجود عند الأئمّة عليهم السّلام، أو كان رمزاً وإشارة لمعانٍ خاصّة ومتميزة، فتلك الحقائق موجودة عندهم كذلك.

هذا، وقد ذكرنا بعض هذه المطالب في شرح عبارة «وورثة الأنبياء».

أهل البيت وحساب الناس يوم القيامة

وَإِيابُ الخَلقِ إِلَيكُم وَحِسَابُهُم عَلَيكُم.

يقول الراغب الإصفهاني في معنى كلمة «إياب»:

«الأوب: ضربٌ من الرجوع، وذلك أنَّ الأوب لا يقال إلّا في الحيوان الذي له إرادة، والرجوع يقال فيه وفي غيره».(١)

وعليه، فإنّ «الإياب» أخصُّ من الرجوع وهو الصحيح، لأنّه لايحاسب في الآخرة إلّا الحيوان الذي له إرادة وهو الإنسان. وهذه الجملة اشارة إلى الآية المباركة: قال الله عزّوجل في القرآن المجيد عن يوم القيامة:

﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُم﴾(٢)

فظاهر الآية أنّ إياب كلّ الخلائق إلى الله، وإنَّ حساب كلّ المكلّفين الذين يُحاسبون على الله، فهو الذي يحاسبهم في يوم القيامة.

شبهة حول الفقرة

فسئل بعض من يدّعي العلم ـ على أساس هذا الظّاهر ـ عن رأيه في الزّيارة الجامعة.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٠.

(٢) سورة الغاشية (٨٨): الآيتان ٢٥و٢٦.

قال: ليست صحيحة.

لماذا؟

قال: لأنّ فيها عبارة تخالف النص القرآني القائل:

﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُم﴾

لكنّ الذي جاء في هذه الزيارة:

«وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم».

ومن جهة أخرى، فإنَّ هذا غلوّ في الأئمّة عليهم السلام، والغلوّ باطل، إذن فالزيارة الجامعة غير صحيحة (!!)

أقول:

لا شك في أنَّ كلَّ ما عارض القرآن الكريم وباين مفاده مفاد آيةٍ من آياته، فهو زخرف، ولكن، هل بين هذه الفقرة و الآية المذكورة مباينة ومنافاة؟

وهل أنّ مضمونها غلوّ في الأئمّة؟!

الجواب عن الشبهة

وسنجيب عن هذه الشبهة ضمن مطالب، وستكون في نفس الوقت شرح هذه الفقرة من الزيارة، وسيظهر من خلال ذلك طرف من منازل الأئمّة الأطهار عليهم الصّلاة والسّلام.

ولكن، لابدّ من تقديم نقاط في مقدّمتين:

الاولى: إنَّ على الإنسان المؤمن أن يهدف في بحثه ونقاشه الوصول إلىٰ الحقيقة، لأنَّ من وظائفنا الإيمان بالعقائد الحقّة الثابتة عن طريق النّظر في

الأدلّة النقليّة والعقليّة والإستدلال بها على طبق الأصول العلميّة ولا يجوز فيها التقليد، بخلاف الأحكام الشّرعيّة العمليّة، فإنه يجب التقليد على المكلّف غير المجتهد والمحتاط، بأن يرجع إلى المجتهد ويعمل على طبق فتاواه على ما هو المقرّر في الفقه.

وكما يجب التقليد في الفروع وجوباً شرعيّاً أو عقليّاً، كذلك النظر والإستدلال في الأصول العقائديّة، فإنه واجب على كلّ مكلّف بحسب استعداده، ابتغاءً لمرضاة الله والنّجاة في الآخرة.

وعليه، فإنه يجب علينا الأخذ بالإحتياط في كلّ مجال و التزام التقوى في العقيدة والعمل، ولا يجوز التّعصّب و التقليد الأعمى و متابعة الهوى.

الثانية: في خصوص النبي الأكرم والأئمّة عليهم أفضل الصّلاة والسّلام ومنازلهم و معارفهم و شئونهم، علينا أيضاً رعاية الإحتياط الكامل والتّقوىٰ في التحقيق عن ذلك، حتى تكون عقائدنا فيهم مستندة إلى الحجّة.

نقاط مهمّة

وبالإلتفات جيّداً إلىٰ هاتين المقدمتين نقول:

إنّ عقيدتنا في النّبي والأئمّة عليهم السّلام هي أنّهم عباد لله تعالىٰ، مخلوقون؛ فليسوا شركاء له جلّ وعلا، ولا إنَّ الله تعالىٰ حلَّ فيهم، ولا إنّهم اتّحدوا به عزّوجلّ، ولا إنّهم أولاد لله تعالىٰ، وليس بينه وبينهم قرابة، وإنّما هُم عباد مكرّمون، أكرمهم الله ببركة عبادتهم وعبوديّتهم وخضوعهم وخشوعهم الفريد له عزّ وجلّ، وأعطاهم مقامات ومنازل وقرّبهم من حضرته، ووصلوا إلىٰ حالات خاصّة لهم معه.

والروايات في هذا الشأن كثيرة. فقد روى أصحابنا بالأسانيد عن الإمام السجّاد عليه السّلام، قوله:

«كان علي عليه السّلام ـ والله ـ عبداً لله صالحاً، أخو رسول الله صلّى الله عليه وآله، ما نال الكرامة من الله إلّا بطاعته لله ولرسوله، وما نال رسول الله الكرامة من الله إلّا بطاعته».(١)

إذن، فنحن نعتقد أنَّ أهل البيت عليهم السّلام، عبادٌ ولكنّهم عبادٌ مكرمون، لانقول هذا لئلّا نتّهم بالغلوّ ويقال بأنّنا نمنح الأئمّة عليهم السّلام أكثر مما هم عليه من المقامات. أبداً، ليس الأمر كذلك، بل إنّ أهل البيت عليهم السّلام نفوا عن أنفسهم الألوهيّة والرّبوبيّة، و كذّبوا قول الغلاة وأبطلوه وردّوه.

هذه عقيدتنا في أهل البيت.

ولكن ظهر في زماننا من بدأ يشكك في منازل ومقامات الأئمّة عليهم السّلام الثابتة بالأدلّة المتقنة.

ولا يخرج هؤلاء عن أحد حالين:

إمّا أنّهم يريدون تخريب المذهب وتضعيف عقيدة المؤمنين لأغراضٍ دنيويّة، وإمّا إنّهم لم ينظروا في الأدلّة الموجودة في أيدينا ولم يدرسوها بشكل صحيح. فإنَّ هذه الامور ـ كما أشرنا من قبل ـ لا يتوصل إليها الإنسان بسهولة، كما هو الحال في سائر العلوم، فالفقيه مثلاً إذا ما أراد استنباط حكم من الكتاب والسنّة، ومن بين مختلف الروايات والقواعد والأصول، مع إختلاف كلمات الفقهاء، ودعاوى الإجماع، فإنَّ عليه أن يمارس ذلك كلّه مع الدقّة العالية

---

(١) بحار الأنوار ٢٥ / ٢٨٧و٢٨٨، الحديث ٤١.

والفحص المتواصل، ومع توفّر كلّ الأدوات، فإنه يحتاج إلىٰ وقت، وبذل قدر كبير من الجهد المتواصل للوثوق من النتيجة.

فعلى فرض إنَّ هؤلاء المشككين هم من أهل التقوىٰ، لكنّ الحقيقة أنهم لم يقوموا بكلّ هذه الممارسة المعقدّة والتحقيق في كلِّ هذه الامور، للوصول إلى ما تدلّ عليه الدلائل والبراهين.

ومن هذا المنظار نقول:

أولاً: إنَّ مقتضى التقوى، هو أن يسعىٰ هؤلاء على قدر وسعهمْ وطاقتهم وسعة نظرهم وإستعداداتهم، ليُصحّحوا معتقداتهم، ويستمدّوا العون من نفس الأئمّة عليهم السّلام.

ثانياً: فإن حاولوا ولم يصلوا إلىٰ نتيجة، فليراجعوا الحوزة العلمية، فإن في الحوزة متخصّصين في كلِّ الفنون والعلوم، وليطرحوا الموضوع مع أهل الخبرة فيه ويأخذوا الأجوبة اللّازمة على إشكالاتهم، فإن هذا هو مقتضى قاعدة التقوى، وإلّا كانوا على خلافها.

وعلى الأقل، إنَّ على هؤلاء أن يسكتوا، ولا يعلنوا تشكيكاتهم فضلاً عن أن ينكروا المقامات والمنازل المعنويّة الثابتة للنبي وآله، بحُجَّة أنَّ هذه الامور ليست من ضروريات المذهب، فلا يحتاج الإنسان إلىٰ الإيمان بها، بل إنَّ مقتضى التقوى لغير المتخصص هو السكوت. فكيف لو بادر بعضهم إلى الطعن فيها في أجواء أعداء أهل البيت عليهم السلام؟

وعلى الجملة، فإن هذه مسائل تخصّصية، ويشترط في التحقيق فيها أنْ يعتمد على الأدلّة المتقنة من النقل والعقل لاعلى الظّنون الشخصيّة والآراء الشاذة، والله الهادي.

بحثٌ قرآنيٌّ

وبه يتّضح عدم المنافاة بين هذه الفقرة و القرآن الكريم، وهو في مطالب:

المطلب الأول: في القرآن الكريم، ضمائر تعود إلىٰ الله تعالىٰ ـ المتكلّم وحده ـ جاءت تارة: بصيغة المفرد، واخرى: بصيغة الجمع. كما أن الحال بالنسبة إلى الأفعال كذلك، فإنّ الأفعال المسندة إليه تعالىٰ، جاءت تارة بصيغة المفرد، واخرى بصيغة الجمع.

فما هو السرّ في ذلك؟ هل المقصود من الإيتان بصيغة الجمع في موارده هو التعظيم كما قد يقال أو أنه أمر آخر؟

ثم إن الله عزوجلّ في سورة الكهف من القرآن الكريم، يذكر قصّة أن ﴿عَبْدًا مِنْ عِبادِنا﴾ التقى به نبيّ الله موسى عليه السّلام، فصدرت منه ثلاثة أفعال، فلمّا سأله موسى عن الأسباب لتلك الأفعال، ذكر الفاعل لها بثلاثة أنحاء، فأوضح الفعل الأوّل ناسباً إيّاه إلى نفسه بقوله «أردت»:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها﴾(١)

وأجاب عن الثاني قال «أردنا»:

﴿وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً * فَأَرَدْنا﴾(٢)

وقال عن الثالث «أراد ربُّك»:

﴿وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ

(١) سورة الكهف (١٨): الآية ٧٩.

(٢) سورة الكهف (١٨): الآيتان ٨٠ و ٨١

أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما﴾[١]

لقد كان هو المباشر للأفعال جميعاً، فلماذا قال مرّةً: «أردت» و مرّة «أردنا» أي هو و الله، و مرّة «أراد ربّك»؟

أمّا في الأوّل، فهو الفاعل و هو المريد، و هذا واضح، وأمّا الثاني، فقد وقع بإرادته و إرادة الله وبصيغة الجمع؟ وأمّا الثالث، فمع صدوره منه ينسبه إلى الله، وهذا هو محلّ الشاهد في بحثنا!

لقد جاء في الأخبار أن المقصود من «العبد» في القصّة هو «الخضر».

فإذنْ، هناك أشخاص يكون فعلهم فعل الله وارادتهم مظهراً لأرادة الله كالملائكة، كما قال عزّوجلّ ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[٢]

المطلب الثاني: في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، نجد أنَّ الباري عزّوجلّ يحكي عن فعل صادر من فاعلٍ بصيغة الجمع، مع إتفاق المفسّرين على صدور هذا الفعل من شخص واحدٍ معيَّنٍ.

ومواضع قد صدر الفعل من شخصين معيّنين، ومع ذلك يحكيه تعالىٰ ويسنده إلىٰ ضمير الجمع.

ولقد تحدثنا بنحو الإجمال آنفاً في ذيل آية الولاية، عن أن التصدّق حال الركوع قد صدر من شخص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام، ولكنَّ القرآن الكريم ذكر ذلك الفعل مسنداً إلىٰ فاعلٍ جاء بصيغة الجمع، حيث يقول عزّوجلّ:

---

(١) سورة الكهف (١٨): الآية ٨٢

(٢) سورة الأنبياء (٢١): الآية: ٢٧.

﴿الَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ﴾(١)

وقد جمع العلّامة الأميني رحمه الله في كتاب «الغدير» نظائر كثيرة لمثل هذاالإستعمال في القرآن المجيد، على أساس الروايات والأحاديث المعتبرة وأقوال العلماء.(٢)

إن هذه الموارد تحتاج إلىٰ إعمال دقة نظر وتأمل لمعرفة السرِّ في مثل هذا الإستعمال، فلماذا يأتي بصيغة الجمع في الفعل الصّادر من شخص واحد بعينه في القرآن المجيد وهو كلامُ الله تعالىٰ؟

فلابدَّ من وجود حكمة في مثل هذه الموارد، وإلّا يلزم مخالفة الواقع، لأنّ الفعل الصادر من الشخص الواحد لا يصح أن يُنسب إلىٰ مجموعة من الأشخاص، والقرآن الكريم يعرِّف نفسه بقوله تعالىٰ:

﴿لا يَأْتيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميد﴾(٣)

المطلب الثالث: في القرآن الكريم موارد وقع فيها الإخبار عن صدور بعض الأفعال مع نسبتها تارة إلىٰ الله تعالىٰ واخرى إلىٰ غيره عزّوجلّ، مع إنَّ الفعل نفس الفعل.

ففي آية من القرآن الكريم نقرأ:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حينَ مَوْتِها﴾(٤)

فهنا نسب قبض الأرواح مباشرة إلىٰ نفسه عزّوجلّ.

---

(١) سورة المائدة (٥): الآية ٥٥.

(٢) راجع: الغدير ٣/ ١٦٣.

(٣) سورة فصّلت (٤١): الآية ٤٢.

(٤) سورة زمر (٣٩): الآية ٤٢.

وفي آية أخرى يقول عزّوجلّ:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾(١)

فنسب الفعل وهو قبض الأرواح إلىٰ ملك الموت.

ولكن، ينبغي هُنا الالتفات إلىٰ أن الله قد فوّض وأوكل هذا الأمر لملك الموت حيث قال عزّوجلّ:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذي وُكِّلَ بِكُم﴾(٢)

وهذا يعني إنَّ لله تعالىٰ في ملكه وجهاز سلطنته، من يوكل إليه القيام ببعض الأعمال والوظائف، ويكون فعله فعل الله تعالىٰ، ولذا يُنسب إلىٰ الله تعالىٰ باعتبار، وينسب إلىٰ الملك باعتبار أنّه مُوكلٌ بالقيام بهذا الفعل.

المطلب الرابع: من خلال تأملاتنا في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، وجدنا أنَّ هناك إرتباطاً دقيقاً بين الله تعالىٰ ورسوله الأكرم محمد صلّى الله عليه وآله.

فقد يصدر أمرٌ من الله سبحانه وتعالى، والنبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وفي مقام الإمتثال، يترجم الأمر عمليّاً.

وكمثال لذلك، قوله تعالىٰ في آية المباهلة المباركة:

﴿فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُم﴾(٣)

ففي هذه الآية، نجد أنَّ كلمة «أبناءنا» و«نساءنا» و«أنفسنا» جاءت بصيغة الجمع، ولم يذكر فيها اسم أحدٍ بعينه. ولكن رسول الله صلّى الله عليه وآله خرج

(١) سورة السجدة (٣٢): الآية ١١.

(٢) سورة السجدة (٣٢): الآية ١١.

(٣) سورة آل عمران (٣): الآية ٦١.

ومعه علي وفاطمة والحسنان عليهم السّلام، ففسَّر الآية عمليّاً وطبّقها ميدانياً وأرشد إلىٰ المراد منها.

لقد كان للنبي صلّى الله عليه وآله عدّة زوجات، وقوله «نساءنا» يصدق عليهنّ وعلى النساء من أقربائه، ولكنّه ترجم المراد من «نساءنا» عملياً، فلم يخرج معه إلّا إمرأة واحدة، وهي الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام.

وكذا «أبناءنا»، وقد فسّرها بالحسن والحسين عليهما السلام.[1]

وكذا «أنفسنا» وقد فسَّرها بعلي بن أبي طالب عليه السّلام.

وهذا هو الإرتباط الوثيق بين الله تعالىٰ والرّسول الأكرم صلّى الله عليه وآله، حيث عرف مراد الله تعالىٰ، وفسَّر الآية بهم دون غيرهم.

وقد يقوم النّبي صلّى الله عليه و آله بفعل و يصرّح بتعيين أهل بيته بأشخاصهم، فيصدّقه الله سبحانه فيما قال و يمضي ما فعل.

ومن ذلك: أنه جمع عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السّلام تحت الكساء، وقال:

«اللهمَّ هؤلاء أهلُ بيتي».[2]

---

(١) تفسير العياشي ١ / ١٧٦ و٢ / ١٢٨؛ تفسير الفرات الكوفي: ٨٩؛ تفسير جوامع الجامع ١ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣؛ كشف الغمّة ٣ / ٤٥؛ مطالب السئول: ١٠١؛ روضة الواعظين: ١٦٤؛ تاريخ الإسلام ٣ / ٦٢٧.

(٢) الطرائف: ١١٦؛ ذخائر العقبى: ٢٣؛ بحار الأنوار ٢٣ / ١٠٩، الحديث ١٢؛ المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٤٧؛ السنن الكبرى ٢ / ١٥٠؛ مسند أحمد بن حنبل ٤ / ١٠٧؛ سنن الترمذي ٥ / ٣١؛ مجمع الزوائد ٩ / ١٦٧.

ونزلت الآية المباركة:

﴿إِنَّما يُريدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهيرا﴾[1]

وعندما يرجع رسول الله صلّى الله عليه وآله من منى بعد الفراغ من مناسك الحجّ، نزل قوله تعالىٰ:

﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[2]

فما علم الناس بما كان يجب على الرسول إبلاغُه حتى وصل غديرخم، فلما امتثل هذا الأمر الإلهي عمليّاً بتنصيب أمير المؤمنين عليه السّلام وولايته، نزلت الآية الشريفة:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُم...﴾.[3]

فكانت بمعنى الإمضاء لفعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وترجمته لآية التبليغ المباركة.

إذن، فهناك إرتباط وثيق بين الله تعالىٰ و المعصوم، فتارةً: فعل المعصوم مفسّرٌ لكلام الله عزّوجلّ ومبيّن لإرادته سبحانه كترجمة عمليّة للكلام الإلهي، وأخرى: يقع الفعل من المعصوم ويصدّقه القرآن الكريم، وثالثةً: يكون بين الله أوليائه إرتباط وثيق بحيث ينسب فعل هذا إلىٰ ذاك، كما في قصّة الخضر عليه السّلام، وكما في قوله عزّوجلّ لرسوله الأكرم:

﴿وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى﴾.[4]

---

(١) سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٣٣.

(٢) سورة المائدة (٥): الآية ٦٧.

(٣) سورة المائدة (٥): الآية ٣.

(٤) سورة الأنفال (٨): الآية ١٧.

بل وأكثر من ذلك، فإنّه قد ينسب الفعل الواحد إلىٰ الله تعالىٰ ورسوله، كما في قوله تعالىٰ:

﴿وَ ما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِه﴾.[١]

وذات يوم سألت أحد أساتذتي أطال الله بقاءه، عمّا لو وافق الوهّابيون على قدرة النبيّ على التصرّف في الامور التكوينية وعلى الشفاعة، والتوسّل به، لكنّهم خصّوا ذلك بحال الحياة، فما هو الجواب؟

فقرأ لي الاستاذ هذه الآية: ﴿وَ ما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُه﴾ قال: هي مطلقة تعمّ حياته وبعد مماته.

وفي آية أخرى يقول تعالىٰ:

﴿وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون﴾[٢]

فما معنى «وما ظلمونا»؟

فعن زرارة أنه سأل أبا عبدالله عليه السّلام عن معنى هذه الآية فقال:

«إنَّ الله تعالىٰ أعظم وأعزّ وأجلّ وأمنع من أن يظلم، ولكن خَلَطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه وولايتنا ولايته حيث يقول: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذينَ آمَنُوا﴾ يعني الأئمّة منّا»؛[٣]

وقد مرَّ بنا في شرح عبارة «واللّازم لكم لاحقٌ»، إنَّ الملازمة قد تنتهي إلى الخُلطة، وهذا ما جاء في متن هذه الرواية.

(١) سورة التوبة (٩): الآية ٧٤.

(٢) سورة البقرة (٢): الآية ٥٧ وسورة الأعراف (٧): الآية ١٦٠.

(٣) الكافي ١٤٦/١، الحديث ١١؛ تفسير الصافي ١٣٥/١.

والآن، ينبغي أن نفهم معنىٰ هذا المقام السامي، حيث يصل الإنسان إلىٰ منزلة يعبَّر عنها «خلطنا بنفسه»، كما إنَّ الخضر عليه السّلام عندما قام بذلك الفعل، قال: «أردنا»، هو والله.

المطلب الخامس: هو أنَّ كلّ من كان من جملة الكادر التنفيذي في طاقم إدارة الكون، بأمرٍ من الله، سواء كان نبياً أو وليّاً أو ملكاً، كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾[1] فإنه قد وصل إلى منزلة تكون معاداته معاداةً لله تعالىٰ، ويكون الله عدوّاً له، ومن هنا يقول تعالىٰ:

﴿مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِين﴾[2]

وهذا هو مقتضى الحال، وقد بيّن ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله في خصوص أميرالمؤمنين كما جاء في الأحاديث المعتبرة، إذ قال:

«من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع عليّاً فقد أطاعني، ومن عصى عليّاً فقد عصاني»[3]

وقال:

«يا علي، أنت سيّد في الدنيا وسيّد في الآخرة، من أحبّك أحبّني وحبيبي حبيب الله، وعدوّك عدوّي وعدوّي عدوّ الله، والويل لمن أبغضك بعدي»[4]

---

(١) سورة النازعات (٧٩) الآية: ٥.

(٢) سورة البقرة (٢): الآية ٩٨.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٢١ و١٢٨؛ كنز العمّال ١١ / ٦١٤، الحديث ٣٢٩٧٣؛ تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٣٠٧؛ ينابيع المودّة ٢ / ٣١٣، الحديث ٩٠٠.

(٤) تهذيب الكمال ١ / ٢٥٩؛ ينابيع المودّة ٢ / ٢٧٨ و ٢٧٩؛ العمدة: ٢٦٨، الحديث ٤٢٤؛ كشف اليقين: ٣٠٢؛ بحار الأنوار ٤٠ / ٨٣؛ المسترشد: ٢٨٦؛ كتاب الأربعين: ٤٥٩؛ وقد ورد هذا الحديث بتفاوت يسير في: شرح نهج البلاغة، إبن أبي الحديد ٩ / ١٧١ وتاريخ بغداد ٤ / ٢٦١.

وقال:

«من آذى عليّاً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله».(١)

فالذي نريد التأكيد عليه في هذا المطلب أنّ حكم الأئمة الأطهار حكم رسول الله وسائر الرسّل والملائكة المقرّبين في الجهاز الرّبوبي.

المطلب السادس: إنّ الأئمة قد وصلوا ببركة طاعتهم لله إلى القرب الإلهي فكانوا عَينَ الله ويدَ الله ووجه الله عزّوجلّ.

فقد جاء في ذيل الآية المباركة:

﴿وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرام﴾(٢)

أنَّ الإمام السجّاد عليه السّلام قال:

نحن الوجه الذي يؤتى الله منه.(٣)

وعن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام في قوله تعالىٰ:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إلاَّ وَجْهَه﴾(٤)

«وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وأمير المؤمنين دين الله ووجهه وعينه في عباده، ولسانه الّذي ينطق به، ويده على خلقه، ونحن وجه الله الّذي يؤتى منه...».(٥)

---

(١) تحف العقول: ٤٥٩؛ الإفصاح: ١٢٨؛ المناقب، إبن شهر آشوب ١٤/٣؛ الجمل: ٣٦؛ بحار الأنوار ٦٥٥/٣١، الحديث ١٩٩؛ المعيار والموازنة: ٢٢٤؛ الاستيعاب ١١٠١/٣؛ ينابيع المودّة ١٥٥/٢، الحديث ٤٣٤.

(٢) سورة الرحمن (٥٥): الآية: ٢٧.

(٣) تفسير القمي ٢ / ٣٤٥؛ بحار الأنوار ٤ / ٥.

(٤) سورة القصص (٢٨): الآية ٨٨

(٥) التوحيد، الشيخ الصدوق: ١٥١، الحديث ٧؛ بحار الأنوار ٤ / ٧، الحديث ١٤ و٢ / ١٩٧، الحديث ٢٣؛ تفسير الصافي ١٠٨/٤.

وعنه عليه السلام:

«نَحنُ وَجهُ الله الذي لا يهلك».[١]

وقد ورد في الأخبار أيّام حكومة عمر بن الخطاب، إنَّ عليّاً أمير المؤمنين عليه السّلام صفع رجلاً على وجهه، وكان في حال الطواف.

فجاء الرجل يشكو عليّاً عليه السّلام عند عمر.

فأخبره الإمام عليه السّلام أنه كان ينظر إلىٰ ما لا يحلّ له النظر إليه من النساء.

فقال عمر للرجل:

«رأتك عينُ الله وضربتك يدُ الله».[٢]

بل وأكثر من ذلك، فقد جاء في الحديث القدسي:

«ما زال العبد يتقرّب إلي بالنوافل حتّىٰ أكون بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به...».[٣]

وهذا الحديث منقول في كتب العامّة أيضاً، وقد أورده. الحافظ النووي في شرحه على صحيح مسلم، وشرحه شرحاً جميلاً.[٤]

نعم، فكلّ إنسانٍ يمكنه أن يصل وببركة العبوديّة الحقَّة إلىٰ هذا المقام، لأنّ الحديث يقول: «العبد»، فلا يختصُّ بالأئمّة عليهم السّلام، ولكنّا لانعهد أنّ أحداً وصل إليه بعد رسول الله غيرهم.

---

(١) بحار الأنوار ٤ / ٦، الحديث ١٢.

(٢) راجع: المناقب، إبن شهر آشوب ٣ / ٦٤؛ بحار الأنوار ٣٩ / ٨٨ و ٣٤٠؛ ذخائر العقبى: ٨٢؛ فيض القدير ٤ / ٤٧٠؛ الرياض النضرة ٣ / ١٦٥؛ النهاية في غريب الحديث ٣ / ٣٣٢؛ لسان العرب ١٣ / ٣٠٩.

(٣) راجع: الصفحة ٦٨ من هذا الكتاب.

(٤) وقد ذكرنا هذا المطلب في الجزء الاول من هذا الكتاب، الصفحة: ٣٥٧.

فلقد كان الأنبياء والأوصياء كلّهم على هذا المنوال، لكنّ درجاتهم مختلفة وبعضهم أفضل من بعض، وليس في ذلك جبر أصلاً، لأن الإنسان إنّما يتقرّب بأفعاله هو، وإنَّ الله تعالىٰ يعينه ويتفضل عليه، فلو أنه سعى بمقدار خطوة نحو الله تعالىٰ، فإن الباري سيتفضل عليه بأضعاف ذلك وليس ما ذكرناه في الأئمة غلوّا فيهم.

حالات الأئمّة المميّزة

وإنما نقول بتقدّم الأئمة على الأنبياء مطلقاً إلّا النبي الأكرم، لأن حالات الأئمّة عليهم السّلام، وفي كلّ العوالم، مميّزة حقّاً.

فهناك عالمٌ ما قبل عالمنا هذا، وعالم ما بعد عالمنا هذا، وإنَّ الله تعالىٰ هو ربُّ العالمين، فربوبيّته عزّوجلّ ثابتة لكلّ العوالم بدرجة متساوية.

وبناءاً على ما جاء في روايات الفريقين، فإنّ حالات أهل البيت عليهم السّلام قبل هذا العالم، كانت بحيث إنَّ أقرب الملائكة كانوا تلامذة عندهم عليهم السّلام؛ أي إنَّ الملائكة تعلّمت فنون العبوديّة منهم:

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «إِنَّ اللَّهَ عزّوجلّ خَلَقَنِي وخَلَقَ عَلِيّاً وفَاطِمَةَ والْحَسَنَ والْحُسَيْنَ مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَصَرَ ذَلِكَ النُّورَ عَصْرَةً فَخَرَجَ مِنْهُ شِيعَتُنَا؛ فَسَبَّحْنَا فَسَبَّحُوا، وقَدَّسْنَا فَقَدَّسُوا، وهَلَّلْنَا فَهَلَّلُوا، ومَجَّدْنَا فَمَجَّدُوا، وحَمدنا فَحَمَدوا.

ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرَضِينَ وخَلَقَ الْمَلَائِكَةَ، فَمَكَثَتِ الْمَلَائِكَةُ مِائَةَ عَامٍ لَا تَعْرِفُ تَسْبِيحاً ولَا تَقْدِيساً؛ فَسَبَّحْنَا فَسَبَّحَتْ شِيعَتُنَا فَسَبَّحَتِ الْمَلَائِكَةُ، وقدَّسنا فقدَّسَت شيعَتُنا وقدّست الملائكة ـ وكَذَلِكَ الْبَوَاقِي ـ.

فَنَحْنُ الْمُوَحِّدُونَ حَيْثُ لَا مُوَحِّدَ غَيْرُنَا، وحَقِيقٌ عَلَى اللّٰهِ تعالىٰ بِمَا اخْتَصَّنَا واخْتَصَّ شِيعَتَنَا أَنْ يُنْزِلَنَا وشِيعَتَنَا فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفَانَا واصْطَفَى شِيعَتَنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكُونَ أَجْسَاماً، ودَعَانَا فَأَجَبْنَا فَغَفَرَ لَنَا ولِشِيعَتِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَسْتَغْفِرَهُ تَعَالَى».[1]

فأي مقام هذا الذي يجعل آدم عليه السّلام ينال اللّطف الإلهي ببركة شفاعة أهل البيت عليهم السّلام؟

إنّ لأهل البيت عليهم السّلام في عالم ما قبل عالمنا هذا، خصوصيّات أخرى كثيرة غير هذه.

ثم لمّا جاءوا إلىٰ هذا العالم، حصلوا ببركة عبوديّتهم وقربهم، على حالات مع الله جعلتهم يتصرفون بإذنه في العالم وأهله بولايتهم التكوينية والتشريعيّة.

فتوسطهم للفيوضات الإلٰهيّة، وهدايتهم الخلائق، وحجيّتهم المطلقة، كلُّ ذلك ببركة عبوديتهم الفائقة لله.

وأمّا في عالم مابعد عالمنا هذا، فالأئمّة عليهم السّلام رجالُ الأعراف، وسيتولون أمر الحوض الذي قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في حديث الثقلين الشريف:

«إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا علي الحوض».[2]

وأحاديث «الحوض» و«الكوثر» متواترة عند الفريقين، وقد ورد في بعضها أنّ أكثر أصحاب النبي يذادون عن الحوض، فيقول رسول الله صلّى الله عليه وآله:

---

(١) المحتضر: ١١٣؛ كشف الغمّة ٢ / ٨٥؛ بحار الأنوار ٢٦ / ٣٤٣، الحديث ١٦.

(٢) راجع: نفحات الأزهار ١ ـ ٣، للمؤلّف.

«يا ربّ، أصحابي أصحابي.

فيقال لي: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك.

فيؤخذ بهم ذات الشمال.

فأقول: بُعداً وسُحقاً».(١)

وفي ذلك اليوم، يكون لواء رسول الله صلّى الله عليه وآله «لواء الحمد» وهو أكبر وأشرف وأعظم لواء في يوم القيامة، بيد أمير المؤمنين عليه السّلام.(٢)

ثم تطوى مراحل ذلك اليوم حتّىٰ يتعيَّن مصير الأشخاص، فأصحاب يمين وأصحاب شمال.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السّلام ١ / ٩٣، الحديث ٣٣؛ بحار الأنوار ٢٨ / ١٩، الحديث ٢٦.

(٢) روى عبد الله بن العباس في حديث لطيف عن رسول الله صلّى الله عليه وآله:

أتاني جبرئيل وهو فرح مستبشر، فقلت له: حبيبي جبرئيل، مع ما أنت فيه من الفرح، ما منزلة أخي وابن عمّي علي بن أبى طالب عند ربّه؟

فقال جبرئيل: يا محمّد ! والّذي بعثك بالنبوّة واصطفاك بالرسالة، ما هبطت في وقتي هذا إلا لهذا. يا محمد ! العلي الأعلىٰ يقرأ عليك السلام، ويقول: محمّد نبي رحمتي، وعلي مقيم حجّتي، لا اعذّب من والاه وإن عصاني، ولا أرحم من عاداه وإن أطاعني. قال إبن عباس: ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: إذا كان يوم القيامة أتاني جبرئيل عليه السّلام وبيده لواء الحمد وهو سبعون شقّة، الشقّة منه أوسع من الشمس والقمر، فيدفعه إلي، فآخذه وأدفعه إلىٰ علي بن أبي طالب.

فقال رجل: يا رسول الله ! وكيف يطيق علي عليه السّلام على حمل اللواء، وقد ذكرت أنّه سبعين شقّة، الشقّة منه أوسع من الشمس والقمر؟

فغضب رسول الله صلّى الله عليه وآله ثمّ قال: يا رجل ! إنّه إذا كان يوم القيامة أعطى الله علياً من القوّة مثل قوّة جبرئيل عليه السّلام، ومن الجمال مثل جمال يوسف عليه السّلام، ومن الحلم مثل حلم رضوان، ومن الصوت ما يداني صوت داوود عليه السّلام، ولولا أنّ داوود خطيب في الجنان، لأعطي علي عليه السّلام مثل صوته، وإنّ علياً أول من يشرب من السلسبيل والزنجبيل، وإنّ لعلي وشيعته من الله عزّوجلّ مقاماً يغبطهم به الأولون والآخرون. الأمالي، الشيخ الصدوق: ٧٥٦، الحديث ١٠١٩؛ روضة الواعظين: ١٠٩؛ بحار الأنوار ٨ / ٢ و٣، الحديث ٢.

وروايات الفريقين في هذا المجال على ثلاث أنحاء:

١ ـ لا يدخل الجنّة أحدٌ حتّى يأخذ بيده براءة من علي بن أبي طالب عليه السّلام.[١]

٢ ـ لا يدخل الجنّة أحدٌ حتّى يكون له جوازٌ من يد علي بن أبي طالب عليه السّلام.[٢]

٣ ـ لا يدخل الجنّة أحدٌ حتّى يأخذ مكتوباً من علي بن أبي طالب عليه السّلام.[٣]

ونحن ذكرنا الألفاظ الثلاثة مع الإشارة إلى مصادرها، ليُعلم أنَّ هذا الحديث متواترٌ معنوي.

ومن جهة أخرى، فإنه ورد أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

يا علي، أنتَ قسيمُ الجنَّة والنّار».[٤]

وفي تعبير آخر:

«أنت قسيمُ النّار».[٥]

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عليه السّلام ١ / ٤٢٩؛ بشارة المصطفى: ٣٠٩؛ مائة منقبة: ٨٥و٨٦، المنقبة رقم ٥٢؛ بحار الأنوار ٢٧ / ١١٦، الحديث ٩٣ و٨ / ٦٦، الحديث ٤ و٣٩ / ٢١١ و٢١٢، الحديث ٤؛ غاية المرام ٣ / ٩٨، الحديث ٩؛ عيون أخبار الرضا عليه السّلام ٢ / ٢٧١ و٢٧٢، الحديث ٦٣.

(٢) الأمالي، الشيخ الطوسي: ٢٩٠، الحديث ٥٦٤؛ بحار الأنوار ٨ ٦٨، الحديث ١١؛ كشف الغمّة ٢ / ٢٤؛ ينابيع المودّة ١ / ٣٣٨، الحديث ٢١ و٢ / ١٦٢ و١٦٣، الحديث ٤٥٩ و٤٠٤، الحديث ٥٨؛ ذخائر العقبى: ٧١؛ ذكر أخبار إصبهان ١ / ٣٤٢؛ جواهر المطالب، إبن الدمشقي ١ / ١٠١، باب ١٧.

(٣) المناقب، إبن شهر آشوب ٣ / ١٢٣؛ بحار الأنوار ٢٧ / ١١٧، الحديث ٩٦، أسد الغابة ٢ / ٣٥٨؛ الإصابة ٣ / ١٥٧، رقم ٣٥١٦؛ المناقب، الخوارزمي: ٣٤١، رقم ٣٦١؛ ينابيع المودّة ٢ / ٦٦، الحديث ٥٥ و٤٦٠، الحديث ٢٧٨.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السّلام ٩٢/١، الحديث ٣٠؛ الأمالي، الشيخ الصدوق: ١٠١؛ بحار الأنوار ٣٧/٢٥٤، الحديث ١؛ كشف الغمّة ٣ / ١٠٣؛ ينابيع المودّة ١ / ٢٤٩ و٢٥١، الحديث ١ و٥ و٢ / ٤٠٤، الحديث ٥٧.

(٥) الأمالي، الشيخ الطوسي: ٥٥٣؛ تفسير القمّي ٢ / ٣٨٩؛ بحار الأنوار ٣٣ / ١٦٢، الحديث ٤٢٥؛ ينابيع المودّة ٢ / ٤٠٣.

أفبعد كلِّ هذه الأحاديث، يبقى مجالٌ للتأمّل والتشكيك في أنَّ آية:

﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُم﴾[1] لا تنافي ما جاء في الزيارة الجامعة في قوله عليه السّلام: «وإيابُ الخَلقِ اليكم وحسابُهُم عليكم»؟

كلّا، فليس فقط لا تنافيها، وإنّما هي عين الآية الكريمة.

المقام الخاص في يوم القيامة

وإليك بيانُ مطلب حول النبي الأكرم والأئمّة الأطهار عليهم السّلام، ما أدري هل تنبّه إليه أحد أوْ لا.

فإذا ما عقدت المحكمة في هذا العالم، يجلس الحاكم على كرسي القضاء، ويتقدم المدّعي والمدّعى عليه بين يديه؛ فيطلب الحاكم من المدّعي إقامة البيِّنة، فإن كان عنده شهود على دعواه، أقام البيِّنة، والّإحلف المدّعى عليه، فيحكم الحاكم لصالحه أو لصالح المدّعى عليه.

ففي هذا العالم، يكونُ الحاكم غيرَ المدَّعي والمدّعى عليه، ويكون الشاهد غيرهما وغير الحاكم.

ومن جهة أخرى، في هذا العالم، إذا كان لأحد الطرفين شفيعٌ، فإنّه سيأتي بالشفيع إلىٰ الحاكم، والشفيع هنا غير الشاهد، والشاهد غير المدّعي والمدّعى عليه، وهما غير الحاكم.

ولكن، وبحكم الآيات والروايات، فإنّ محكمة يوم القيامة تختلف،

---

(١) سورة الغاشية (٨٨): الآيتان ٢٥ و٢٦.

فالأئمّة عليهم السّلام هم الحكّام وهم المدّعون وهم الشهود وهم الشفعاء.(١)

ولو أردنا ذكر الأدلّة على ما قلناه تفصيلاً، فإنّ البحث سيطول ويخرج عن سيره المقرّر.

فخلاصة الكلام هي إنّ رجوع الخلائق إلىٰ الأئمّة عليهم السّلام، وتصدّي الأئمّة لحساب الخلق في يوم القيامة، مآله إلىٰ الله تعالىٰ، وهذا المعنى مستفاد من الآيات والروايات.

وببيان أوضح، إنّ الآية المباركة ﴿**إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُم**﴾(٢) ظاهرةٌ في رجوع الناس إلىٰ الله تعالىٰ، فلو كانت بصيغة المتكلّم وحده، فهل إنّ الذات المقدّسة الربوبيّة تتصدّى مباشرة لأمر حساب الخلائق؟

لا، ليس الأمر كذلك قطعاً، ولم يقل به أحدٌ، لأنّ الله تعالىٰ ليس جسماً، وفي أي من الامور، سواء قبل هذا العالم، أو في هذا العالَم، أو بعد هذا العالم، وفي كلّ العوالم، لم يدّعِ أحدٌ أنّ الله تعالىٰ يتولى أمور الخلائق بنفسه مباشرة.

إذن، لابدَّ أن يكون هناك شخص أو أشخاص في يوم القيامة موكلين من قبل الله تعالىٰ للتصدّي لأمر حساب الخلائق.

فإذا ما كان الرزق ومعاش الناس موكولاً إلىٰ ميكائيل، وإنّ قبض الأرواح موكول إلىٰ عزرائيل، وقسم من الامور تتحقق على يد جبرائيل، فما المانع من أن يكون حساب الخلائق يوم القيامة بيد الأئمّة عليهم السلام؟

---

(١) بصائر الدرجات: ٨٣، الحديث ١١؛ الكافي ١ / ٢٥١، الحديث ٧؛ الأمالي، الشيخ الصدوق: ١٢١؛ بحار الأنوار ٢٢ / ٤٤١ و٤٩ / ٢٨٣، الحديث ١؛ شواهد التنزيل ١ / ١١٩، الحديث ١٢٩؛ تفسير مجمع البيان ١ / ٤١٧.

(٢) سورة الغاشية (٨٨): الآيتان ٢٥ و٢٦.

وممّا مرَّ، ثبت إنَّ أفعال الأئمّة عليهم السّلام هي أفعال الله تعالىٰ، وقلنا إنّ هذا غير مختصّ بالأئمّة عليهم السّلام، بل هو ثابت لعموم الأنبياء والأوصياء المعصومين والملائكة المقرّبين، فالأئمة مأمورون من ناحية الحقِّ جلَّ وعلا وهم من جملة من أوكل إليهم إدارة هذا الكون وشئون الآخرة.

وَفَصلُ الخِطابِ عِندَكُم

قال الراغب الإصفهاني في كلمة «فصل»:

«الفصل: إبانَة أحد الشيئين من الآخر حتّىٰ يكون بينهما فرجة... نحو قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١] أي اليوم يبيّن الحق من الباطل ويفصل بين الناس بالحكم... وفصل الخطاب ما فيه قطع الحكم وحكم فيصل ولسان مفصل...».[٢]

فالفصل إذن، إبانة الحقّ من الباطل، والصّدق عن الكذب، وتوضيح الحقائق عن غيرها وتمييز الصحيح من السقيم.

وكما مرَّ بيانه في شرح الفقرة السابقة، فإن الله تعالىٰ هو الذي جعل فصل الخطاب عند الأئمّة عليهم السّلام، والروايات الواردة في ذلك، كثيرة.

ففي رواية عن الإمام الصّادق عليه السّلام، قال: قال أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«والله، لقد أعطاني الله... فصل الخطاب».[٣]

---

(١) سورة الدخان (٤٤): الآية ٤٠.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٣٨١.

(٣) بصائر الدرجات: ٢٢١، الحديث ٤؛ الخصال: ٤١٤، الحديث ٤؛ بحار الأنوار ٣٩/ ٣٣٦، الحديث ٥.

فصل الخطاب في القرآن والأحاديث

ويُمكن تصوُّر عدّة معانٍ لفصل الخطاب، ولكنَّ الأجدر مراجعة الآيات القرآن الكريم أوّلاً، لنرى مراده من «فصل الخطاب».

يقول تعالىٰ:

﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُون﴾(١)

وجاء في آية ثانية:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ميقاتُهُمْ أَجْمَعين﴾(٢)

ونقرأ في آية ثالثة:

﴿هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلين﴾(٣)

«فيوم الفصل»، هو أحد أسماء القيامة، ولماذا صار يوم القيامة يومَ الفصل؟

وما معنى «الفصل»؟

وبيَدِ من يكون الفصل؟

جاء في القرآن الكريم، إنَّ «الفصل»، في «يوم الفصل» هو بيد الله تعالىٰ، وهو الفاصل بين الخلق:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فيما كانُوا فيهِ يَخْتَلِفُون﴾(٤)

في هذا العالم، تختلف الامور كثيراً، ويختلط الحقّ بالباطل، وأمّا في يوم القيامة، فإن الحقائق تظهر ويتمايز الحقّ من الباطل.

---

(١) سورة الصافات (٣٧): الآية ٢١.

(٢) سورة الدخان (٤٤): الآية ٤٠.

(٣) سورة المرسلات (٧٧): الآية ٣٨.

(٤) سورة السجدة (٣٢): الآية ٢٥.

يقول تعالى في الكتاب المجيد:

﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُم﴾(١)

فمساعدة الأولاد، الأرحام، القبيلة، لا تنفع في إذا أراد الله المؤاخذة في يوم القيامة، والله تعالىٰ هو الذي يفصل في القضايا بينكم، ويميِّز الحقّ من الباطل.

وببالي إني رأيت خبراً جاء فيه أنه قد سئل الإمام عليه السّلام عن سبب دوام حكومة الشيخين بدون مشاكل في الظاهر، وأمّا عثمان فقد قُتل، وإنّ أمير المؤمنين عليه السّلام ما أطاعته الأمّة.

فأجاب الإمام عليه السّلام بما حاصله:

أن الشيخين قد خلطا بين الحق والباطل، أمّا عثمان، فكان باطلاً محضاً، وأمّا علي، فكان حقّاً محضاً، والناس لايطيقون الحق المحض والباطل المحض.

علي الفاروق والميزان

وحيث إنَّ اختبار الأمّة الإسلاميّة بدأ منذ رحيل رسول الله صلّى الله عليه وآله، وكان على الله أن يجعل شاخصاً للحقِّ بين الناس، فقد دلّت الأحاديث المعتبرة على أنه هو الإمام علي، ومن هنا عبّر النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله عنه بـ«الفاروق»، فقال في حقّه:

«هو فاروق هذِهِ الأمّة، يفرق بين الحقَّ والباطل...»؛(٢)

كما عبَّر عنه بـ «الميزان»، وجاء ذلك في زيارته عليه السّلام أيضاً:

---

(١) سورة الممتحنة (٦٠): الاية ٣.

(٢) ذخائر العقبى: ٥٦؛ الرياض النضرة ٢ / ١٥٥.

«... السلام على يعسوب الإيمان وميزان الأعمال...»؛[١]

وأمّا قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «علي مع الحقّ والحقّ مع علي»، فقد وصل إلىٰ حدّ التواتر.

إذن، ففي هذا العالم يشتبه الحقّ بالباطل، وأمّا في عالم الآخرة، فإن القضايا تتمايز ولا تختلط.

وفي رواية لطيفة ـ يذكرها الشيخ الأنصاري رحمه الله في كتاب الطهارة ـ إنّ رجلاً سأل الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه كان إذا ذهب إلى بيت الخلاء أطال الجلوس لاستماع صوت الغناء من دار جاره.

فقال له عليه السّلام:

«لا تفعل.

فقال الرجل: والله، ما هو شئ آتيه برجلي إنّما هو سماع أسمعه بأذني!

فقال له: أنت ما سمعت الله يقول: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا**﴾[٢]

قال: بلى والله، فكأني لم أسمع هذه الآية قط من كتاب الله من عجمي ولا من عربي، لا جرم إني لا أعود إن شاء الله، وإني أستغفر الله.

فقال له: قم فاغتسل وصلّ ما بدا لك، فإنك كنت مقيماً على أمر عظيم، ما كان أسوأ حالك لو متّ على ذلك! أحمد الله وسله التوبة من كلّ ما يكره، إنه لا يكره إلّا القبيح، والقبيح دعه لأهله، فإن لكلٍّ أهلاً».[٣]

---

(١) بحار الأنوار ٩٧ / ٢٨٧ و ٣٣٠.

(٢) سورة الاسراء (١٧): الآية ٣٦.

(٣) كتاب الطهارة ٢ / ٣٣١؛ الكافي ٦ / ٤٣٢، الحديث ١٠؛ وسائل الشيعة ٣ / ٣٣١، الحديث ٣٧٩٥؛ بحار الأنوار ٦ / ٣٤، الحديث ٤٨؛ وجاء هذا الحديث بتفاوت يسير في الكتب الروائيّة الاخرى.

فهذا الرجل لم يقم مجلس الطرب في داره، ولم يستأجر أحداً لفعل ذلك، وإنّما كان يذهب لقضاء حاجته في بيت الخلاء، فيتأخر بضعة دقائق ليستمع إلىٰ تلك الأصوات من بيت جاره.

وعن الفضيل قال: سألت الإمام الباقر عليه السّلام عن النرد والشطرنج و...، فقال عليه السّلام:

«إذا ميَّز الله الحقَّ من الباطل مع أيِّهما يكون؟»

فقال فضيل، مع الباطل يا ابن رسول الله.

فقال عليه السّلام:

«فما لك والباطل؟»[1]

ففي هذا المورد، إشتبهت آلات القمار على السائل، فسأل عن حكمها، فبيَّن له الإمام عليه السّلام هذه الكليّة الرائعة.

إذن، فأكثر ما عندنا في هذه الدنيا من مأكولات، مشروبات، ملبوسات، مساكن، وغيرها من مقتنياتنا وتصرفاتنا، تشوبها الشبهة، ولكنّنا نجري عليها قاعدة «اليد» و«الطهارة» و«الإستصحاب» والأدلّة والأصول الأخرى ونستمر في حياتنا.

وأمّا في عالم الآخرة، فليس الأمر كذلك، بل تتميز المشتبهات وتتبين حقائقها.

ولكن، هل يقوم الله تعالىٰ بذلك مباشرة؟

من الواضح أنَّ الجواب: لا. بل يتمُّ ذلك بيد أنبيائه وأوليائه وملائكته والمقربين إلىٰ ساحة قدسه، فهم الذين يتصدّون لمثل هذه الممارسات.

---

(١) وسائل الشيعة ١٧ / ٣٢٤، الحديث ٢٢٦٦٧؛ كتاب المكاسب ١ / ٢٧٤، مع تفاوت يسير.

كما أن الله أعطى نبيّه داود عليه السّلام ذلك في دار الدنيا، إذ قال:

﴿وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطاب﴾[١]

وجاء في الروايات أنَّ مولانا ولي العصر المهدي عجّل الله تعالىٰ فرجه الشريف، إذا ظهر واستقرّت حكومته، سيحكم كما كان يحكم داود عليه السّلام.

فعن أبان بن تغلب، سمعت الصادق عليه السّلام يقول:

«لا تذهب الدنيا حتّىٰ يخرج رَجُلٌ منّي يحكم بحكم آل داود ولا يسأل بيِّنة، يعطي كلّ نفس حُكمَها».[٢]

وعن أبي عبيدة قال: قال الصادق عليه السّلام:

«إذا قام قائم آل محمد حَكم بحُكم داود وسليمان، لا يسئل الناس بيِّنةً».[٣]

فالفرق بين رسول الله صلّى الله عليه وآله وداود هو: إنَّ النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله كان يحكم بالبيّنات والأيمان، فعن أبي عبدالله عليه السّلام قال قال: رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

«إنّما أقضي بالبيّنات والأيمان وبعضكم ألحن بحجّة من بعض، فأيّما رجل قطعت له من مال أخيه شيئاً فإنّما قطعت له به قطعة من النار».[٤]

وأمّا داود، فلم يكن يطلب البيّنة.

وكذلك سيكون حكم الإمام المهدي عليه السّلام.

---

(١) سورة ص (٣٨): الآية ٢٠.

(٢) الكافي ١ / ٣٩٨، الحديث ٢؛ بحار الأنوار ٥٢ / ٣٢٠، الحديث ٢٢.

(٣) الكافي ١ / ٢٧٩، الحديث ٣؛ بحار الأنوار ٥٢ / ٣٢٠، الحديث ٢٤.

(٤) الكافي ٧ / ٤١٤، الحديث ١؛ وسائل الشيعة ٢٧ / ٢٣٢، الحديث ٣٣٦٦٣.

ومن هنا، فقد فسّرنا الحديث النبويّ:

«أفضل أعمال اُمّتي إنتظار الفرج».[١]

من خلال طائفتين من الروايات:

الطائفة الاولى: تقول بأنّ ظهور الإمام المهدي، وقدرته وحكومته عليه السّلام، تكون بصورة فجائيّة، ومن ذلك الرواية التالية:

لمّا أنشد دعبل الخزاعي قصيدته بين يدي الإمام الرضا عليه السّلام، بكى الإمام ثم رأسه فقال:

يا خزاعي، نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين، فهل تدري من هذا الإمام ومتى يقوم؟

فقال دعبل: لا يا سيدي، لا أعلم إلّا ما سمعته منكم بأنّ إماماً سيخرج ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً كاملئت ظلماً وجوراً.

قال عليه السّلام: يا دعبل، الإمام بعدي محمد إبني وبعد محمد ابنه علي وبعد علي ابنه الحسن وبعد الحسن ابنه القائم المنتظر في غيبته المطاع في ظهوره. لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. وأمّا متى؟ فإخبار عن الوقت.

ولقد حدّثني أبي عن أبيه عن آبائه عن علي أنّ النبي صلّى الله عليه وآله قيل له: يا رسول الله، متى يخرج القائم من ذريّتك؟

---

(١) المناقب، إبن شهر آشوب ٣ / ٥٢٧؛ بحار الأنوار ٥٠ / ٣١٨، الحديث ١٤، وروي هذا الحديث في مصادر أهل السنّة عن الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله بهذه العبارة: «أفضل العبادة إنتظار الفرج». راجع: سنن الترمذي ٥ / ٢٢٥؛ مجمع الزوائد ١٠ / ١٤٧؛ تحفة الأحوذي ١٠ / ١٧؛ المعجم الأوسط ٥ / ٢٣٠؛ المعجم الكبير ١٠ / ١٠١؛ الجامع الصغير ١ / ١٩٢، الحديث ١٢٨٣؛ كنز العمّال ٢ / ٧٩، الحديث ٣٢٢٥.

فقال: مثله مثل الساعة لايجلّيها لوقتها إلّا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلّا بغتة.[١]

وعليه، فما من يوم ولا ساعة إلّا ويمكن أن تكون موعداً لظهوره عليه السّلام. وهذا ما يجب علينا الاعتقاد به.

والطائفة الثانية، تقول: عندما يظهر الإمام عجّل الله تعالىٰ فرجه ويسيطر على العالم كلّه، فإنه سيحكم بحكم داود عليه السّلام، أي إنّ أحكامه مطابقة للواقع.

فالسبب في كون انتظار الفرج أفضل الأعمال هو أنّ المؤمن المنتظر يكون مواظباً ومراقباً لأعماله وسلوكه وتصرفاته وعباداته في كلّ أيام حياته، لئلّا يتحقق الظهور الفجائي فيحكم فيه الإمام عليه السّلام بحسب واقعه المعاش، فيفتضح بين الناس.

وعلى أي حال، فإن داود عليه السّلام كان عنده «فصل الخطاب» من الله في هذا العالم، وفصل الخطاب هذا هو نفسه عند الأئمّة عليهم السّلام في عالم الآخرة، فما الإشكال في ذلك؟

ويشهد بذلك ما ورد في أنّ عليّاً قسيم الجنّة والنار، وأنّ أحداً لا يجوز الصراط ولا يدخل الجنّة إلّا إذا كان عنده جوازٌ وبراءة.

بل لقد كان عنده فصل الخطاب في عالم الدنيا أيضاً، إذ حكم في كثير من قضايا الناس على أساس الواقع والعلم الذي آتاه الله. وقد جمع بعضها في كتب خاصّة.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ / ٩٧، الحديث: ٣٥، بحارالأنوار ٤٩ / ٢٣٧ الحديث ٦.

وَآيَاتُ اللهِ لَدَيكُم

وتوجد بين «لدى»، «عند»، «لَدُن»، فروق لغويّة وأدبيّة، فلكلّ واحد منها موضعه الخاص كما لا يخفى على من راجع كتاب مغني اللّبيب.[١]

ويقول الراغب الإصفهاني في لفظ «عند»:

«لفظٌ موضوعٌ للقرب، فتارةً يستعمل في المكان، وتارةً في الاعتقاد نحو أن يقال: عندي كذا، وتارةً في الزلفى والمنزلة».[٢]

ويقول في كلمة «لَدُن»:

«أخص من» عند «، لأنّه يدلّ على إبتداء نهايةٍ، نحو أقمت عنده من لدن طلوع الشمس إلىٰ غروبها، فيوضع لدن موضع نهاية الفعل».[٣]

إذن، فكلمة «لَدى» قريبة من جهة المعنى إلىٰ كلمة «عند» وكلمة «لدن» أخصّ منها. حيث يقول الراغب في كلمة «لدى»:

«لدى: لدى يقارب لدن، قال: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَها لَدَى الْباب﴾[٤]».

وفي كلمة «الآية» عدّة نقاط:

الاولى: إنّ الآية بمعنى العلامة. يقول الراغب:

«والآية هي العلامة الظاهرة وحقيقته لكلّ شيءٍ ظاهر هو ملازم لشيءٍ لا يظهر ظهوره»[٥].

---

(١) مغني اللبيب ١ / ١٥٦ و١٥٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٣٤٩.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٤٤٩.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المفردات في غريب القرآن: ٣٣.

فمن أراد أن يرى الله تعالىٰ، فلينظر إلى آياته وعلاماته.

ولا يخفى أنَّ الرؤية نوعان:

١ ـ الرؤية بالبصر.

٢ ـ الرؤية بالبصيرة.

الثانية: إنَّ نفس الأئمّة عليهم السّلام هم آيات الله.

الثالثة: يظهر أنّ الله تعالىٰ قد وضع الآيات عند الأئمة، فمعنى العبارة هو: إنكّم مع كونكم آيات الله تعالىٰ، فإنَّ آياته كلّها عندكم.

لايقال: إنّ هذا ينافي قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾(١)

وذلك، لاندفاع هذا التوهّم بما ذكرناه بشرح: وإياب الخلق إليكم.

مضافاً إلى أنه يشهد بذلك:

إنّه في نفس الوقت الذي يقول فيه القرآن الكريم: ﴿الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، يقول بوجود الآيات عند الأئمّة عليهم السّلام، حيث نقرأ في الآية الكريمة:

﴿وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هٰؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ * وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ في صُدُورِ الَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾.(٢)

---

(١) سورة الأنعام: (٦): الآية ١٠٩ وسورة العنكبوت (٢٩): الآية: ٥٠.

(٢) سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ٤٧ ـ ٤٩.

مصاديق الآيات الإلهيّة

وما هي مصاديق آيات الله؟

ألف: القرآن المجيد

يبدو أنَّ القرآن المجيد هو أعظم، أهمّ، وأكبر مصاديق «آيات الله» وإنَّ أحداً غير الأئمّة عليهم السّلام لم يقف على أسرار وحقائق القرآن.

فالأئمّة عليهم السّلام يعرفون متشابهات القرآن أيضاً. يقول تعالىٰ:

﴿مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْويلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.(١)

وإنْ كانت «الواو» في قوله: «والراسخون في العلم» حرف عطفٍ ـ لا إستئناف ـ فسيكون «الراسخون في العلم» هم نفسهم «الذين أوتوا العلم».

ومنه يظهر، أن لا منافاة بين الآية المباركة **﴿إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللّٰه﴾** والآية المباركة **﴿وَ ما يَعْلَمُ تَأْويلَهُ﴾** والآية **﴿في صُدُورِ الَّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾**.(٢)

ب ـ المعاجز

والمصداق الآخر لآيات الله: معاجزُ الأنبياء، وهي موجودة عند الأئمّة عليهم السّلام.

ج ـ الكتب السماوية

والمصداق الثالث لآيات الله تعالىٰ، الكتب السماوية لأنبياء الله ورسله، فإنّ علمها عند الأئمّة عليهم السّلام، أيضاً.

---

(١) سورة آل عمران (٣): الآية ٧.

(٢) راجع: تفسير جامع البيان، الطبري ٢ / ٢٤١ و ٨ / ٣٣.

وعن سلمة بن كهيل، قال: قال علي عليه السّلام:

«لو استقامت لي الأمّة وثنيت لي الوسادة لحكمتُ في أهل التوراة بما أنزل الله في التوراة، ولحكمت في أهل الإنجيل بما أنزل الله في الإنجيل، ولحكمت في أهل الزبور بما أنزل الله في الزبور، حتّىٰ يزهر إلىٰ الله، وإنّي قد حكمت في أهل القرآن بما أنزل الله».(١)

ويبدو أنّ نفس تلك الكتب عند الأئمّة عليهم السّلام أيضاً، وهي الآن عند الإمام صاحب الزمان عجّل الله تعالىٰ فرجه.

فعن ضريس الكناسي قال: كنت عند الإمام الصّادق عليه السّلام، وكان أبو بصير حاضراً، فقال الإمام عليه السّلام:

«إنّ داود ورث الأنبياء، وإنّ سليمان ورث داود، وإنّ محمّداً ورث سليمان وما هناك، وإنّا ورثنا محمّداً، وإنّ عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى.

فقال له أبو بصير: إنّ هذا لهو العلم؟

فقال: يا أبا محمّد ! ليس هذا هو العلم، إنّما هذا الأثر، إنّما العلم ما حدث بالليل والنهار يوماً بيوم وساعة بساعة».(٢)

وفي رواية أخرى، إنّ عصا موسى عليه السّلام وخاتم سليمان عليه السّلام، موجودة عند الإمام الحجّة عجّل الله تعالىٰ فرجه الشريف، أيضاً.(٣)

والسؤال هو: هل إنّ المراد هو الأجسام الخارجيّة الماديّة لهذه الأشياء؟ أم أنّ

---

(١) بصائر الدرجات: ١٥٤، الحديث ٦؛ بحار الأنوار ٢٦ / ١٨٣، الحديث ١١ بتفاوت يسير؛ ينابيع المودّة ١ / ٢٢١، الحديث ٤٠.

(٢) بصائر الدرجات: ١٥٥، الحديث ١؛ بحار الأنوار ٢٦ / ١٨٣، الحديث ١٢.

(٣) بحار الأنوار ٥٢ / ٣٢٢، الحديث ٣٠ و٣٢٤، الحديث ٣٧.

المراد هو آثارها وإعجازاتها؟ أم إنّ المراد كلا الأمرين معاً؟

لا مانع من الجمع، لأن الأنبياء السّابقين كانت عندهم الآيات، كما هو ظاهر قوله تعالىٰ في القرآن المجيد:

﴿إِنَّ الَّذينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَليم﴾[١]

وكلّ تلك الآيات موجودة عند الأئمّة عليهم السّلام، وقد فسِّر قوله تعالىٰ: **﴿في صُدُورِ الَّذينَ أُوتُوا الْعِلْم﴾** بتلك الذوات المقدسة.

وبالتأمل في سيرة الأئمّة وأخبارهم، نجد إنهم كانوا كذلك حقّاً، فكلّما سئلواعن مسئلة أجابوا بأحسن ما يمكن إقناع السائل وباقي الناس به، فحتى أُولئك الذين أرادوا ـ بزعمهم ـ إمتحان الإمام وإختباره، سمعوا جواباً شافياً وأُلقموا حجراً.

وقضيّة سؤال أبي حنيفة من الإمام الكاظم عليه السّلام، في زمن طفولته، شاهد صدق لما نقول.[٢]

وَعَزائِمُهُ فِيكُم

قالوا: إنّ العزيمة ما يقابل الرخصة، فالإفطار في السفر عزيمة، لا رخصة، أي إنّ الأمر بالإفطار في السفر، حكم حتمي فعليه أن يفطر، لا إنّه رخصة فيجوز له الإفطار والصيام.

---

(١) سورة آل عمران (٣): الآية ٢١.

(٢) الكافي ٣/ ٢٩٧.

وجاء في اللغة في كلمة «عزم»:

«عزمت على كذا عزماً.... اِذا أردت فعله وقطعت عليه».[1]

فلو أنّه قال: «عزائمه عندكم» لاستظهرنا أنّ المراد هو إحاطتهم عليهم السّلام بكلّ الأحكام الإلزامية، وجميع المرادات الحتميّة للباري عزّوجلّ، سواءٌ في التكوينيّات أو في التشريعيّات، سابقاً وحاضراً ومستقبلاً.

ولكن العبارة جاءت بهذه الصياغة: «عزائمه فيكم»، يعني إرادة الله الحتميّة في شأنكم.

والظاهر أنَّ المراد هو إنّ كلَّ ما ورد من الله في شأنكم من الأمر بالاقتداء بكم وطاعتكم، وأمثال ذلك، هي أوامر حتمية إلزامية للناس، فهي تكليف للجميع ولا يجوز التمرد على امتثاله.

وبعبارة أخرى، إنَّ الله تعالىٰ نصبكم ليرجع الخلق إليكم في كلّ أمورهم وشئونهم، الدينيّة والدنيويّة، وأن يأخذوا ذلك عنكم ولا يُرخَّص أحدٌ في الرجوع إلى غيركم.

وَنُورُهُ وَبُرهَانُهُ عِندَكُم

فنور الله تعالىٰ عند أهل البيت عليهم السّلام، وببركة هذا النور، تمت الخلقة وتحققت الهداية، ونزلت العلوم والمعارف و...

و«النور» بالمعنى الأخص، هو أحد ألقاب أو أسماء القرآن الكريم. كما جاء في قوله تعالىٰ:

---

(١) صحاح اللغة ٥ / ١٩٨٥.

﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبين﴾.(١)

وفي آية أخرى:

﴿فَالَّذينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾.(٢)

والبرهان، أيضاً كذلك، ففي آية من القرآن نقرأ:

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبيناً * فَأَمَّا الَّذينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ في رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْديهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقيما﴾.(٣)

فهذا القرآن، برهانٌ ونورٌ.

والنبي الأكرم والأئمّة الأطهار عليهم السّلام، برهانٌ ونورٌ كذلك للوصول إلىٰ فضل الله ورحمته. فعن عبد الله بن سليمان قال:

«قلت لأبي عبد الله عليه السّلام: قوله: ﴿قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبينا﴾.

قال: البرهان محمّد والنّور علي.

قال: قلت له: صراطاً مستقيماً.

قال: الصّراط المستقيم علي».(٤)

---

(١) سورة المائدة (٥): الآية ١٥.

(٢) سورة الأعراف (٧): الآية ١٥٧.

(٣) سورة النساء (٤): الآيتان ١٧٤ و ١٧٥.

(٤) بحار الأنوار ٩ / ١٩٧، الحديث ٤٧؛ شواهد التنزيل ١ / ٧٩، الحديث ٩٣.

وأي رحمة تلك التي يقول عنها القرآن الكريم:

﴿وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.[١]

وهذا أمرٌ عظيم حقّاً ! أي: إنَّ رحمة الله أفضل لكم من الدنيا بما فيها.[٢]

فالقرآن، والنبي الأكرم وأهل البيت عليهم السلام، نورٌ، يهدون الناس ويوصلونهم إلىٰ مثل هذه الرحمة الإلهيّة.

ولكن ليس كلّ الناس، وإنَّما أولئك الذين إعتقدوا وإعتصموا، حيث قال عزّ و جلّ:

﴿فَأَمَّا الَّذينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ في رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾.[٣]

وجاء في بعض ألفاظ حديث الثقلين الشريف، إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

«إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن اعتصمتم بِهِما لَن تضلّوا بعدي».[٤]

ويقول تعالىٰ في القرآن المجيد:

﴿وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَميعاً وَ لا تَفَرَّقُوا﴾.[٥]

وعن الإمام الصّادق عليه السّلام أنه قال ـ كما في رواية الفريقين ـ في ذيل هذه الآية:

---

(١) سورة الزخرف (٤٣): الآية ٣٢.

(٢) تفسير مجمع البيان ٩ / ٧٩؛ بحار الأنوار ٩ / ٢٧٥.

(٣) سورة النساء (٤): الآية ١٧٥.

(٤) راجع الصفحة: ١٦٦.

(٥) سورة آل عمران (٣): الآية ١٠٣.

«نحنُ حبلُ الله».[١]

فإذا ما كان هؤلاء الأطهار عليهم السّلام نوراً وهداية وطريقاً لإيصال الناس إلىٰ الرحمة الإلهيّة، إهتدىٰ الناس بهم إذا ما اعتقدوا واعتصموا وأطاعوهم.

ولا يخفى أنَّ الله قد وعد المؤمنين المعتصمين بالكتاب والعترة بالإعانة على سلوك هذا الطريق للوصول إلىٰ الغاية. يقول جلَّ وعلا في القرآن:

﴿وَ الَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾[٢]

وَأَمرُهُ إلَيكُم

وفي كتاب الكافي باب تحت عنوان «باب التفويض إلىٰ الرسول والأئمّة عليهم السّلام في أمر الدين».[٣]

فالله سبحانه وتعالى فوّض أمره إلىٰ النبي الأكرم والأئمّة الأطهار عليهم السّلام، والمراد من التفويض هنا هو الإذن، والمعنى: إنّ الله قد أذن للأئمة الأطهار عليهم السّلام، بما أذن فيه لباقي الأنبياء والأولياء مع اختلاف مراتبهم ودرجاتهم.

وهذا الإذن، إذنٌ في التكوينيات وإذن في التشريع أيضاً. فإنَّ «أمره إليكم» فيه إطلاق وعموم. فلفظ «أمر» في هذه العبارة جنس، وإذا أضيف الجنس، أفاد العموم.

---

(١) تفسير فرات الكوفي: ٩١، الحديث ٧٣؛ العمدة: ٢٨٨، الحديث ٤٦٧؛ الصراط المستقيم ١ / ٢٨٦؛ بحار الأنوار ٢٤ / ٨٤، الحديث ٣؛ ومن مصادر العامّة: تفسير الثعلبي ٣ / ١٦٣؛ شواهد التنزيل ١ / ١٦٩، الحديث ١٧٨؛ ينابيع المودّة ١ / ٣٥٦، الحديث ١٠ و ٢ / ٣٦٨، الحديث ٥١.

(٢) سورة العنكبوت (٢٩): الآية ٦٩.

(٣) الكافي ١ / ٢٦٥.

الأئمّة والولاية في الأحكام

ويتعلّق إذن الله للأئمة بالتصرف بأربعة جهات، وهي التي يعبَّر عنها بالإصطلاح الفقهي بـ«الولايات»، فلهم الولاية على التكوينيات وعلى الأنفس والأموال وعلى الأحكام الشرعيّة وفي الامور الشخصيّة.(١)

وهنا نتناول الولاية في الأحكام بشئ من التوضيح وإنْ تعرّضنا لذلك في الجزء الأوّل، ثم نبيّن الولاية التشريعيّة في الفقرة التالية «مَنْ والاكم فقد والى الله»، كما إنّنا نشرح الولاية التكوينيّة في محلّها المناسب إن شاء الله.

لقد طرح البحث عن ولاية الأئمّة عليهم السّلام على الأحكام الشرعيّة في الكتب الحديثيّة والفقهيّة والأصوليّة والرجاليّة.(٢)

أمّا في كتب الحديث، فقد عُقد في «أصول الكافي» بابٌ في هذا الشأن وذكرت فيه روايات عديدة.

وفي «بصائر الدرجات» وفي ذيل بعض الآيات، نُقلت روايات في هذا الموضوع، وكذا رويت روايات في كتب التفسير تتناول هذه الولاية لهم عليهم السّلام.(٣)

---

(١) لقد كتب المؤلف كتاباً تحت عنوان «عموم ولاية المعصوم» في أربعة أبواب: الباب الأول: الولاية التكوينيّة، الباب الثاني: الولاية التشريعيّة، الباب الثالث: في الولاية في الأحكام، الباب الرابع: في الولاية في الأمور الشخصيّة.

(٢) راجع: الحدائق الناضرة ١٢ / ٣٥٧؛ مصباح الفقيه ٢ / ٢٧٤؛ الوافية: ١٤٨؛ قوانين الأصول: ٤٠٧؛ نهاية الأفكار ٣ / ١٣٠؛ معجم رجال الحديث ٢ / ٢١.

(٣) راجع: بصائر الدرجات: ٣٩٨ ـ ٤٠٧؛ الكافي ١ / ٢٦٥ ـ ٢٦٨، باب التفويض إلى رسول الله وإلى الأئمّة عليهم السّلام.

وأمّا في علم الأصول، ففي مسألة «الحقيقة الشرعيّة» في كتاب «هداية المسترشدين»[١] وفي مباحث الجملة الخبريّة والإنشائيّة.

وكذا في تقريرات بحث السيد البروجردي رحمه الله، وقد بحثنا نحن عنها أيضاً بشيءٍ من التفصيل في كتاب «تحقيق الأصول».[٢]

وطُرحت في كتب الرجال لكبار العلماء كالوحيد البهبهاني وآخرين بمناسبة «الفرقة المفوضة»

وأشير إليها في الكتب الفقهية لبعض الأعاظم مثل كتاب «جواهر الكلام» تأليف الشيخ محمد حسن النجفي.[٣]

ولا يخفى إنَّ هذه المسألة من المسائل الدقيقة جدّاً.

من هو الشارع؟

نقول كثيراً في بحوثنا: إنَّ الشارع المقدس قال كذا وقال كذا، وإنه ورد من الشارع المقدّس كذا وكذا، فمن المراد من الشارع؟

لا شك في أنَّ «الشارع» في الأصل هو الله تعالىٰ. يقول القرآن الكريم:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجا﴾.[٤]

كما لا شك في أنَّ النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله مشرِّعٌ أيضاً، لأن القرآن الكريم يقول:

---

(١) هداية المسترشدين ١ / ٤٠٩ ـ ٤١٠.

(٢) تحقيق الأصول ٢ / ٥٩.

(٣) جواهر الكلام ١٣ / ١٠٢ ـ ١٠٣ و ٤١ / ٢٩٤.

(٤) سورة المائدة (٥): الآية ٤٨.

﴿وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.[١]

وفي آية أخرى قال تعالىٰ:

﴿وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾.[٢]

والآن، هل يصح أن نطلق عنوان «الشارع» على الأئمّة عليهم السّلام أم لا؟ ولهذا البحث ثمرة علميّة وإعتقاديّة.

فإن كانت الأوامر والنواهي الصادرة عن الأئمّة عليهم السّلام هي أوامر ونواهي مولويّةً، فإنّه يصحّ حينئذٍ أن نصفهم بـ«الشارع».

وأمّا إذا كان الإمام عليه السّلام مُخبراً عن تلك الأحكام الصادرة من الشارع الأقدس، كان حاله حال الفقيه، أو حال الراوي الذي ينقل كلام المعصوم، أو حال من يحكي الأحكام الشرعيّة ويعلّمها للناس، ولم يصح حينئذٍ إطلاق عنوان «الشارع» عليه.

إذن، هل إنّ الأئمّة عليهم السّلام مخبرون و ناقلون فقط للأحكام الشرعيّة؟

إنّ مقتضى الأصل في الأوامر والنواهي الصادرة عن المولى، هو الحمل على المولويّة، يعني إذا وصل من المولى أمرٌ مجرّدٌ عن أي قرينة، فإن العقلاء يحملون ذلك الأمر على المولوية لا الإرشاديّة. ومن هنا، فإنّ العبد لو خالف ولم يمتثل ذلك الأمر، فإنّه سيلام ويؤاخذ من قبل العقلاء ولا يُعذر.

والآن، فلندرس الأدلّة على ذلك:

يقول تعالىٰ في كتابه الكريم في شأن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:

---

(١) سورة الحشر (٥٩): الاية ٧.

(٢) سورة النجم (٥٣): الآيتان ٣و٤.

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّه﴾.[١]

وجاء في الحديث:

«ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله».[٢]

وعندنا دليل آخر من القرآن المجيد يقول:

﴿وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.[٣]

وجاء في ذيل الآية المباركة، بسند صحيح إنّه عليه السّلام قال:

«إنَّ الله عزّوجلّ أدّب نبيّه فأحسن أدبه، فلمّا أكمل له الأدب قال: ﴿إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيم﴾.[٤] ثمّ فوّض إليه أمر الدين والأمّة ليسوس عباده فقال عزّوجلّ: ﴿وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾...»

لقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله مسدَّداً ومؤيَّداً من الله تعالىٰ، وكانت تصرفاته مرعيَّة من قبل الله. يقول أمير المؤمنين عليه السّلام في إحدى خطبه في نَهج البلاغة حول هذا الأمر:

«فإنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان مسدّداً موفقاً مؤيّداً بروح القدس، لا يزلُّ ولا يُخطئ في شيءٍ ممّا يسوس به الخلق فتأدّب بآداب الله، ثمّ إنَّ الله عزّوجلّ فرض الصَّلاة ركعتين ركعتين عشر ركعات فأضاف رسول الله صلّى الله عليه وآله إلىٰ الركعتين ركعتين، وإلى المغرب ركعة فصارت عديل الفريضة لا يجوز تركهن إلّا في سفر وأفرد الركعة في المغرب فتركها

---

(١) سورة النساء (٤): الآية ٨٠

(٢) بصائر الدرجات: ٤٠٥، الحديث ٧.

(٣) سورة الحشر (٥٩): الآية ٧.

(٤) سورة القلم (٦٨): الآية ٤.

قائمة في السفر والحضر، فأجاز الله عزّوجلّ له ذلك فصارت الفريضة سبعة عشرة ركعة»(١)

ونظير ذلك روايات عديدة ذكرت في كتاب «الكافي».

وهذه المنزلة ثابتة لرسول الله صلّى الله عليه وآله، كما ثبت أنَّ النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله قد تصرَّف في الأحكام الإلهيّة في عدّة مواطن وفي الأبواب المختلفة. فعن زرارة قال: قال الإمام الباقر عليه السّلام:

«وَضَعَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ديَة العَين وديَة النَّفس وحرَّم النَّبيذَ وكلّ مُسكر.

فقال له رجل: وضع رسول الله صلّى الله عليه وآله من غير أن يكون جاء فيه شيئ؟

قال: نعم، ليُعلم من يطع الرسول ممَّن يعصيه».(٢)

وعلى الإجمال، فإنّه لا نقاش في كون الرسول صلّى الله عليه وآله مشرِّعاً، وقد صرَّح المفسّرون من كلا الفريقين بذلك في ذيل قوله تعالى: ﴿وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾(٣)

فإذا ما ثبت هذا المعنى لرسول الله صلّى الله عليه وآله، فلنبحث عنه في خصوص الأئمّة عليهم السّلام:

---

(١) الكافي ١ / ٢٦٦، الحديث ٤؛ بحار الأنوار ١٧ / ٤، الحديث ٣.

(٢) ورد هذا الحديث بتفاوت يسير في: بصائر الدرجات: ٤٠١، الحديث ١٤؛ الكافي: ٢٦٧، الحديث ٧؛ وسائل الشيعة ٢٥ / ٣٥٤، الحديث ٢.

(٣) راجع: تفسير الصافي ٥ / ١٥٦، الحديث ٧؛ تفسير نور الثقلين ٤ / ٤٦١، الحديث ٦٠ و٥ / ٢٧٩، الحديث ٢٥ و...

لقد جاء في مصادر كثيرة جدّاً وبأسانيد فاقت حدّ التواتر أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

«علي منّي بمنزلة هارون من موسى».(١)

وأيضاً ورد عنه صلى الله عليه وآله في روايات كثيرة أنه قال:

«لكلِّ نبي وصي ووارث وإنَّ عليّاً وصيّي ووارثي».(٢)

وكما إنَّ أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله هو أمر الله وإن طاعته طاعة الله، فإن أمرَ أمير المؤمنين عليه السّلام هو بمنزلة أمر رسول الله، حيث قال صلّى الله عليه وآله:

«مَن أطاع عليّاً فقد أطاعني».(٣)

وكلّ ذلك، إطلاقات وعمومات تُنزّل الأئمّة الأطهار عليهم السّلام بمنزلة رسول الله صلّى الله عليه وآله في جميع منازله عدا النبوّة.

ومن جهة أخرى، فإن عندنا روايات في خصوص الأئمّة عليهم السّلام صرّح الشيخ المجلسي رحمه الله باستفاضتها:

ومنها رواية نظيرة للرواية السابقة، ولكن جاء في ذيلها إنَّه قال:

---

(١) راجع: الجزئين ١٧ و ١٨ من نفحات الأزهار.

(٢) المناقب، إبن شهر آشوب ٢ / ٣٥؛ كشف الغمّة ١ / ١١٢؛ العمدة: ٢٣٤؛ الطرائف: ٢٣؛ كتاب الأربعين: ٤٧؛ حلية الأبرار ٢ / ٤٤٥، الحديث ١٢؛ بحار الأنوار ٣٨ / ١٤٧، الحديث ١١٥؛ الكامل ٤ / ١٤؛ تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٣٩٢، جاء في هذا المنبع: «إنَّ لكلّ نبي وصيّاً ووارثاً وإنّ عليّاً وصيّي ووارثي»؛ المناقب، إبن المغازلي: ٢٠١، الحديث ٢٣٨؛ المناقب، الخوارزمي: ٨٥، الحديث ٧٤؛ ينابيع المودّة ١ / ٢٣٥، الحديث ٥؛ للتحقيق الأكثر في هذا المجال راجع: تشييد المراجعات ٤ / ٧٥ ـ ٩٤.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٢٧٠؛ المستدرك على الصحيحين ٣ / ١٢١ و ١٢٨.

«إنَّ الله عزّوجلّ أدّب نبيّه على محبّته فقال: ﴿وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١] ثمّ فوّض إليه فقال عزّوجلّ: ﴿وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٢] وقال عزّوجلّ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ﴾؛[٣]

ثمّ قال: وإنّ نبي الله فوّض إلىٰ علي عليه السّلام وائتمنه، فسلّمتم وجحد الناس...».[٤]

آراء العلماء

كان ذلك إشارة سريعة إلىٰ الروايات الواردة في تفويض الأحكام الشرعيّة إلىٰ الأئمّة المعصومين عليهم السّلام.

وأمّا كلمات العلماء في هذا المضمار. فقد جاء في كلام الشيخ الوحيد البهبهاني:

«تفويض الأحكام والأفعال بأن يثبت ما رآه حسناً ويردّ ما رآه قبيحاً فيجيز الله إثباته وردّه، مثل إطعام الجدّ السدس وإضافة الركعتين في الرباعيّات والواحدة في المغرب والنوافل أربعاً وثلاثين سنة وتحريم كلٍّ مسكر عند تحريم الخمر...»[٥]

«وقد حقّقنا في تعليقتنا على رجال الميرزا ضعف تضعيفات القمّيين، فإنّهم

---

(١) سورة القلم (٦٨): الآية ٤.

(٢) سورة الحشر (٥٩): الآية ٧.

(٣) سورة النساء (٤): الآية ٨٠

(٤) بصائر الدرجات: ٤٠٤، الحديث ٤؛ الكافي ١ / ٢٦٥، الحديث ١؛ بحار الأنوار ١٧ / ٣، الحديث ١.

(٥) الفوائد الرّجاليّة: ٣٩ و ٤٠.

كانوا يعتقدون بسبب إجتهادهم إعتقادات من تعدّى عنها نسبوه إلىٰ الغلوّ، مثل نفي السهو عن النبي صلّى الله عليه وآله أو إلىٰ التفويض، مثل تفويض بعض الأحكام إليه صلّى الله عليه وآله».(١)

ويقول صاحب «الحدائق الناضرة» في بحث منزوحات البئر:

«واحتمل بعض محققي المحدّثين من المتأخّرين كون هذا الاختلاف من باب تفويض الخصوصيّات لهم عليهم السّلام، لتضمّن كثيرمن الأخبار أنّ خصوصيّات كثير من الأحكام مفوّضة إليهم عليهم السّلام، كما كانت مفوّضة إليه صلّى الله عليه وآله».(٢)

ويقول المحدّث والفقيه الكبير السيد شبَّر:

«والأخبار بهذا المضمون كثيرة، رواها المحدّثون في كتبهم كالكليني في الكافي، والصفّار في البصائر وغيرهما. وحاصلها أنّ الله سبحانه فوّض أحكام الشريعة إلىٰ نبيّه بعد أن أيّده وإجتباه وسدّده وأكمل له محامده وأبلغه إلىٰ غاية الكمال، والتفويض بهذا المعنى غير التفويض الّذي أجمعت الفرقة المحقّة على بطلانه».(٣)

وأمّا الشيخ صاحب «جواهر الكلام» فقد بيَّن المطلب بشكل واضح وصريح قال:

«بل في المسالك: روى العامّة والخاصّة: أنّ النبي صلّى الله عليه وآله كان يضرب الشارب بالأيدي والنعال ولم يقدّره بعددٍ، فلمّا كان في زمن عمر استشار

---

(١) حاشية مجمع الفائدة والبرهان: ٧٠٠؛ راجع: التعليقة على منهج المقال: ٤٣.

(٢) الحدائق الناضرة ١ / ٣٦٥.

(٣) مصابيح الأنوار في حلّ مشكلات الأخبار ١ / ٣٦٩.

أمير المؤمنين عليه السّلام في حدّه، فأشار عليه بأن يضرب ثمانين، معللاً له بأنّه إذا شرب سكر، وإذا سكر هَذى، و إذا هَذى افترى ... وكأنّ التقدير المزبور عن أمير المؤمنين عليه السّلام من التفويض الجائز لهم».(١)

ويقول المجلسي الأوّل:

«كما يظهر من الأخبار الكثيرة الواردة في التفويض إلىٰ النبي والأئمّة عليهم السّلام».(٢)

كما إنّ كلام المجلسي الثاني في هذا المجال، دقيق جداً، وكلامُه ميزانٌ في أكثر الأمور. يقول في هذا المضمار:

«وألزم على جميع الأشياء طاعتهم حتّىٰ الجمادات من السماويات والأرضيات، كشقّ القمر وإقبال الشجر وتسبيح الحصى وأمثالها ممّا لا يحصى، وفوّض أمورها إليهم من التحليل والتحريم والعطاء والمنع وإن كان ظاهرها تفويض تدبيرها إليهم،» فهم يحلّون ما يشاؤون «ظاهره تفويض الأحكام، كما سيأتي تحقيقه».(٣)

وعلى الجملة، فإنّ الأدلّة في هذا الشأن أكثر بكثير ممّا ذكرناه، لكنّا قد اكتفينا بذكر بعض الأدلّة العامّة والمطلقة والخاصّة، والاستشهاد ببعض كلمات الأعلام.

مضافاً إلىٰ ذلك، فإنّه لا شك في إنّ الأئمّة عليهم السّلام فيهم جهتان:

١ ـ العلم بملاكات الأحكام.

٢ ـ العصمة.

---

(١) جواهر الكلام ٤١ / ٤٥٧.

(٢) روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه ٥ / ٤٨٠.

(٣) بحار الأنوار ٢٥ / ٣٤١و٣٤٢.

فلا يُستبعد أن يأذن الله تعالىٰ لهؤلاء الأطهار عليهم السّلام بالتصرّف بأحكامه، والتي هي سلسلةُ إعتباراتٍ.

أتباع أهل البيت أتباع الله تعالىٰ

مَن وَالَاكُم فَقَد وَالَى اَللهَ وَمَن عَادَاكُم فَقَد عَادَى اللهَ

إنّ هذه الفقرة يمكن أن تكون نتيجةً للفقرات السابقة، كما يمكن أن تكون مستقلّة في معناها وغير متعلقة بما مضى.

فإذا نظرنا إلى ما تقدم من أن «إياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم»، كان ذلك إنَّ من والاكم فقد والى الله ودخل في رحمته وإستحق مغفرته وكان من أهل النجاة والفلاح يوم الآخرة، وهذا مقامٌ رفيع ومعنى عالٍ.

وهذه الجملة من الزيارة الجامعة، دليلٌ آخر على عصمة الأئمّة عليهم الصّلاة والسّلام.

معنى الولاء

وللراغب الإصفهاني بيان لطيف في مصطلح «الولاء». يقول:

«الوَلاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والإعتقاد».[١]

وفيعتبر في مفهوم «الولاء» انعدام الفاصل بين الشيئين، إلّا ما ليس غريباً

(١) المفردات في غريب القرآن: ٥٣٣.

عنهما، فيجب أن يكون المتواليان أو أكثر بنحو يُعدّان واحداً، لعدم وجود إختلاف بينهما.

أي إنّه إذا كان شخص تابعاً وتالياً لشخص في آرائه، وملازماً له في عقيدته، فستكون بينهم مساواة، فلابدَّ ـ إذن ـ أن لا يكون بينهما اختلاف في الأمور الاعتقاديّة ولو بمقدار رأس الإبرة.

وكذا في الأمور العمليّة والأخلاقيّة والصفات النفسانيّة. فيقال: «فلانٌ تالي تلو فلان» وبعبارة أخرى: «فلان نسخة طبق الأصل من فلان».

وعلى هذا، إذا كان لأي إنسان مثل هذا الحال مع الأئمّة عليهم السلام، في العقيدة والعبادة والعبوديّة والصفات والسلوك، فسيكون كذلك حتماً مع الله تعالىٰ، وذلك لأنَّ كلّ هذه العقائد الحقّة، الواجبات، المحرّمات، الآداب والسنن، الفضائل والصفات الحسنة هي من الله تعالىٰ، وإنَّ الأئمّة عليهم السّلام مؤدبّون من قبل الله تعالىٰ بها.

نكتة مهمّة

وهنا نودُّ الإشارة إلىٰ نقطة مهمة، ففي اللغة ـ وكذا في العرف والإستعمال، وإن كنّا في غفلةٍ عن ذلك كثيراً ـ تكون المعاداة مقابلة للموالاة، ويكون البغض في مقابل الحبّ، فالمفهوم المقابل للولاء هو العداء، وليس البغض.

يقول الراغب الإصفهاني:

«البغض: نفار النفس عن الشئ الذي ترغب عنه، وهو ضدّ الحبّ، فإنَّ الحبّ انجذاب النفس إلىٰ الشئ الذي ترغب فيه».[1]

(١) المفردات في غريب القرآن: ٥٥.

وبناءاً على هذا، فإن ما يقابل «من والاكم» هو «من عاداكم»، أي فمن لم يتابعكم فهو معادٍ لكم، وإذا سار أحدٌ في غير طريقكم ونهجٍ غير نهجكم، فقد سار في غير طريق الله ونهج غير المنهج الذي أراده الله تعالىٰ، سواء كان مبغضاً لكم أو لم يكن وكان مخالفاً لكم فقط.

وعليه، يكون معنى هذه الفقرة: من سار على طريقتكم وأطاعكم واتّبعكم في الاصول والفروع وسائر الامور، فقد أطاع الله وسار في طريقه، ومن لم يتبعكم ولم يسر في طريقكم، فقد سار في طريق الشيطان، وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى إن شاء الله.

إذن، فهناك من لا يسير في خط أهل البيت عليهم السّلام، وفي نفس الوقت يعاديهم، ولذا يقول عليه السّلام:

«مَن عاداكُم فَقَد عادَى اللهَ».

ثم يقول بعد ذلك:

«وَمَن أَحَبَّكُم فَقَد أحَبَّ اللهَ وَمَن أبغَضَكُم فَقَد أبغَضَ اللهَ».

فظهر إنَّ العداء غير البغض، والبغض غير العداء، والشاهد على ذلك عطف أحدهما على الآخر الظاهر في المغايرة في القرآن الكريم في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّما يُريدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاء﴾[١]

وفي:

﴿وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاء﴾[٢]

---

(١) سورة المائدة (٥): الآية ٩١.

(٢) سورة المائدة (٥): الآية ٦٤.

طريقان أساسيّان

ومن هنا يظهر أن هناك طريقين لاثالث لهما:

١ ـ طريق الله.

٢ ـ طريق الشيطان.

طريق الله

إنّ سالكي طريق الله هم الأنبياء والأوصياء والأئمّة الأطهار عليهم السّلام وأتباعهم، وكلّ واحد منهم له نصيب ـ بقدر وسعه ومرتبته ـ في هداية الخلق وفي التأثير الإيجابي على سالكي هذا الطريق.

إذن، فكلٌّ من يسير في طريق النبيّ وآله فهو في طريق الله تعالىٰ، ولا طريق في مقابله إلّا طريق الشيطان؛ فلا وجود لطريق ثالث، ولا يمكن التشريك بين الطريقين، لأنّهما متقابلان متضادّان، والجمع بين الضدّين محال.

فإمّا أن يختار الإنسان طريق ولاية الله وأوليائه، أو يكون مع الشيطان وأوليائه، ولا ثالث لهما.

طريق الشيطان

وإنّ سالكي طريق الشيطان وأوليائه هم الكفّار والمنافقون. يقول تعالىٰ في كتابه المجيد:

﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّه﴾[1]

---

(١) سورة الأعراف (٧): الآية ٣٠.

ويقول في آية أخرى:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾(١)

فإذا ما اتّخذ الإنسان المؤمن، اليهود والنصارى أولياء، فقد خرج عن زمرة أهل الإيمان، ودخل في زمرة اليهود والنصارى.

فلا يصح أن يقول أحد: أنا في طريق الإيمان ولكنّي أحبُّ اولئك السائرين في طريق الشيطان. فإنَّ مثل هذا الإنسان، بحبّه لهم يكون من زمرتهم، وخروجه عن الايمان لا يضرُّ الله، فلو أشرك من في الأرض جميعاً فلن يضرّوا الله تعالىٰ وأوليائه شيئاً.

ومع هذا البيان القرآني الواضح، من يستطيع أن يدّعي بأنَّ أهل البيت عليهم السّلام، ليسوا في طريق الله تعالىٰ؟

ومن يدّعي بأنّهم ليسوا هداة البشريّة إلىٰ الله عزّوجلّ؟

فإذا لم يطع الإنسان ولم يتابع أهل البيت عليهم السّلام، فسيكون من غيرهم لا منهم. يقول القرآن الكريم:

﴿الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾(٢)

فمن كان موالياً للمنافقين، فسيكون منهم، فلا يجوز له أن يدّعي الإيمان.

وإذا كان الإنسان في زمرة أولياء الله وفي ولايته، لم يكن للشيطان عليه سلطان، لأنّ الله تعالىٰ يقول:

---

(١) سورة المائدة (٥): الآية ٥١.

(٢) سورة التوبة (٩): الآية ٦٧.

﴿إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذينَ يَتَوَلَّوْنَه﴾(١)

فعلى الإنسان أن يحدّد موقفه، ويحاسب نفسه، ليكون على وعي من أنه في أي زمرة يكون، فإنّ الإدّعاءات المجردّة لا تكفي ولا تغني، فبعض الناس يدّعون بأنّهم يحبّون أهل البيت عليهم السّلام، ولكنّهم في نفس الوقت يميلون إلىٰ فلان وفلان ويتبّعون في الأعمال العباديّة والأحكام الشرعيّة مذهب فلانٍ أو فلان!!

إنَّ هذا من المحالات، فلا يقبل من شخص أن يدّعي حبَّ الله وأوليائه، وفي نفس الوقت يحبّ أو يتبّع فلاناً أيضاً.

فهذا غير مسموح به، فإمّا الله وإمّا الشيطان، ولا يخرج الأمر عن أحد هذين الطريقين، وكما ميّز القرآن الكريم بينهما، وفصلَهما عن بعضهما فصلاً تامّاً.

إذن، فكلُّ من قال بولايتكم يا أهل البيت، أي بأولويّتكم ووجوب طاعتكم ومتابعتكم، فهو مطيع لله تعالىٰ، لأنّ الله عزّوجلّ هو الذي أعطاكم هذا المقام ببركة العبودية والعبادة والطاعة.

ثم نقرأ: «ومن عاداكم فقد عادى الله»؛ فمن سلك غير طريقكم، وأضمر لكم العداوة، فقد عادى الله تعالىٰ في حقيقة الأمر.

والحاصل: إنّ المخالفين للأئمة عليهم السّلام على قسمين:

١ ـ من يخالفهم ولا ينصب العداوة لهم.

٢ ـ من يخالفهم ويناصبهم العداوة.

ويُعبّر عن القسم الثاني بالنواصب، وحكمُهم الشرعي في الفقه يختلف عن القسم الأول.

---

(١) سورة النحل (١٦): الآية ١٠٠.

إذن، فمن أراد أن يكون مطيعاً لله تعالىٰ، عليه أن يقبل ولاية أهل البيت عليهم السّلام، وإلّا دخل في عداد المخالفين لهم، ومن اختار غير طريق الله تعالىٰ، فإنّ مصيره واضح ومعروف، وهو الطرد من رحمة الله تعالىٰ.

هذا، وإنّ مفتاح الوصول إلىٰ المنازل المعنويّة والرقي إلىٰ أعلاها هو المحبّة.

ولذا، فإنّ على أعداء أهل البيت عليهم السّلام، أوّلاً أن يتركوا العداء، فإذا زال العداء جاء دور الحبّ، وإذا وجد الحبّ تحقق الاتّباع، فمثلهم مثل الجاهل بالجهل المركّب الذي عليه أولاً أن يعرف أنّه جاهل لكي ينتقل إلىٰ الجهل البسيط، ثمّ بعد ذلك يخرج من جهله ويدخل إلىٰ عالم النور؛ فكذلك أعداء أهل البيت عليهم السّلام، فإذا ما زال العداء واستقر حبُّ أهل البيت في قلوبهم، فإنّهم سيرتقون في درجات سُلَّم الطاعة.

ومن ثمَّ، فإنَّ من لم يكن في قلبه عداء لأهل البيت عليهم السّلام، فإنَّه سيصل إلىٰ موالاتهم بوقت أقصر من غيره.

ولاية الأئمّة على الأموال والأنفس

ويعبّر عن هذه الولاية بـ«الولاية التشريعيّة»، حيث إنَّ أهل العصمة لهم حقَّ التصرف في الأموال والأنفس، وعلى الجميع الإطاعة فيما يفرضه عليهم مقام عصمة الأئمّة في أموالهم وأنفسهم.

وهذا ممّا اتفّق عليه علماونا في الفقه والكلام والحديث، وقد تعرّض له الشيخ مرتضىٰ الأنصاري رحمه الله في كتاب «المكاسب» وتبعه على ذلك جملة من أعلام الشيعة.

يقول الميرزا النائيني في هذا المجال:

«الولاية الشرعيّة الإلهيّة الثابتة لهم من الله سبحانه وتعالى في عالم التشريع، بمعنى وجوب إتّباعهم في كلّ شيئ، وإنّهم أولى بالناس شرعاً في كلّ شيئ من أنفسهم وأموالهم».(١)

ويقول السيّد الخوئي رحمه الله:

«الجهة الثانية في ولايتهم التشريعيّة؛ بمعنى كونهم وليّاً في التصرّف على أموال الناس وأنفسهم مستقلاً، فالظّاهر أيضاً لا خلاف في ولايتهم على هذا النحو، وكونهم أولى بالتصرّف في أموال الناس ورقابهم، بتطليق زوجاتهم وبيع أموالهم وغير ذلك من التصرّفات».(٢)

وعلى الجملة، فإن الله سبحانه قد منح المعصوم الإذن بالتصرّف في الأموال والأنفس إذناً عاماً، فكانت له هذه الصلاحيّة العامة، لا إنّه يستأذن في كلّ واحد من الموارد إذناً خاصّاً به إذا ما أراد التصرف، وسنذكر في هذا المضمار أقوال كبار علماء السنَّة أيضاً.

ويقول الشيخ الأنصاري بعد ذلك:

«المستفاد من الأدلّة الأربعة بعد التتبّع والتأمّل: إنَّ للإمام سلطنةً مطلقةً على الرّعية من قبل الله تعالىٰ، وإنّ تصرّفهم نافذ على الرعيّة ماضٍ مطلقاً».(٣)

ثم يستعرض الشيخ جملة من الأدلّة في الباب، ويقول في خصوص الإجماع:

---

(١) كتاب المكاسب ٢ / ٣٣٢.

(٢) مصباح الفقاهة ٣ / ٢٨٣ و ٢٨٤.

(٣) كتاب المكاسب ٣ / ٥٤٨.

«وأمّا الإجماع فغير خفي».[١]

وهنا نبيّن بنحو الإجمال لا التفصيل بعض أدلّة الولاية التشريعيّة للأئمّة الأطهار عليهم السّلام.

الدليل الأول:

إنّ أوّل دليل على الولاية التشريعيّة قوله تعالىٰ:

﴿النَّبِي أَوْلى بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِم﴾.[٢]

فالمؤمنون، أنفسهم وأموالهم تحت سيطرة النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله، فهو أولى بها منهم.

وثمرة هذا الحكم الشرّعي تظهر فيما لو أراد الإنسان شيئاً وأراد الرسول شيئاً مغايراً له.

أقوالُ مفسّري العامّة

يقول «الواحدي»، وهو من كبار مفسّري العامّة، في ذيل قوله تعالىٰ:

﴿النَّبِي أَوْلى بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِم﴾ «أي إذا حكم عليهم بشيء فقد نفذ حكمه ووجبت طاعته عليهم.

قال ابن عباس: إذا دعاهم النبي إلىٰ شيء ودعتهم أنفسهم إلىٰ شيءٍ، كانت طاعة النبي أولي بهم من طاعة أنفسهم».[٣]

---

(١) كتاب المكاسب ٣/ ٥٤٨.

(٢) سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٦.

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٣/ ٤٥٩.

وعليه، فإنَّ إرادة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله مقدّمة على إرادة الإنسان في كلِّ شيءٍ.

ويقول «البغوي» في ذيل قوله تعالىٰ:

﴿النَّبِي أَوْلى بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِم﴾ «يعني من بعضهم ببعض في نفوذ حُكمه فيهم ووجوب طاعته عليهم».

ثم ينقل البغوي بعد ذلك كلام ابن عباس، وكلاماً آخر، ثم ينقل حديثاً عن النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله أنه قال:

«ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، إقرأوا إن شئتم: ﴿النَّبِي أَوْلى بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِم﴾ فأيّما مؤمنٍ مات وترك مالاً فليرثه عَصَبَته من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه».[1]

ويقول الزمخشري:

﴿النَّبِي أَوْلى بِالْمُؤْمِنينَ﴾ في كلّ شيءٍ من أمور الدين والدنيا ﴿مِنْ أَنْفُسِهِم﴾، ولهذا أطلق ولم يقيّد، فيجب عليهم أن يكون أحبَّ إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقّه آثر لديهم من حقوقها».[2]

ومما ينبغي الإلتفات إليه، هو أنّنا أحياناً نستشهد بكلام علماء أهل السنّة لرفع الإستبعاد فقط، ولبيان حال الفرد الشيعي إذا ما أنكر ذلك بعد قبول المخالفين مثل هذه المطالب.

وللقاضي البيضاوي أيضاً نفس الرأي في هذا المقام. حيث يقول:

---

(١) تفسير البغوي ٣ / ٥٠٧.

(٢) تفسير الكشّاف ٣ / ٢٥١.

«﴿النَّبِي أَوْلى بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِم﴾ في الأمور كلّها... فيجب عليهم أن يكون أحبَّ إليهم من أنفسهم وأمرُه أنفذ عليهم من أمرها».[١]

وتطرّق النسفي في تفسيره لهذا الموضوع أيضاً وقال:

«﴿النَّبِي أَوْلى بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِم﴾ أي أحق بهم في كلّ شئ من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، فعليهم أن يبذلوها دونه ويجعلوها فدائه».[٢]

وهذا المعنى ذكره أيضاً «نظام الدّين النيشابوري» من مفسّري العامّة المشهورين. قال:

«والمعقول فيه أنّه رأس الناس ورئيسهم، فدفع حاجته والاعتناء بشأنه أهمّ ... ويعلم من إطلاق الآية أنّه أولى بهم من أنفسهم في كلّ شئ من أمور الدنيا والدين».[٣]

وها هو الخطيب «الشربيني» في تفسيره «السراج المنير» ينقل حديثاً في هذا المعنى بعد أن يفسّر الآية، ثمّ يذكر علّة أولويّة النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله في التصرّف ويقول:

«وإنّما كان صلّى الله عليه واله أولى بهم من أنفسهم، لأنّه لا يدعوهم إلّا إلىٰ العقل والحكمة».[٤]

إذن، فمثل هذه الولاية ثابتة لرسول الله صلّى الله عليه وآله باعتراف علماء أهل السنّة أيضاً، ولكن عندما يقع البحث في معنى حديث الغدير المسبوق بالإشارة إلى الآية المذكورة فإنّ كلامهم يتغيّر.

---

(١) تفسير البيضاوي ٤ / ٣٦٤.

(٢) تفسير النسفي ٣ / ٢٩٧.

(٣) تفسير غرائب القرآن ٢١ / ٧٧ ـ ٧٨، نقلاً عن: نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار ٩ / ٥٤.

(٤) السراج المنير في تفسير القرآن الكريم ٣ / ٢٢١.

فقد ورد أن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال:

«ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟

قالوا: بلى.

قال: فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه».[١]

هذا، وإذا بحث عن حديث الغدير وأوضحت دلالاته بالتفصيل، ظهر وجه ارتباط الآية المباركة ﴿**النَّبِي أولَى بِالمُؤمِنين...**﴾ بالأئمّة عليهم السّلام.

الدليل الثاني:

من القرآن الكريم على الولاية التشريعيّة، آية الولاية، حيث يقول تعالىٰ:

﴿**إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُون**﴾[٢]

وقد بُدئت الآية الكريمة بأداة الحصر «إنّما» وأنَّ الولاية ليست إلّا لله وللرسول و....

وهذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السّلام، بسبب تصدّقه على السائل في حال الركوع.

ونزول هذه الآية في حقّه في هذه الواقعة الخاصّة، مورد إتفاق علماء

(١) ورد حديث الغدير في أكثر مصادر الشيعة وأهل السنّة، منها: كمال الدين: ٣٣٧؛ الطرائف: ١٤٩، الحديث ٢٥٥؛ بحار الأنوار ٣٧ / ١٢٣، الحديث ١٧؛ مسند أحمد بن حنبل ٤ / ٣٧٢؛ فضائل الصحابة ٢ / ٦١٠، الحديث ١٠٤٢؛ مجمع الزوائد ٩ / ١٠٥؛ تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٢٠٩؛ كنز العمّال ١٥٨/١٣، الحديث ٣٦٤٧٨؛ المعيار والموازنة: ٣٢؛ المعجم الكبير ١٩٤/٤؛ تاريخ بغداد ٣ /١٠. راجع: ٦ ـ ٩ نفحات الأزهار.

(٢) سورة المائدة (٥): الآية ٥٥.

الشيعة والسنّة على السواء، بنحو جعل بعض كبار علماء السنّة يقرّون بالإجماع على ذلك.

وعلماء الشيعة ومحدّثوهم أيضاً يروون استدلال أهل البيت بهذه الآية على الولاية التشريعيّة للمعصوم. ففي كتاب «الكافي»، عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنه قال في قول اللّه عزّوجلّ: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا﴾:

(إنَّما) يعني أولى بكم، أي أحقّ بكم وبأموركم وأنفسكم وأموالكم.

﴿اللَّهُ ورَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني عليّاً وأولاده والأئمّة عليهم السّلام إلى يوم القيامة.

ثمّ وصفهم اللّه عزّوجلّ فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ وهُمْ راكِعُونَ﴾.

وكان أمير المؤمنين عليه السّلام في صلاة الظهر وقد صلّى ركعتين وهو راكع وعليه حلّة قيمتها ألف دينار، وكان النبي صلى اللّه عليه وآله كساه إيّاها، وكان النجاشي أهداها له، فجاء سائل فقال: السلام عليك يا ولي اللّه وأولى بالمؤمنين من أنفسهم ! تصدّق على مسكين، فطرح الحلّة إليه وأومأ بيده إليه أن احملها.

فأنزل اللّه عزّوجلّ فيه هذه الآية، وصيّر نعمة أولاده بنعمته، فكلّ من بلغ من أولاده مبلغ الإمامة يكون بهذه النعمة مثله فيتصدّقون وهم راكعون.

والسائل الّذي سأل أمير المؤمنين عليه السّلام من الملائكة، والّذين يسألون الأئمّة من أولاده يكونون من الملائكة. [١]

وفي ما تصدَّق به أمير المؤمنين عليه السّلام قولان.

---

(١) الكافي ١ / ٢٨٨ و ٢٨٩، الحديث ٣، وسائل الشيعة ٩ / ٤٧٧و٤٧٨، الحديث ١.

والقول المشهور هو أنّه عليه السّلام تصدَّق بخاتمه، وفي هذه الرواية إنّه تصدّق بحلَّة أهداها النجاشي للنّبي.

ولكنَّ المهم في الأمر ـ ولعلَّ في روايات أهل السنّة أيضاً قرينة عليه ـ هو إنَّ هذا السائل كان من الملائكة، ولكنّ نزول هذا الملك بهذه الصّورة إلىٰ الأرض لابدَّ أن يكون بإذن من الله تعالىٰ، فماذا يعني ذلك؟ وما هي مداليل مثل هذه الواقعة؟

وفي رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السّلام، قال:

«أمر اللّه عزّوجلّ رسوله بولاية علي وأنزل عليه: ﴿**إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ**﴾ وفرض ولاية أُولي الأمر فلم يدروا ما هِي، فأمر اللّه محمّداً صلى اللّه عليه وآله أنّ يفسّر لهم الولاية كما فسّر لهم الصَّلاة والزّكاة والصوم والحجّ.

فلمّا أتاه ذلك من اللّه، ضاق بذلك صدر رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وتخوّف أن يرتدّوا عن دينهم وأن يكذّبوه، فضاق صدره وراجع ربّه عزّوجلّ، فأوحى اللّه عزّوجلّ إليه ﴿**يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهدِي القَومَ الكافِرينَ**﴾.

فَصَدَعَ بأمر اللّه تعالى ذكره، فقام بولاية علي عليه السّلام يوم غدير خمّ فنادى: الصَّلاة جامعة، وأمر النّاس أن يبلّغ الشاهد الغائب».[1]

ونقل هذه الرواية كلُّ من علي بن إبراهيم القمي، والعيّاشي،

(١) الكافي ١ / ٢٨٩، الحديث ٤.

والشيخ الصدوق، والشيخ المفيد، والشيخ الطوسي، والشيخ الطبرسي، رحمهم الله، بأسنادهم.(١)

وقد ذكرت قضيّة نزول آية الولاية في كتب أهل السنّة أيضاً، ففي «شرح المواقف» للسيد الجرجاني، وشرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني، وكتبهم الكلامية المعتبرة، الإقرار الواضح بقيام الإجماع من المفسّرين على إنَّ هذه الآية الشريفة نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام.(٢)

ولذا، فإنَّ الشيخ الطوسي رحمه الله يقول:

«أقوى ما يدلُّ على إمامة أمير المؤمنين عليه السّلام وولايته، آيةُ الولاية».(٣)

وعلى أيّ حال، فإن هذه الآية من الآيات القويّة الدالّة على إمامة أمير المؤمنين عليه السّلام وولايته العامّة.

وقد نُقل خبرُ نزولها عن أمير المؤمنين عليه السّلام وعن المقداد، وأبي ذر الغفّاري، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وجمع من كبار الصحابة.(٤)

الدليل الثالث:

وثالث آية يُستدل بها على الولاية التشريعيّة هي قوله تعالىٰ:

---

(١) مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام ١ / ١٥٠، الحديث ٨٥؛ دعائم الإسلام ١ / ١٥؛ تفسير العياشي ١/٣٢٧، الحديث ١٣٧؛ الأمالي، الشيخ الصدوق: ١٨٦، الحديث ١٩٣، روضة الواعظين: ١٠٢، الإحتجاج ١ /٧٣، بحار الأنوار ٣٥ /١٨٣، الحديث ١.

(٢) شرح المواقف ٨/ ٣٦٠؛ شرح المقاصد ٢ / ٢٨٨.

(٣) تفسير التبيان ٣ / ٥٥٩.

(٤) للتحقيق أكثر في هذا المجال راجع: «آية الولاية» للمؤلف.

﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.[١]

وقد استدلَّ أعلامنا كالشيخ الأنصاري رحمه الله في «المكاسب»[٢] وآخرين بهذه الآية المباركة على الإمامة والولاية المطلقة للمعصوم.

وفي هذا المجال، روى الكليني في «الكافي» عن أحد أصحاب الإمام الصّادق عليه السّلام، قال:

«قلت له: حدّثني عمّا بُنيت عليه دعائم الإسلام، إذا أنا أخذت بها زكى عملي ولم يضرّني جهل ما جهلت بعده.

فقال: شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمّداً رسول الله صلّى الله عليه وآله، والإقرار بما جاء به من عند اللّه، وحقٌّ في الأموال الزكاة، والولاية الّتي أمر اللّه عزّوجلّ بها ولاية آل محمّدٍ عليهم السّلام، فإن رسول اللّه صلّى الله عليه وآله قال: «من مات لا يعرف إمامه مات ميتةً جاهلية»، قال اللّه عزّوجلّ **﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأمر مِنْكُمْ﴾**.[٣]

فكان علي عليه السّلام ثمّ صار من بعده الحسن ثم من بعده الحسين ثمّ من بعده علي بن الحسين ثمّ من بعده محمّد بن علي عليهم السّلام، ثمّ هكذا يكون الأمر، إنّ الأرض لا تصلح إلّا بإمام، ومن مات لا يعرف إمامه مات ميتةً جاهلية،

---

(١) سورة النساء (٤): الآية ٥٩.

(٢) كتاب المكاسب: ٥٤٦/٣ و٥٤٧، جاء في هذا الكتاب: " فنقول: مقتضى الأصل عدم ثبوت الولاية لأحد بشيء من الوجوه المذكورة خرجنا عن هذا الأصل في خصوص النبي والأئمّة صلوات الله عليهم بالأدلّة الأربعة. وبالجملة، فالمستفاد من الأدلّة الأربعة بعد التتبّع والتأمّل: إنّ للإمام عليه السّلام سلطنة مطلقة على الرّعيّة من قبل الله تعالى؟ وإنّ تصرّفهم على الرّعيّة ماض مطلقاً.

(٣) سورة النساء (٤): الآية ٥٩.

وأحوج ما يكون أحدكم إلى معرفته إذا بلغت نفسه هاهنا ـ قال: وأهوى بيده إلى صدره ـ يقول حينئذ: لقد كنت على أمر حسن».(١)

وفي رواية أخرى، يقول الراوي: قلت للإمام الصادق عليه السّلام:

«قولنا في الأوصياء أنَّ طاعتهم مفترضة».

فقال عليه السّلام:

«نعم، هم الذين قال الله تعالى: ﴿**أَطيعُوا اللَّهَ وَ أَطيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الأمر مِنْكُم**﴾، وهم الذين قال الله عزّوجلّ: ﴿**إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذينَ آمَنُوا**﴾».(٢)

وعن بُريدة قال: قرأ الإمام الباقر عليه السّلام قوله تعالى:

﴿**أَطيعُوا اللَّهَ وَ أَطيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الأمر مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْويلا**﴾.

ثم قال:

«كيف يأمر بطاعتهم ويرخّص في منازعتهم؟ إنّما ذلك للمأمورين الذين قيل لهم ﴿**وَأَطيعُوا اللَّهَ وَ أَطيعُوا الرَّسُولَ**﴾(٣)»

وفي رواية أخرى قال الراوي:

«سمعتُ عليّاً عليه السّلام يقول وأتاه رجل فقال له: ما أدنى ما يكون به العبدُ

(١) الكافي ٢ / ٢١، الحديث ٩؛ ينابيع المودّة ١ / ٣٥٠ و ٣٥١، الحديث ٥.

(٢) الكافي ١ / ١٨٧، الحديث ٧؛ الفصول المهمّة ١ / ٣٨٢، الحديث ٥١١.

(٣) الكافي ٨ / ١٨٤ و ١٨٥، الحديث ٢١٢؛ بحار الأنوار ٢٣ / ٣٠٢، الحديث ٦٠، ورد هذا الحديث بهذا السند وبتفاوت يسير في: ينابيع المودّة ١ / ٣٥١، الحديث ٦.

مؤمناً وأدنى ما يكون به العبدُ كافراً وأدنى ما يكون به العبد ضالّاً؟

فقال أمير المؤمنين عليه السّلام:

قد سألت فافهم الجواب... وأدنى ما يكون به العبد ضالّاً أن لا يعرف حجّة الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الّذي أمر الله عزّوجلّ بطاعته وفرض ولايته».

ففي هذه الرواية النورانيّة، ثلاث مصطلحات ينبغي الالتفات إليها، «حجّة الله»، «شاهد الله» و«من أمر الله بطاعته».

ثم يقول الراوي:

«قلت يا أمير المؤمنين! صفهم لي.

قال: الّذين قرنهم الله عزّوجلّ بنفسه ونبيّه، فقال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَطيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمر مِنْكُم﴾.[1]

قلت يا أمير المؤمنين! جعلني الله فداك، أوضح لي!

فقال: الذين قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في آخر خطبته يوم قبضه الله عزّوجلّ إليه: إنّي قد تركت فيكم أمرين لن تضلّوا بعدي ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإن اللطيف الخبير قد عهد إلي أنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا علي الحوض كهاتين ـ وجمع بين مسبِّحتيه ـ ولا أقول كهاتين ـ وجمع بين المسبِّحة والوسطى ـ فتسبق إحداهما الأخرى، فتمسّكوا بهما لا تزلوا ولا تضلّوا ولا تقدّموهم فتضلّوا».[2]

---

(١) سورة النساء (٤): الآية ٥٩.

(٢) الكافي ٢ / ٤١٤ و٤١٥، الحديث ١؛ ينابيع المودّة ١ / ٣٤٩ و٣٥٠، الحديث ٤.

واللطيف في هذه الرواية هو إنَّ أمير المؤمنين عليه السّلام يستدلُّ ـ بعد آية «أولي الأمر» ـ بحديث الثقلين أيضاً.

وفي هذا المجال، وردت روايات كثيرة نقلها الكليني في «الكافي» والشيخ الصدوق، والنعماني في غيبته، والمفيد، والشيخ الطوسي رحمهم الله تعالىٰ.

ففي هذه الآية المباركة ـ مضافاً إلىٰ إنَّ الله تعالىٰ قرن أولي الأمر به وبرسوله وجعل الولاية للثلاثة ـ أمر بطاعتهم بنحو مطلق.

متى ما أمر الله تعالىٰ بالطّاعة المطلقة، فلابدّ من العصمة لأنه من دون العصمة يستحيل الأمر بالطاعة المطلقة.

وخير شاهد على هذا الموضوع، الأوامر الواردة في القرآن والسنّة لإحترام الوالدين، فإنّها لم ترد على نحو الإطلاق، وإنّما قيدت ببعض القيود. قال تعالىٰ في كتابه المجيد:

﴿وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾.[1]

وبناءاً على هذا، فإن من المحال أن يأمر عزّوجلّ بطاعة شخص بنحو مطلق، من دون أن يكون ذلك الشخص معصوماً.

ولو أمر بإطاعة غيرالمعصوم بنحو مطلق لزم التناقض وهو محال، لجواز أن يأمر بارتكاب محرّمٍ كشرب الخمر، فيكون مقتضى وجوب إطاعته مطلقاً الارتكاب، ويكون مقتضى دليل حرمته عدم الإرتكاب، وهذا هو التناقض.

وهذا المطلب واضح لا غموض فيه، ومن ثمَّ، فإنَّ «الفخر الرازي» أقرَّ بدلالة الآية على العصمة لأولي الأمر.

---

(١) سورة لقمان (٣١): الآية: ١٥.

ومن هم أولوا الأمر؟

فهل يمكن إدّعاء العصمة لأبي بكر؟

لا، فحتّى ابن تيمية يصرّح بعدم عصمة أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية و....

فلا مفرَّ - إذن - من القول بأنَّ المراد من «أولي الأمر» هو الأئمّة الأطهار عليهم السّلام.

ولكنَّ المخالفين يأبون الاعتراف بهذا، مكابرة منهم، فيدّعون بأن المقصود من «أولي الأمر» هو الأمّة الإسلاميّة كلّها[1] لقول النّبي صلّى الله عليه و آله:

«لا تجتمع أمّتي على الضلالة».[2]

ثم يشير الفخر الرازي إلىٰ رأي الشيعة في هذا الموضوع ويقول في مقام الردّ عليهم:

«وأمّا حمل الآية على الأئمّة المعصومين على ما تقولُه الروافض، ففي غاية البعد. لوجوه: أحدها ما ذكرناه من أنَّ طاعتهم مشروطة بمعرفتهم وقدرة الوصول إليهم، فلو أوجب علينا طاعتهم قبل معرفتهم كان هذا تكليف ما لا يطاق».[3]

بالله عليكم، هل من أحد لا يعرف علي بن أبي طالب عليه السّلام مع كلِّ ذلك التصريح من رسول الله صلّى الله عليه وآله في حقه؛ ليكون ذلك عذراً لعدم طاعته؟

مَن مِنَ الأئمّة عليهم السّلام كان مجهولاً عند أهل السنّة ولم يتمكنوا من معرفته ليكون الأمر بطاعتهم أمراً بغير المقدور؟

---

(١) راجع: تفسير الرازي ١٠ / ١٤٤.

(٢) تفسير الرازي ١٤ / ١٩. وهو ضعيفٌ بجميع طرقه كما نصَّ عليه غيرواحد منهم.

(٣) تفسير الرازي ١٠ / ١٤٦.

وأين أنتم من حديث «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهليّة».[١]

ومن خلال ما ذكرناه، ثبت قرآنياً أنّ للأئمّة عليهم السّلام الولاية التشريعيّة.

وأمّا الروايات، فهي متواترة في هذا المعنى، ولا حاجة للبحث في أسانيدها بعد التواتر وإتّفاق الفريقين عليها:

الولاية التشريعيّة في حديث الولاية

وأوّل حديث يثبت الولاية التشريعيّة، هو حديث الغدير الشريف، وقد مرّ بيانه.

والحديث الثاني في الباب، هو حديث الولاية، وقد جاء فيه إنّ كلّ ما يفعله علي عليه السّلام هو بأمر الله تعالىٰ وليس من عنده، وإنّ أفعاله مرضيّة من قبل الله تعالىٰ ورسوله صلّى الله عليه وآله.

وقد صرّح كبار محدّثي أهل السنّة في القرون الماضية، كابن أبي شيبة، والطبري صاحب التفسير، والحاكم النيشابوري، وإبن عبد البرّ، والمزّي، وجلال الدين السيوطي وغيرهم، بصحة هذا الحديث، بل صرّحوا بثبوته عن رسول الله صلّى الله عليه و آله على وجه اليقين.[٢]

حديث الولاية برواية أحمد

وأخرج أحمد بن حنبل هذا الحديث بسنده فقال:

«عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: بعث رسول الله صلّى الله عليه وآله بعثين

---

(١) حديث مشهور اتّفق على روايته الخاصّة والعامّة.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٥ / ٣٥٦؛ مجمع الزوائد ٩ / ١٢٨؛ تحفة الأحوذي ٥ / ٢٩٣ و٢٩٤ و١٠ / ١٤٦ و١٤٧؛ تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ١٨٩ و١٩٠؛ تهذيب الكمال ٥ / ٣٥٠.

إلىٰ اليمن على أحدهما علي بن أبي طالب وعلى الآخر خالد بن الوليد فقال: إذاالتقيتم فعلي على الناس، فإن افترقتما فكلّ واحد منكما على جنده.

فلقينا بني زبيدة من أهل اليمن فاقتتلنا، فظهر المسلمون على المشركين، فقتلنا المقاتلة وسبينا الذريّة، فاصطفى علي امرأة من السبي لنفسه.

قال بريدة: فكتب معي خالد بن الوليد إلىٰ رسول الله صلّى الله عليه وآله يخبره بذلك.

فلمّا أتيت النبي صلّى الله عليه وآله دفعت الكتاب، فقرئ عليه، فرأيت الغضب في وجه رسول الله صلّى الله عليه وآله. فقلت: يا رسول الله ! هذا مكان العائذ، بعثتني مع رجلٍ وأمرتني أن أطيعه ففعلت ما أرسلت به.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: لا تقع في علي، فإنّه منّي وأنا منه، وهو وليّكم بعدي وأنّه منّي وأنا منه وهو وليّكم بعدي»؛(١)

حديث الولاية برواية الترمذي

وأخرجه الترمذي أيضاً بسنده عن عمران بن حصين:

«قال: بعث رسول الله صلّى الله عليه وآله جيشاً واستعمل عليهم علي ابن أبي طالب فمضى في السرية، فأصاب جارية فأنكروا عليه. وتعاقد أربعةٌ من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله، فقالوا: إن لقينا رسول الله أخبرناه بما صنع علي.

وكان المسلمون إذا رجعوا من سفر بدأوا برسول الله صلّى الله عليه وآله فسلّموا عليه ثمّ إنصرفوا إلىٰ رحالهم.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥ /٢٥٦.

فلمّا قدمت السرية سلّموا على النبي صلّى الله عليه وآله، فقام أحد الأربعة فقال: يا رسول الله ! ألم تر إلىٰ علي بن أبي طالب صنع كذا وكذا؟

فأعرض عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ قام الثاني فقال مثل مقالته.

فأعرض عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله.

ثمّ قام إليه الثالث، فقال مثل مقالته.

فأعرض عنه، ثمّ قام الرابع فقال مثل ما قالوا.

فأقبل إليه رسول الله صلّى الله عليه وآله والغضب يعرف في وجهه فقال: ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ إنّ عليّاً منّي وأنا منه وهو ولي كلّ مؤمن من بعدي».(١)

حديث الولاية برواية الطبري

وأخرجه الطبري و صحّحه عن عمران بن حصين:

«بعث رسول الله صلّى الله عليه وآله سرية واستعمل عليهم عليّاً، فغنموا فصنع علي شيئاً أنكروه ـ وفي لفظٍ: فأخذ علي من الغنيمة جارية ـ فتعاقد أربعة من الجيش إذا قدموا على رسول الله صلّى الله عليه وآله أن يعلموه، وكانوا إذا قدموا من سفر بدؤا برسول الله صلّى الله عليه وآله، فسلّموا عليه ونظروا إليه، ثمّ ينصرفون إلىٰ رحالهم.

فلمّا قدمت السرية سلّموا على رسول الله صلّى الله عليه وآله فقام أحد الأربعة، فقال: يا رسول الله ! ألم تر أنّ عليّاً قد أخذ من الغنيمة جارية؟

---

(١) سنن الترمذي ٥ / ٢٩٦ و٢٩٧، الحديث ٣٧٩٦.

فأعرض عنه...

فأقبل إليه رسول الله صلّى الله عليه وآله يعرف الغضب في وجهه فقال: ما تريدون من علي؟ علي منّي وأنا من علي وعلي ولي كلّ مؤمن بعدي».[١]

حديث الولاية برواية الطبراني

وأخرج الطبراني في المعجم الأوسط:

«بعث رسول الله صلّى الله عليه وآله علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد، كلّ واحد منهما وحده وجمعهما فقال: إذا اجتمعتما فعليكم علي.

قال: فأخذ يميناً ويساراً، فدخل علي فأبعد فأصاب سبياً فأخذ جاريةً من السبي.

قال بريدة: وكنت من أشدّ الناس بغضاً لعلي، فأتى رجل خالد بن الوليد، فذكر أنّه قد أخذ جارية من الخمس. فقال: ما هذا؟

ثمّ جاء أخر ثمّ جاء أخر ثمّ تتابعت الأخبار على ذلك.

فدعاني خالد، فقال: يا بريدة ! قد عرفت الّذي صنع فانطلق بكتابي هذا إلىٰ رسول الله.

فكتب إليه، فانطلقت بكتابه حتّىٰ دخلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله فأخذ الكتاب بشماله، وكان كما قال الله عزّوجلّ لا يقرأ ولا يكتب، فقال: وكنت إذا تكلّمت طأطأت رأسي حتّىٰ افرغ من حاجتي، فطأطأت رأسي فتكلّمت فوقعت في علي حتّىٰ فرغت، ثمّ رفعت رأسي فرأيت رسول الله صلّى الله عليه وآله

(١) كنز العمّال ١٣ / ١٤٢، الحديث ٣٦٤٤٤، نقلاً عن إبن أبي شيبة والطبري.

غضب غضباً لم أره غضب مثله إلّا يوم قريظة والنضير، فنظر إلي فقال: يا بريدة! أحبَّ عليّاً، فإنّما يفعل ما يؤمر به.

قال: فقمت وما من الناس أحد أحبّ إلي منه».[١]

والخلاصة أنّ النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله قال في مثل هذه الظروف: «إنّ عليّاً مني وأنا منه وهو وليّكم من بعدي»

وكلمة «بعدي» موجودة في غالب ألفاظ الحديث، وهي إمّا رتبيّة وإمّا زمانية.

ويُرجِّحُ السيد الخوئي رحمه الله البعديّة الرتبيّة في الحديث.[٢] أي: إنّ رتبته عليه السّلام تأتي بعد رتبة النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله.

وفي هذه الصّورة يكون لأمير المؤمنين عليه السّلام الولاية حتّىٰ في زمن النبي، ولكنّها في رتبة بعد رتبة النبي صلّى الله عليه وآله.

وإن كان المراد هو البعديّة الزمانيّة، فتكون ولاية أمير المؤمنين عليه السّلام بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذا الحديث يُبيِّن ثلاثة امور:

١ ـ الولاية التشريعيّة.

٢ ـ إنّ ما يفعله أمير المؤمنين عليه السّلام هو بأمر الله تعالىٰ.

٣ ـ إنّ الاعتراض عليه وانتقاد أفعاله يسخط رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وجاء في بعض ألفاظ هذا الحديث: إنّ النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله قال لبُريدة لمّا وقع في علي:

---

(١) المعجم الأوسط ٥ / ١١٧.

(٢) مصباح الفقاهة ٢ / ٢٨٥.

«أنافَقتَ يا بُريدة بعدي؟»[١]

ومن هنا، فإنَّ بُريدة جدّد بيعته لرسول الله صلّى الله عليه وآله وقال:

لقد عاديت عليّاً، ولكنّي ومنذ الساعة ما من الناس أحدٌ أحبّ إلي منه.

ولا شك في أنَّ هذه القصّة تُفيد ولاية أمير المؤمنين علي عليه السّلام، على الأموال والأنفس على وجه العموم و الإطلاق.

هذا، ولابدّ من التنبيه على أنا لانوافق على اقرب الإمام من أيّ أمرأةٍ ما دامت الزهراء الطاهرة على قيد الحياة.

الولاية التشريعيّة في حديث وهب

والحديث الثالث الدّال على الولاية التشريعيّة هو ما أخرجوه عن وهب بن حمزة.

«قال: صحبت عليّاً إلىٰ مكة، فرأيت منه بعض ما أكره، فقلت: لئن رجعت لأشكونّك إلىٰ رسول الله صلّى الله عليه وآله.

فلمّا قدمت، لقيت رسول الله صلّى الله عليه وآله فقلت: رأيت من علي كذا وكذا.

فقال: لا تقل هذا، فهو أولى الناس بكم بعدي»؛[٢]

ونحن نستدل بهذا الحديث على الولاية التشريعيّة لأمير المؤمنين عليه السّلام، على نحو ما تقدم في الحديث السابق، لأنَّ كلمة «بعدي» تعطي نفس المعنى الوارد في ذاك الحديث.

وقد روى هذا الحديث جمعٌ من محدّثي أهل السنّة الكبار: كالطبراني، وأبي نعيم الإصفهاني، وابن مندة، وابن الأثير و... غيرهم.

---

(١) مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام ١ / ٥٤٢، الحديث ٣٣١.

(٢) المعجم الكبير ٢٢ / ١٣٥؛ تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ١٩٩؛ أسد الغابة ٥ / ٩٤؛ مجمع الزوائد ٩ / ١٠٩؛ كنز العمّال ١١ / ٦١٢، الحديث ٣٢٩٦١؛ فيض القدير ٤ / ٤٧٠ و ٤٧١.

الولاية التشريعية في حديث آخر

وجاء في حديث آخر في هذا الباب، نقلته صحاح أهل السُنّة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال:

«فأنا أولى الناس بالمؤمنين في كتاب الله عزّوجلّ، فأيُّكم ترك ديناً أو ضيعة فادعوني فأنا وليُّه».[١]

ومحلُّ الشاهد هنا يظهر من كلمات علماء أهل السنّة في شرح هذا الحديث.

لقد روى أحدُ هؤلاء العلماء الكبار، هذا الحديث من صحيح البخاري، صحيح مسلم، النسائي و... ثم ذكر فوائد مستخرجه منه فقال:

«الثالثة: يترتب على كونه عليه الصَّلاة والسلام أولى بهم من أنفسهم أنّه يجب عليهم إيثار طاعته على شهوات أنفهسم وإن شقّ ذلك عليهم، وأن يحبّوه أكثر من محبّتهم لأنفسهم.

إستنبط أصحابنا الشافعيّة من هذه الآية الكريمة أنّ له عليه الصَّلاة والسلام أن يأخذ الطعام والشراب من مالكهما المحتاج إليهما إذا احتاج عليه الصَّلاة والسلام إليهما، وعلى صاحبهما البذل، ويفدي مهجته بمهجة رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وأنّه لو قصده عليه الصَّلاة والسلام ظالمٌ لزم من حضره أن يبذل نفسه دونه»؛[٢]

---

(١) صحيح مسلم ٥ / ٦٢ و٩ / ٦٢؛ مسند أحمد بن حنبل ٢ / ٣١٨؛ السنن الكبرى ٦ / ٢٠١؛ كنز العمّال ١١ / ١٢، الحديث ٣٠٤١٠؛ المصنّف ٨ / ٢٩١، الحديث ١٥٢٦١؛ السنن الكبرى، النسائي ٤ / ٧٦، الحديث ٦٣٥٤.

(٢) ارشاد الساري في شرح البخاري ٤ / ٢٢١؛ راجع: نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار ٩ / ٦٣.

ويقول العيني في شرحه على «صحيح البخاري» بعد هذا الحديث:

«فمن هذا الكلام يظهر أنّ الآية المباركة: ﴿**النَّبي أولَى بِالمُؤمِنينَ مِن أنفُسِهِم**...﴾ إلىٰ آخرها، دالّة على أولويته بالمؤمنين من أنفسهم بجميع شئونهم وأنّ عليهم الإمتثال المطلق».[1]

وللشرّاح الآخرين كلماتٌ في هذا المضمار، ولكنّنا نكتفي بهذا المقدار من نقل كلماتهم.[2]

حبّ أئمة أهل البيت حبّ الله وبغضهم بغضه

وَمَن أَحَبّكُم فَقَد أَحَبَّ اَللهَ وَمَن أبغَضَكُم فَقَد أَبغَضَ اللهَ

وكما ذكرنا سابقاً، فإنّ المحبّة وسيلةٌ للطاعة، والبغض مقدمة للمخالفة. ولقد وصل الأئمّة عليهم السّلام إلىٰ مقام حتى كانت محبّتهم محبّةُ الله تعالىٰ، وبغضهم بغض الله تعالىٰ.

وفي هذا المجال، وردت روايات كثيرة في كتب الشيعة والسنّة.

فعن أمير المؤمنين عليه السّلام أنه قال:

«سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: أنا سيّد ولد آدم وأنت يا علي والأئمّة من بعدك سادات أمّتي، من أحبّنا فقد أحبّ الله ومن أبغضنا فقد أبغض الله، ومن والانا فقد والى الله، ومن عادانا فقد عادى الله، ومن أطاعنا فقد أطاع الله، ومن عصانا فقد عصى الله».[3]

---

(١) راجع: عمدة القاري في شرح البخاري ١٢ / ٢٣٥؛ نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار١٦ / ٢٣٠.

(٢) راجع: نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار ١٦ / ٣٢٦ ـ ٣٣٩.

(٣) بحار الأنوار ٢٧ / ٨٨.

والروايات الواردة في حبِّ أهل البيت عليهم السّلام، يصعب عدُّها.

و«الحبُّ» الصّادق يأتي بالطاعة والمتابعة دائماً.

ومن هنا، فإنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله ـ وخاصّة مع علمه بما سيقع بعده عليهم ـ أمر بحبِّهم ونهى عن بغضهم، وأكّد على ذلك في مواطن كثيرة.

وقد قلنا مراراً: بأنَّ مثل هذه الأوامر تساوي العصمة، بل تتعدّى ذلك بكثير، ومن هنا جاء في المأثور مخاطباً لله تعالى:

«لا فرق بينك وبينهم إلا إنّهم عبادك وخلقك»

المعتصمون بالأئمّة عليهم السلام

وهذا ما نقوله:

وَمَن إعتَصَمَ بِكُم فَقَد إعتَصَمَ بِاللهِ

يقول الراغب الإصفهاني في كلمة «عصم»:

«العصم: الإمساك، والاعتصام الاستمساك».[١]

فمن تمسك بأهل البيت عليهم السّلام فقد تمسك بالله تعالىٰ. وهذه الجملة أيضاً تدل على عصمتهم، بل تدلّ على أكثر من ذلك، والشواهد على ذلك كثيرة؛ يقول تعالىٰ في كتابه:

﴿وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَميعاً وَ لا تَفَرَّقُوا﴾.[٢]

قال الإمام عليه السّلام قال: «نحن حبل الله».[٣]

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٣٦.

(٢) سورة آل عمران (٣): الآية ١٠٣.

(٣) راجع الصفحة ٣٤٩ من هذا الكتاب.

وفي الحديث المتواتر قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي».[١]

والحمدلله رب العالمين

(١) راجع: نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار: الأجزاء ١ ـ ٣.

المحتويات